

هل يستطيع
الإنسان
أن يحيا من دون
الله



د. راقي زكاريوس

❖ بيلي غراهام:

يبحث راقي زكارايوس في إفلاس الحياة من دون الله، ويقدم دفاعاً قوياً عن كيف يعطي يسوع المسيح معنى ورجاء لحياة الإنسان. هو رجل يتمتع بفهم روحي عالٍ ومصادقية فكرية. أنصح بقراءة هذا الكتاب بشدة.

❖ تشارلز سويندول:

أنا لا أعرف عقلاً لامعاً، أو شخصاً مكرساً للدفاع عن الإيمان أكثر من راقي زكارايوس.

❖ ر. س. سبراول:

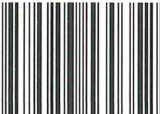
يقدم راقي زكارايوس دفاعاً ممتازاً عن الإيمان المسيحي لأيماننا هذه.

❖ جوش ماكداول:

يُرسِل الله نبياً لكل جيل. راقي زكارايوس هو نبي هذا الجيل. أنصح بالاستماع إليه.

هذه النسخة المميزة هي أحد أكثر الرسائل كلاسيكية في أيماننا هذه. يقدم راقي زكارايوس في كتاب «هل يستطيع الإنسان أن يحيا من دون الله» دفاعاً رائعاً ومُلزماً عن الإيمان المسيحي لم نر له مثيلاً منذ سي. إس. لويس. وهو يظهر بمنطق حاد وإيضاحات ثاقبة وقناعات ملتزمة كيف أن لواقع وجود الله أهمية بارزة في حياتنا اليومية.

ISBN 978-9953-530-35-2



9 789953 530352



Dar Manhal Al Hayat
دار منهل الحياة

هل يستطيع
الإنسان
أن يحيا من دون
الله

Originally published in English under the title:

Can Man Live Without God

Copyright © 1994 by Ravi Zacharias. All rights reserved. No portion of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means – electronic, mechanical, photocopy, recording, or any other – except for brief quotations in printed reviews, without the prior permission of the publisher. All rights reserved. This licensed work published under license.

الطبعة الأولى ٢٠١١
الكتاب: هل يستطيع الإنسان أن يحيا من دون الله

المؤلف: د. راقي زكارايوس



الناشر: دار منهل الحياة
بالاشتراك مع «خدمة راقي زكارايوس حول العالم»

www.rzim.org

rzim4me@gmail.com

ترجمة: بولس رعد

تنقيح: نزيه خاطر



Dar Manhal Al Hayat
دار منهل الحياة

تصميم الغلاف: دار منهل الحياة
التصميم الداخلي: دار منهل الحياة

ص.ب. ١٦٥ منصورية، المتن – لبنان

هاتف: ٩٦١ ٤ ٥٠١٩٢٢ +

فاكس: ٩٦١ ٤ ٥٣٢٤٨١ +

بريد إلكتروني: info@Dar-Manhal-Alhayat.com

موقع إلكتروني: www.Dar-Manhal-Alhayat.com

الترقيم الدولي: ISBN: 978-9953-530-35-2

جميع حقوق الطبع باللغة العربية محفوظة للناسر وحده،
ولا يجوز استخدام أو اقتباس أي جزء منه من دون إذن الناسر،
وللناسر وحده حق إعادة الطبع

إله زوجتي مارجي،

الهبة الثمينة من الله، والتي عاشت حياة جميلة له.

المحتويات

٩	تقديم بقلم شارلز و. كولسون
١٣	شكر وتقدير
١٥	المقدمة
٢٥	القسم الأول: الإلحاد موجود، ومميت
٢٧	الفصل الأول فَيُضُّ من الكرب
٤٧	الفصل الثاني ضلال بلا هدوء
٦٣	الفصل الثالث الرجل المجنون يصل
٧٧	الفصل الرابع العقل المتشرد
٩٣	الفصل الخامس أين الإلحاد عند الألم؟
١٠٩	الفصل السادس بحث في المعاني المتدنية
١٢١	القسم الثاني: ما الذي يعطي الحياة معنى؟
١٢٣	الفصل السابع علم المعرفة وفن الحياة
١٣٩	الفصل الثامن رومانسية الإفتتان
١٦٥	الفصل التاسع الحقيقة عنصر في طريق الإنقراض
١٨٣	الفصل العاشر عمل المحبة قد اكتمل
١٩٧	الفصل الحادي عشر العبور إلى الضفة

٢٠٥	القسم الثالث: من هو يسوع، وهل لمعرفته من تأثير
٢٠٧	الفصل الثاني عشر الوصول إلى الحقيقة
٢٢٣	الفصل الثالث عشر معضلة البشرية
٢٤١	الفصل الرابع عشر سعي الفيلسوف
٢٥٥	الفصل الخامس عشر محور المؤرخ
٢٧٥	الفصل السادس عشر كنز المؤمن
٢٩١	الملحق أ: أسئلة وأجوبة حول الإلحاد والإيمان بالله
٣١١	الملحق ب: مرشدون للمشككين
٣٣٩	Endnotes

تقديم شارلز كولسون

إنني أصغي إلى أشرطة التسجيل باستمرار. أصغي إليها حين أقود السيارة، وحين أعمل في حديقة منزلي، وأحيانًا حين أرتب الأوراق المتناثرة على مكتبي. لقد أصغيتُ على مرّ السنين إلى الآلاف من أشرطة التسجيل المسيحية.

لكن نادرًا ما كنتُ أسمع أيّ شيء يترك أثرًا في داخلي كالعرض الذي قدّمه راقي زكارايوس في جامعة هارفرد Harvard University بعنوان «سلسلة الحقيقة». لقد شرح راقي زكارايوس المسيحية بطريقة جذابة ومفهومة ومقنعة أمام مجموعة من أفضل الطلبة الأمريكيين وأذكاهم، وأجاب عن أسئلتهم بسرعة ومهارة.

لقد استمعتُ إلى هذه السلسلة مرّتين، ثم خابرت مكتبه واقترحت عليهم أن يحولوا هذه السلسلة إلى كتاب. أتمنى أن يكون اقتراحي ذاك قد ساهم في ظهور هذا الكتاب، والذي أعتقد أنّه واحدٌ من أهمّ الكتب في عصرنا هذا.

لا يدرك معظمنا أنّ حرب الأفكار الدائرة في أمريكا الحديثة، والتي يُسمونها من باب لطف التعبير الحرب الحضارية، هي مجرد أمر عارض. فنحن المسيحيّين نهدر طاقاتٍ هائلة فيما نسعى لخوض معارك متفرقة؛ علمًا أننا نعجز عن تحقيق النصر في الحرب الحضارية بهذه الطريقة.

إذا، علينا مواجهة السبب الأعمق لهذا الصراع الحضاري. علينا أن نتقصى الجذور الفلسفية للمعارك التي نخوضها. في الحقيقة، لقد طرأ تحولٌ في التفكير الأمريكي إبَّان السنوات الثلاثين الأخيرة بشكل جذري.

إنَّ أحد أكثر الأمثلة تعبيراً هو نظرتنا إلى الحقيقة. ففي الستينيات من القرن الفائت، قال ٦٥ بالمائة من الأمريكيين إنهم يؤمنون بأنَّ الكتاب المقدس صحيح، أمَّا اليوم فقد تدنَّت هذه النسبة وأصبحت ٣٢ بالمائة. والأسوأ من كلِّ هذا أن ٦٧ بالمائة من الأمريكيين اليوم ينكرون وجود الحقيقة، و٧٠ بالمائة يعتبرون أنَّ الكمال الأخلاقي قد انتفى.

هذا الإرباك حول موضوع الحقيقة هو الأزمة الجوهرية في عصرنا الحالي.

ما الفائدة من مخاطبة العالم بما يقوله الكتاب المقدس، ما دام ثلثا المستمعين لا يؤمنون بصحَّة هذا الكتاب؟ وما الفائدة من قولنا إنَّ يسوع هو الحق، ما دام ثلثا الشعب الأمريكي لا يؤمنون بوجود الحقيقة؟ أنا لا أنكر أنَّ كلمة الله قادرة أن تبكت أقسى القلوب، لكن إذا طلبَ المسيحيون أن يُصغي إليهم العقل الحديث، ويشقُّوا طرقاً فعالة في حضارتنا، فعليهم أولاً أن يُطوِّروا ما سمَّاه فرانسيس شافر Francis Schaeffer «الدفاع الحضاري»؛ علينا أن ندافع عن مبدأ الحقيقة بالذات.

هذا بالضبط ما حقَّقه ببراعة راقي زكارايوس في هذا الكتاب، فهو يقدِّم دفاعاً قوياً وملزماً عن الإيمان المسيحي.

وكم يخيب ظنِّي حين أرى المسيحيين يتجنَّبون المناقشات العقلية. فكثيرون منهم يعتبرون أنَّ الدفاع العقلي ليس عملاً روحياً، وكأنَّ كلَّ ما يهْمُنَا هو الاختبار الروحي، وأنَّ مناقشة الأسس العقلية يُضعف إيماننا.

إلا أنَّ الموقف المعارض للنقاشات العقلية ليس موقفاً أكثر روحية، فالكتاب المقدس يأمرنا بوضوح أن نستأسر كلَّ فكر إلى طاعة المسيح.

إنَّ فشلنا يزيد من صعوبة تقديم الإنجيل، وسنخسر إذ ذاك تأثيرنا في المجتمع.

يحتاج العلمانيون المسيحيون إلى أن يتجهَّزوا بالمنطق والتحليل الموجودين في صفحات هذا الكتاب. بعد ذلك يجب أن نجلس مع أصدقائنا غير المؤمنين لندافع عن الحق وعن تاريخية الإيمان المسيحي.

أرجو ألاَّ تقرأ هذا الكتاب باستخفاف ومن ثمَّ تُحيله جانباً، بل ادرسه، وتجاوز مع الحجج والبراهين التي يقدمها، واستخدم ما تتعلَّمه، لنُصرة الحق مع أصدقائك.

إنَّ المجتمع الذي نعيش فيه هالك، لكن غالباً ما يُقيم الله في أحلك الظروف أناساً، بل أنبياء ليتكلَّموا إلى عصرنا. راقي زكارايوس هو هذا الرجل لهذا العصر. أرجو، بل أصلي كي يجهِّزك الله للمحاربة الحسنة التي نخوضها.

شارلز كولسن

شكر وتقدير

قرأت في الآونة الأخيرة كلمة شكر وتقدير تبدأ بهذه الكلمات: «لقد تمّ نشر هذا الكتاب وهو يجرّ خلفه سحابة من لطف الآخرين.» هذه العبارة المُفَعِّمَة مشاعر رقيقة ستُرافقنا في صفحات هذا الكتاب أيضًا، ولا سيّما أنّ كثيرين قد ساهموا في نشره. بالطبع، أعجز عن تعداد أسمائهم جميعًا، إلّا أنني أريد أن أخصّ بالذكر على الأقلّ أولئك الذين مارسوا دورًا أساسيًا في تكميم هذا العمل. أولاً، أودّ أن أشكر طلاب جامعة هارفرد Harvard University، وجامعة ولاية أوهايو Ohio State University، الذين حضروا المحاضرات التي ألقيتها هناك. كما أنّ الهيئات التي دعّنتني والتي استضافت هذه المنتديات، تستحقّ تقديري الصادق، مُنوّها بتخطيطهم الرائع وتنظيمهم المُبدع للاجتماعات.

وكذلك أعبر عن امتناني لشارلز كولسون Charles Colson، الذي ابتكر فكرة تحويل هذه المحاضرات إلى مادّة مطبوعة. إنّ فكرته تلك هي التي أطلقت هذا المشروع.

لقد تطلّبت عملية طباعة المواد الصوتية ساعات مضيّة وعملاً دقيقاً، قامت به كارن مايهم Karen Mayhem بكفاءة قصوى. كانت جهودها بمثابة حلقة حيّة في سلسلة العمل، وإنّي لمُوجّه لها شكري العميق.

وأريد أيضًا أن أعبر عن تقديري لكلّ زملائي الذين قدّموا تضحيات جمّة من دون أيّ تذمّر خلال فترة غيابي. أخصّ بالذكر دان غلايز Dan Glaze، «مُشجّعِي الدائم» الذي كان يقودهم في دعمهم لي. أذكر أيضًا من ذلك الفريق السيدة دانيال دورانت Danielle DuRant المعاونة في حقل

الأبحاث التي راقبت عن كثب وبالنسبة عني كل الأمور المترتبة على هذا المشروع، وقد أدت دوراً حيوياً وفعالاً. لقد عملت بكد واجتهاد خاصة في المراحل النهائية من هذا الكتاب. وإني لمدين أيضاً لجوان هوغتون Joan Houghton لمساعدتها اللطيفة والماهرة في الأمور المتعلقة باللغة. لقد كانت معلمة لامعة.

حقاً، كان كل الفريق الذي عملت معه خلال هذه الفترة قدوة في لطفهم وتشجيعهم. كما كان كل من كيب جوردن Kip Jordon، وجوي پول Joey Paul صديقين لطيفين ومستشارين حكيمين. لقد كانت خبرتهما وتواجدهما الدائم مصدرًا رائعًا لي.

والأهم من هذا كله، أذكر زوجتي مارجي Margie التي عملت ساعات طوالاً، وتعبت أكثر مني في تنقيح هذا الكتاب من بدايته إلى نهايته. فلو استطاعت أجهزة الكمبيوتر أن تلبس الشخصية التي تستخدم هذه الأجهزة، لأظهرت أجهزتنا شخصية زوجتي. لولا صبرها وعطفها وتصحيحاتها الهامة، لما كان بالإمكان إصدار هذا الكتاب. لا أستطيع أن أنكر دورها الفعال.

لقد استطعنا أنا وزوجتي أن نتصرف بوقتنا بحرية بفضل ثلاثة أشخاص نعتزُّ بهم أيّ اعتزاز. وإننا نتوجه إليهم بالشكر العميق النابع من قلوبنا. إنهم أولادنا: سارة Sarah، ونعومي Naomi، وناثان Nathan. وكم اضطررنا أن نقصر أيام العطلة لكي نُنهي متطلبات العمل بالوقت المحدد. كانوا متفهمين جداً وشجعونا في أثناء جميع مراحل هذا المشروع. بالفعل، إن هذا الكتاب يجرُّ وراءه سحابة من لطف أناسٍ أغنتني حياتهم روحياً.

المقدمة

قال الصحفي الإنكليزي مالكولم ماغريدج Malcolm Muggeridge بدهاء وسخرية: «لقد ثَقَّفْنَا أنفسنا بالحماقة.» قال هذا مُعَبِّراً عن أسفه للأفكار الشائنة التي تُحدِّد معالم المعتقدات الحديثة. وقد أظهر جورج ويل George Will خيبة أمل مُشابهة في تعليقه على الحضارة الأمريكية حين جزم بأنّه لا يوجد أيُّ أمر مبتذل في حياتنا لا يمكن أن نجد له أستاذًا في مكان ما، يأتينا ويبرِّره.

لماذا هذا التوافق بين التصرُّف الشاذ وقاعات التعليم؟ من الجدير أن نبحث عن إجابة، إن أردنا أن نعالج الانحراف في مجتمعنا الحالي من خلال فهم مجتمع الأسلاف، وأن نُقاوم ما يبدو أنّه مستقبل واعد بإمكانيات مرعبة. ليس أمرًا جديدًا أن تبدأ أُمَّة شابة بالوصول إلى سنيّ البلوغ وتسعى للتحرُّر من القيود، ويعبارات نفسية، أن تتبرَّأ من أبيها. إنَّ التمسك بهذا النوع من الحرية الجامحة والاستقلالية الفردية المطلقة، قد يواجه معارضة، وأفضل الرجاء لضمان التخلص من ذلك هو عبر تقويض القناعات والفلسفات المُترجَّحة ومقابلتها بمعرفة أعظم، وحقائق جديدة، وتبصُّر سامٍ في الأمور التي تفصل الماضي عن الحاضر.

يُشبه المفكِّرون العلمانيون محامياً يُرافع في دعوى قضائية، حيث يحاول باندفاع أن يشكك بشهود عيان يضرون بقضيته، فيطلقون العنان لجهودهم المتضافرة لإلحاق الضرر بعقول هذا الجيل. فإن استطاعوا أن يزرعوا أقلَّ شكٍّ حول أيِّ مُعتقد إلهي بسيط، يفرحون إذ يعتبرون أنَّ النظرة العالمية برمتها هي نظرة خاطئة. والهدف هو أن يُنشئوا نسلًا يافعًا من علماء لاهوت ومُبتكري معتقدات، يُنظر إليهم كمنقذين يُنجون

المجتمع من ظلم الماضي المُصاب بداء الله، ويعيدون صياغة المجتمع حسبما يرتأون.

هذا النوع من المكائد الذي يجمع بين الخداع اللغوي وتشويه الحقيقة، هو مساومة معروفة في قاعات المحاكم، توصل هيئة المحلفين الضائعين إلى النتيجة المنشودة. وإني أحسب أنّ هذه كانت المقاربة الدقيقة المستخدمة في معركة الأفكار والتي سارت على مدى قرون طويلة. كانت الطريق من عصر النهضة، مروراً بحركة التنوير الفلسفية، وصولاً إلى ما بعد الحداثة ونظرة التفكيك العالمية، طريقاً يمكن توقع السَّير فيه. كنا نسمع عبر تلك القرون كلّها تحذيرات بأنّه لو كان الإنسان فعلاً مقياس الأمور كلّها، لكان على الناس أن يحدّدوا «أيّ إنسان» هو المقياس. هل سيكون هتلر Hitler، أم هيو هافنر Hugh Hefner، أم ستالين Stalin، أم الأم تيريزا Mother Teresa؟ لكنّ هذا السؤال كان مُربكاً، وكانت الإجابة عنه تُنذر بالشؤم. وبما أنّه غالباً ما يتمّ دفن كلّ سؤال مزعج وفاضح للمتناقضات تحت ركام من الحشو الكلامي أو الهجمات النقدية المضادة العنيفة، لذلك كان التوجّه الاستراتيجي نحو تأسيس وجهة نظر عالمية جديدة غالبية عبر رمي الافتراءات والتشهير بالأفكار التي تقف في وجهها لكي تكون المعركة معركة محسومة.

كانت الوسائل الأساسية لتحقيق هذا الهدف تقضي بالسيطرة على المعادل الفكرية، أي على جامعاتنا، وبناءً على خطة منمّطة من هجمات «العلماء» بغية تغيير البنية الصحيحة للإيمان بالله لكيلا يعود الله يُعتبر في ما بعد كياناً مقبولاً في الأطر الدراسية. كان هذا الهجوم الشرس على المعتقدات الدينية يُنفذ باسم الحرية السياسية أو الأكاديمية، فيما كان القصد الحقيقي قهر أيّ أمر تفوح منه رائحة الانضباط الأخلاقي بطريقة فلسفية. وبلا حياء، كانت وطأة الهجوم موجّهة بالكامل ضدّ المسيحية، فيما كانت الديانات الشرقية تتمتع بانحناءة رأس مؤبّدة، تحت غطاء الصوفية. أمّا بالنسبة إلى الديانة الإسلامية، فلا تجرؤ أيّ جامعة أن

تسيء إليها. ويداً بيد مع هذا الجبن الفكري السافر والنفاق المكتوم، ظهرت السخرية والاستهزاء بالمسيحية، الأمر الذي أصبح شائعاً، ويُعرف بأنه تعذيب «حضاري».

على هذا النحو كان الهجوم على كل ما جرى في الماضي، إذ أصبح القلم سيفاً ومنصة الأستاذ منبراً. ولو كان بالإمكان برمجة العقول اليافعة والخصبة لتؤمن بأن الحقيقة غير موجودة وبأن الشك هو الرقي، فتصبح المسألة مسألة وقت قبل أن تتم السيطرة على كل مؤسسة إجتماعية في المعركة ضد ما هو جوهري.

لكن هذا السيف قطع اليد التي صوّرتة، والتعليم فقد سلطانه. واليوم، إذ نتأمل في مجتمعاتنا، تبقى الأجوبة عن الأسئلة الأساسية في الحياة: من الحياة إلى الجنس إلى الموت، محيرة ومربكة. فالعلماء الذين علموا طلابهم أن يشكوا في السلطة، هم أنفسهم يؤمنون بالمعايير نفسها. لم يعد الإنسان يعرف إن كان ما يؤمن به هو حقيقي بعد الآن، وإن آمن بأي شيء فإن عبء تبريره قد انتزع. ومن اللافت للنظر أن كلمة جامعة باللغة الإنكليزية تعني «الوحدة في التنوع»، وكانت الفكرة وراء وجود الأكاديمية أن تنقل المعرفة والفضيلة. واليوم لا يُعترف بأي من هذين الهدفين. إن كتابات جان پول سارتر Jean-Paul Sartre في هذا القرن، والتي عبّرت عن شوق ورغبة في توحيد المعرفة، لم تتحقق قط. ثمة اليوم فرضية ضمنية بأن الشك هو سمة التعليم الحديث، مُحولين انتباههم أكثر إلى مثال رينيه ديكارت René Descartes في القرن السابع عشر، الذي بدأ بحثه عن اليقين في يقينية الشك. غير أن سارتر، وبكل أسف، على خلاف ديكارت، لا يفترض وجود إله لكي يحمينا من الخداع والضلال، فانتهى المشكك الحديث حيث ابتدأ ديكارت.

منذ سنين عدة نبهنا المؤلف پول شارر Paul Scherer من السقوط في هذا المنحدر الزلق. وقال مشيراً إلى المناوشات العنيفة بين الكنيسة والذين يحطون من شأنها:

قرّر واحد تلو الآخر من الجيل الذي رفض، في نشوة من الحرية، التقيّد بسلطة البابا والكنيسة، أن لا يقيدهم أي شيء: لا الكتاب المقدس ولا الضمير ولا الله نفسه. راحوا يُمارسون إيماناً قوياً لدرجة أنهم آمنوا بأمور لم يكن أصلاً مطلوباً منهم أن يؤمنوا بها، ثم ضعف إيمانهم حتى أصبح الوجود البشري والعالم نفسه بالنسبة إلى الآلاف منهم بلا معنى. بدأ الشعراء يتكلمون عن «القفار» وعن «الأشباح» على حدّ تعبير ستيفن سپاندر Steven Spander الذي قال: «هائمون بين أطلال مبعثرة وقد فقدوا كل مغزى». أصبح الفراغ محور أحاديثهم، والعدم دافعهم، والإحباط موضوع مؤلفي الروايات والكتّاب المسرحيين، وباتت «حافة الهاوية» مصطلحاً ملاحياً متداولاً بين النخبة المثقفة، كما كان متداولاً بين المستكشفين في أيام كولومبوس.^١

أجل، لم يُفقد الكلّ، فعلى الرغم من محاولات المفكرين الإلحاديّين المتنوّعة والمتعمّدة لتقويض ما هو روحي ودفعه إلى حلبة اللاعقلانية، أو في أحسن الأحوال اعتباره مسألة خاصّة، فإنّ الشوق إلى ما هو أسمى وأعلى يبقى شديداً. وبعد عشرين عاماً تقريباً من السّفر حول العالم وإلقاء المحاضرات في عدد كبير من الجامعات حول العالم، تبين لي أنّ الشوق إلى الأمور الروحية لن يخبو. في الواقع، كان الجمهور يملأ تقريباً كلّ قاعة ذهبت إليها، وكان تقديرهم لي غامراً حتى في الأماكن التي تُعارضني. لا يوجد إثبات أوضح لهذا الشوق الصارخ، كالاختبار الذي حدث في روسيا والصين حيث حاولوا هناك بطرق شتى أن يُلاشوا فكرة الله، ليُدرّكوا لاحقاً أنّه نجا من الذين أرادوا تكفينه.

تروي جامعاتنا قصة مشابهة. فعلى الرغم من وفرة الشكّ المُتعالّي والمنتشر في المعادل الأكاديمية، ما زالت الروح البشرية تتوق إلى المزيد. يجب على هذا التشجّع بين الانثين أن يُعالج خاصة في هذا الوقت من

الهيجان الثقافي، ويتحتم على الأجوبة التي نتبناها أن تلبّي، ليس فقط مطالب القلب، بل أيضًا مطالب العقل. وهنا يجب التأمل في أعظم سؤال يُطرح علينا في عصرنا الحاضر: هل يستطيع الإنسان أن يحيا من دون الله؟ يجب أن يجيب عن هذا السؤال، ليس فقط الذين يصرّحون بإلحادهم، بل أيضًا الذين يعيشون حياتهم وكأنّ الله غير موجود وأنّ وجوده ليس هامًا.

لكن، ولكي أكون مُنصفًا، يجب أن أشير إلى أنّ لهذه القصة وجهًا آخر وهي تستفز بحق ازدراء المشكك. إن أغلب ما وصله من الرسالة المسيحيّة هو مجرد كلام سطحي عن الله بلا منطق، وهي عديمة الرحمة في استغلالها للناس. هذا أيضًا لن ينفع. فكما أنّ الفكر الإلحادي يفتقر إلى المنطق عند التدقيق فيه، هكذا أيضًا يمكن للحشو في الكلام الدينيّ المسبوك في كلام عاطفي فارغ ومجرد من المنطق أن يُقذف في وجه جمهور غافل باسم الأرثوذكسية. إنّ النهاية المدمّرة لهذا الأخير في تدميره للبشر المعدومين ماديًا وروحيًا قد تكون أعظم من الأفكار الصادرة عن المشكك العلني. هل من إجابة عن كلّ هذا؟ إنني لوائق بصدق أنّ الإجابة موجودة، وهي عبر إيجاد أرضية مشتركة للتفاعل متمثلة في المادة التي أقدمها لكم هنا.

يتضمّن هذا الكتاب موادّ من محاضرتين ألقيت واحدة منهما في جامعة هارفرد Harvard University بناءً على دعوة وجّهتها إليّ عدّة هيئات، والأخرى ألقيتها في جامعة ولاية أوهايو Ohio. وبما أنني قدّمت الموضوع ارتجالياً، لم يكن بالإمكان دائماً أن أعرض كلّ قرائن المجادلة. لذلك توسّعت في الموضوع لكي أعالج بعض النقاط المنسيّة. ومع هذا، ففي موضوع واسع كهذا الموضوع، لا يستطيع أيّ إنسان أن يحشد كلّ حجة في محاضرات قليلة موجزة. أرجو أن أكون قد قدّمت حججاً كافية للدفاع بشدّة عن النظرة العالمية للإيمان بالله بشكل عام، والنظرة العالمية المسيحيّة بشكل خاص. وبالمقابل، أرجو أن أكون قد

أظهرت النقاط المنطقية والإجتماعية الأساسية للفكر الإلحادي والتي هي غير متماسكة لكي تكون صحيحة، وإن اعتبرناها نظاماً فكرياً، فهذا النظام غير قادر على معالجة المعضلات الفكرية والوجودية التي تضعها الحياة أمامنا.

يجب أن أضيف أن تجاوب الجماهير كان ممتعاً ومشجعاً جداً، وكان الطلاب يحترمون الحجج المطروحة، حتى حين كنت أختلف معهم في الرأي. سأكون شاكرًا إلى الأبد على تصفيقهم القلبي وعبارات الشكر التي غمروني بها.

لقد وضعت هذه المواد في ثلاثة أقسام أساسية، وكل قسم ينبثق منطقيًا من القسم الذي يسبقه. يحلّل القسم الأول النظرة العالمية الإلحادية، مظهرًا المتناقضات المنطقية المتأصلة فيها، وعدم أهلية وكفاءة أفكارها الوجودية التي تجعلها في النهاية أمرًا لا يمكن التعايش معه من الناحية الفلسفية. غالبًا ما يضحّ الملحد ما يسميه «بالعبء الثقيل» الذي يفرضه الذين يؤمنون بالله على المجتمع من خلال فرضية واضحة تدّعي وجود أخلاقيات عبر الحضارات. وحين يقوم الملحد بهذا الادّعاء، يتّهم المؤمن بالله بأنهم، على حدّ تعبيره، مصدرًا للخراب، الذي أنزله الدّين على الحضارات. وهم يفعلون هذا، على ما يبدو، للدفاع عن التساهل والعزاء اللذين تمنحهما وجهة نظر عالمية تنكر ما هو أسمى وهي تتخذ موقفًا محايدًا من الأمور المطلقة. ينسى الأشخاص المعادون للمواضيع الروحية وبشكل مريح النتائج المدمّرة المترتبة على اتحاد الإلحاد بالنظرية السياسية والهندسة الإجتماعية. لا يوجد شيء في التاريخ يوازى النهاية الأليمة التي يمكن أن تصل إليها البشرية عند اتباعها فلسفة سياسية وإجتماعية تستبعد الله عن وعي وبشكل مطلق. ومضاعفات هذا الاستبعاد ستنتشر في المجتمع كلّهُ وستغيّر حياة كلّ الأفراد. يلازماني قول سانتيانا Santayana المأثور: إن الذي يرفض أن يستقي العبرة من التاريخ، يكرّر أخطاء التاريخ مكرّها.

تقود نهاية القسم الأول إلى استنتاج منطقي بأن فلسفة اللامعنى هي نتيجة حتمية لنقطة انطلاق الملحد. لقد سبق أن أقرّ الملحد بذلك، لكنهم يدعون بتعجرف أن هذه النتيجة تعطي حرية بلا روابط. هل هذا حقيقي؟ إن التّوق إلى ما له معنى في الاختبار البشري، لم يخب ولم يتبدّد في كلّ جيل من الأجيال التي تعاقبت عبر العصور على الرغم من التطور العلمي وبرز النظريات النفسيّة والاجتماعيّة الجديدة. كيف نشرح هذا التّوق إلى ما له معنى، وكيف يمكن إرضاءه؟ لقد حذّرت المتصوّفة الفرنسية سيمون فاي Simone Weil من ارتكاب الخطأ الذي لا يمكن توقّعه حين يفترض الإنسان أن هذا التّوق هو مجرد عقيدة وليس يقيناً. وهكذا، أذاع في المناقشة الثانية عن يقينيّة التّوق إلى المعنى، وأقدم أجوبة حاسمة في هذا البحث.

إنّ محور شخص يسوع المسيح وما قاله عن نفسه هو أمر جوهري في تلك الأجوبة وكلّ الأجوبة الأخرى التي يقدّمها الإيمان المسيحيّ بالله. فالأجوبة التي يقدّمها عن أعمق الأسئلة المتعلّقة بالحياة ليست ذات صلة وارتباط بأيامنا هذه فحسب، بل فرادتها ملزمة في تفاصيلها الصغيرة والكبيرة. يبرز سؤال جليّ عند النظر في حياة يسوع المسيح ورسالته - كيف نعرف أنّه هو الحقّ، فيما كان يعطي تعريفاً لجوهر الحياة والمصير؟ تيد تورنر Ted Turner، مثلاً، يسخر من المسيحيّة ويعتبر أنّ الزمن عفا عنها. هل تقيّمه هذا صحيح؟ ماذا عن الخيارات الأخرى المتاحة في مجتمع اختار أن يكون مجتمعاً تعدّدياً. هل يمكن للحقيقة أن تكون حصريّة إلى هذه الدرجة؟ سئل لاري كينغ Larry King مرّة، وهو مقدّم برنامج حوارى على التلفزيون، عن الأشخاص الذين يتمنّى أن يحاورهم عبر التاريخ. بعد تبصّر عميق، عدّد بعضاً، فكان من بينهم يسوع المسيح. عقب محاوره سائلاً: «وما السؤال الذي يمكن أن تطرحه على المسيح؟» فأجابه لاري كينغ: «أود أن أسأله إن كان بالفعل قد وُلد ولادة عذرية، لأنّ أجابته عن هذا السؤال ستحدّد معالم التاريخ.» يبدو للوهلة الأولى

أنّ ما قاله لاري كينغ كان مبتذلاً، لكنّه كان محقّاً بكلّ ما في الكلمة من معنى في تحديده المحور الذي يدور حوله التاريخ كلّهُ. لو كان يسوع بالفعل الشخص الذي ادّعاه، لكانت أي محاولة لانتقاد رسالته محاولة عقيمة. من جهة أخرى، لو كانت ادّعاءاته كاذبة، لكانت المسيحيّة ومعظم التاريخ مبنيّين على كذبة. أمّا القسم الثالث من هذا الكتاب، فيعالج السؤال المقلق حول إمكانية صمود الرسالة المسيحيّة ودفاعها عن نفسها. هذا القسم، بلا شك، هو أهم قسم في هذا الكتاب ويجب أن يُدرس بأكمله وبعناية شديدة.

بعد معالجة هذه المواضيع الثلاثة الأساسية التي تجيب عن السؤال: هل يستطيع الإنسان أن يحيا من دون الله؟ ستجد الملحق (أ) الذي يتضمّن الأسئلة التي طُرحت عليّ في جامعة هارفرد Harvard بعد المحاضرة. هذه الأسئلة تمثّل بشكل وافٍ معظم الأسئلة التي تُطرح حول هذا الموضوع.

الملحق (ب)، هو القسم الأخير من هذا الكتاب، وهو يعرض باختصار «الجانب الشخصي» لبعض المفكرين القياديين الذين صاغوا وشكّلوا العقليّة الفكرية المعاصرة على الصعيدين الشعبي والأكاديمي؛ مفكرون مثل برتران راسل Bertrand Russell، وجون پول سارتر Jean-Paul Sartre وآخرين غيرهما. لقد سعيت جاهداً لكي أدخل في عمق حججهم الإلحادية، وعرضت مغالطاتهم الضمنية غير المنطقية في فلسفاتهم. وإني واثق بأنّ المواد المكتوبة في هذا الكتاب ستثير تفكير القارئ.

قد يجد بعض القراء أحياناً أنّ المناقشة أصبحت ثقيلة. أحثّكم على متابعة القراءة وأؤكد لكم أنكم ستجدون إيضاحاً أو شرحاً يوضح النقطة التي أناقشها. لا يمكن إنكار أهمية هذه الأفكار لنا جميعاً، وإن بقيت بالفعل بعض الأفكار غامضة، فستجدون، عند الانتهاء من قراءة هذا الكتاب، أنّ الحجج الأساسية ستكون ثابتة وواضحة ومميّزة. ستكون

الإرشادات واضحة. أنا أؤمن بأن هذا الجيل يتوق إلى التفكير من جديد، ولن نفي بالغرض، ما لم نقدّم لهم هذه الفرصة للتفكير.

ثمّة قول مأثور يتردّد صداه في ذهني، وهو أنّ العقل هو كنز أعظم من أن يُهدر لأنّه هو الأمر الناهي في حياة كلّ إنسان. إن شهوة قلبي أن يقدر كلّ واحد منا أعظم عقل على الإطلاق حين تتكشف لنا هذه الأفكار ألا وهو عقل الله. إنّ وجود الله أو عدم وجوده هما أمران أساسيان وجوهريان لتحديد أي أمر آخر.

راقبي زكارايوس

أتلانتا، ١٩٩٤



القسم الأول

الإلحاد موجود، ومميت

الفصل الأول



فيض من الكرب



قال المفكر السياسي أندرو فلاتشر Andrew Fletcher من القرن الثامن عشر: «اسمح لي أن أولّف أغاني الأمّة، ولن يهمني من يسنّ قوانينها.»^١ إنّ كلماته الدّالة على ثقة بالنفس، لا تكشف عن نقطة وصول ثقافية رئيسية إلى عقول من يعاصرنا فحسب، إنّما تعترف بالتحكّم غير الاعتيادي للأغاني بأمزجة وقناعات الشبيبة الذين تواجههم إغراءات عديدة من هنا وهناك.

إنّني، ومن دون أي تردّد، أوافق السيد فلاتشر رأيّه. فإنّ خبرتي تشهد على الانطباعات التي نقشتها الموسيقى الشعبية في ضميري. لقد منحني هذا النوع من الموسيقى امتياز الشعور بعواطف مشتركة مع آخرين غيري. أتذكّر مرة في عمر المراهقة، وأنا في تلك المرحلة اللينة من حياتي، كيف جلست في غرفة الجلوس في مدينة نيودلهي New Delhi في الهند، معلقاً بين عالم كتاب الفيزياء المرعب المطروح على حضني، وصوت الموسيقى المنخفض الصادر من الراديو مباشرة إلى أذنيّ. بينما كنت في تلك الحالة الذهنية معلقاً «بين عالمين»، أسرتني فجأة مشاعر أغنية بدا لي أنها كانت تردّد صدّ الصراعات الدائرة في قلبي. لقد غمرني هذا المزيج الغريب من الغناء الشرقيّ الذي أسمعُه في الأصوات الخلفية للأغنية مع صوت المغني الغربيّ الهشّ، بشعور عام مع الكرب الواضح المشربّ في كلّ جملة في الأغنية، وعبر عن الأسئلة المتزاحمة في ذهني والتي كتبتها بألم؛ تقول الأغنية:

في فراغات العقل
نهيم ونتعثر
نسير في متاهات متشابكة
في ليل قاتم ونهار مظلم
على أمل أن نجد دليلاً
طريقاً يقودنا إلى الحقيقة
من سيقودني إلى الحقيقة؟
هل رجاؤنا في قشور الجوز
الملتفة حول الأعناق وهي تقرع كأجراس الهياكل؟
أم أنه داخل جدران الأديرة
حيث يصلي أناس يلبسون قلنسوة ورداء؟
أم أنها على رفوف مغبرة،
أم أنها في النجوم،
أم أنها فينا،
من سيقودني إلى الحقيقة؟^٢

حقاً، لقد لمس كاتب الأغنية المشاعر، فيما كان يجاهد مع الألم الذي نصادفه في هذه الحياة، أو مع اليأس الغامر الذي تشعر به عائلة ما حين تفقد عزيزاً عليها، ومع عذاب إنسان عند موت ابنه، أو آخر يتعذب ويتصارع مع الانتحار، أو مع جلبة وعجيج حانة رقص، حيث يهرب البعض من وحدتهم، أو مع قلق كثيرين يعيشون تحت تهديد مواجهة نووية. كل هذا ينتهي بالسؤال: «من سيعطي الإجابة؟» أخيراً، دوى صوت جوقة يعبر عن حدة الصراع الدائر داخل الضمير البشري.

إن أظلم الذعرُ الروحَ،

ذعرٌ يتعذّرُ تفسيره،

إن تحيّر العقل

عندما لا تناسب القوانينُ اللعبة،

من سيقودني إلى الحقيقة؟

من سيقودني إلى الحقيقة؟

من سيقودني إلى الحقيقة؟

لقد لفت انتباهي، حتى في تلك المرحلة من حياتي، أنّ هذا الإقرار الصريح بهذا الفراغ الكبير، صادر من العالم الذي كان يرمز إلى جنّة عدن الجديدة، أي أمريكا. وفوق هذا، هو صادر عن جزء من المجتمع الذي كان يجسّد النجاح الذي كان يصبو أن يصل إليه الملايين - هوليوود Hollywood، قلعة الافتتان والسحر الأبدي. كيف يُعقل هذا؟ لو كانت هذه الأسئلة الأليمة الصارخة صادرة عن أرض بلادي، لقبلت بها وفهمتها، لأنّ الحضارة الهندية لم تتحفّظ أو تتردّد في التعبير عن المآسي التي تُنذر بها الحياة. لقد فهم ف. س. نايبول V. S. Naipaul بشكل مناسب، وهو أحد أروع الكتّاب العالميين، هموم الهند ومآسيها حين أشار إليها بالحضارة الجريحة.

في ذلك الوقت من حياتي، صادف أن فاز أحد أروع الفنّانين في الهند بجائزة عالمية عن فيلمه «أمي الهند» Mother India. لقد وصف هذا الفيلم عائلة تصارع الحياة والموت لكي تصل إلى مستوى من الكرامة واللياقة في وجودها الزائل. لقد تجنّبت المرض والموت، وصارعت التقلّبات الناتجة عن الكوارث الوطنية، وحاولت التأقلم مع الصراعات العائلية، فأصبحت الحياة مرادفة للألم. عبّرت جوقة الأغنية المرافقة للفيلم عن هذا الألم باختصار مفيد:

بما أنني دخلت هذا العالم،
فقد تحتم عليّ العيش فيه.
إن كانت الحياة تعني أن أشرب سمًا،
فقد تحتم عليّ أن أشربه.

كانت فلسفة القدريّة، وفلسفة العدميّة، وفلسفة «خناق الحياة» مع كلّ الصدمات الوجوديّة الناتجة عنها، متفشية في أمة كانت ضحية نزاعات وصراعات استمرت لعدّة قرون. لكن كيف يُعقل لهذه الأسئلة المتوقّعة طرحها في بيئة «مجروحة»، أن يطرحها أيضًا أولئك الذين لم يختبروا الفقر نفسه وعاشوا في بلد قهَرَ الحرمان الجسدي إلى حدّ بعيد؟

مضت السنوات، وعلى الرغم من أنني صارعته هذه الأفكار في عقلي الفتى في تلك الفترة، ما زلت أشعر بحيرة عميقة، فإنّ هذا الصراع أخذ منحى جديدًا، فأنا الآن أعيش في الغرب وأشهد على اللحظات الأخيرة من هذا القرن من التطوّر، وأغاني الأمم لم تتغيّر. حيرتني تكمن في الغياب الفاضح للأجوبة، وأكثر من ذلك، في فشل النخبة الذريع في مجتمعنا من إدراك الأسباب الكامنة وراء الأسئلة المتعلّقة بالحياة، والتي تطرحها تلك الأغاني. استمع مثلاً إلى كلمات أغنيتين أداهما كينغ كريمسون King Crimson، وهي تعبّر عن تشويش وارتباك:

قدّم الهرة مخلب حديديّ
جرّاحو الأعصاب يصرخون مطالبين بأكثر
يخرج من الباب السام لجنون العظمة
رجل مفصوم من القرن الحادي والعشرين^٣

مرّة أخرى تُوسّر الأبواب فيما يجول الخيال في العنف الذي لا معنى له، وفي الحقد الذي لا داعي له، وفي الوحشية العديمة الرحمة التي

يمارسها البشر بعضهم مع بعض. النفس القاحلة وعدم يقينية المستقبل
مقيدان بشدة مع إبادة الروح.

الحائط الذي كتب عليه الأنبياء

يتصدّع عند التشققات.

على أدوات الموت

يسطع نور الشمس.

حين تتمزق أوصال كل الرجال

ويرون الكوابيس والأحلام،

ألن يطرح أحد إكليل الغار

بينما الصمت يُغرق الصراخ.

بين أبواب القدر الحديدية،

بُذرت بذار الوقت،

وسقتها أعمال الذين

يعرفون ويُعرفون.

المعرفة صديق مُميت

حين لا يحدّد أحد قانوناً لها.

قدّر البشر أجمعين

أراه بين أيدي الجاهلين.

تُلخّص نهاية الحياة بكلمة واحدة: الإرباك، وهي نقش مناسب
«للمصباح التالي» لهذه الحياة التي لم تعدنا بالضحك، بل بالبكاء. على
الرغم من كلّ الأحداث المأساوية والإفراط في القتل القابل للصفح، تبقى
رسالة الحياة العبثية رسالة لا يمكن مقاومتها.

إنني أعي مجازفة البدء بهذه النظرة القاسية إلى الأسئلة الصعبة مع الفلاسفة الشعبيين في أيامنا هذه، أي الموسيقيين. لكني أفعل هذا لأنني أعترف بأنهم يتمتعون بدرجة عالية من الصدق والحساسية عند إدراكهم الكرب الموجود في داخل القلب البشري، أكثر من الأكاديمي الذي غالباً ما يخفي صراعاً كهذا وراء قناع الثقة بالذات. من السهل الاختباء وراء الحجج الفلسفية المذيلة بالتفاصيل لتعطي تأثيراً أقوى، بدل الاعتراف بالأمور التي تؤذي وتربكنا، وبعواطفنا وشغفنا التي نختبرها في ساحة معاملتنا الحياتية القلبية. ومع كل الثقافة التي ندعي أنها وسّعت آفاق معرفتنا والتي كانت الأجيال قبلنا تحلم بأن تصل إليها، فإن رسائل الأغاني الشعبية لم تتغير لأن الصراعات والنزاعات ما زالت هي هي، بل ازدادت حدّة. هذه الزيادة في البحث عن أجوبة روحية ما زالت مستمرة على الرغم من أنه بين الحين والآخر تظهر على المسرح الثقافي بعض الأصوات الإلحادية، التي أصحابها يتكلمون وكأنهم يعرفون كل شيء، فيسخرون بالدين ويستهزئون بالمقدّسات. هؤلاء يفتخرون قائلين، «لقد تفوّقنا على هذه الخرافة.» إلا أن جماهير الشعب يتجاهلون هذه السمات والمواقف الثقافية، لأنهم يعلمون جيّداً أن هؤلاء «الخبراء» غير قادرين البتّة على حشر أثار العقول من خلال إعادة بناء الحقيقة.

اعترف ألبيرت كامو Albert Camus منذ عشرات السنين، كما فعل عالم النفس فيكتور فرانكل Viktor Frankl مؤخراً، أن البحث عن المعنى هو السعي الأساسي للحياة، ويعتبران أن كل الأسئلة الأخرى هي أسئلة ثانوية. وهكذا أصبح كل جيل من الأجيال، بما فيها جيلنا، يطرح مسألة جوهر الحياة التي لا يقف أمامها أي اختراع علمي أو نظرية أو تقنية جديدة. سأتجرّأ وأقدّم بعض الأجوبة، وأنا مدرك أن هذا البحث سيمرّ عبر الزمن والأجيال والحضارات. لكن يجب أن نحدّد أولاً المعضلة بشكل واضح ونقيم حدوداً، لكي نستطيع الشروع في بحث هذه الاعتبارات التي تخصّ أيامنا هذه من جانب بعض نقاط البحث.

🔥 حرارة شديدة وضوء خافت

تروى قصة، لا أدري إن كانت خيالية أم لا، عن بطل العالم في الملاكمة للوزن الثقيل، محمد علي، وهو مسافر للمشاركة في إحدى المباريات. لم يرتبط اسم محمد علي Muhammad Ali أبداً بالذل، وسواء كانت هذه القصة خيالية أم لا، فإنَّ مَنْ اشتهر بلقب «لويسفيل ليب» Louisville Lip هو الذي تسبَّب بإطلاق هذه الطرفة. يُقال إنَّه خلال الرحلة مرَّت الطائرة بطقس رديء، وبدأت الرياح الخفيفة والمعتدلة تهزّها. يُدرك المسافرون المتوترون أنَّه حين يعلن قبطان الطائرة عن وجود «اضطرابات معتدلة» فهو يقول بشكل غير مباشر: «إن كنت مؤمناً بأي معتقد ديني، فقد حان الوقت لكي تبدأ الصلاة». طلب قبطان الطائرة من المسافرين ربط أحزمة الأمان فوراً، فامتثل الجميع لأمره إلّا عليّاً. لاحظت مضيضة الطيران عدم امتثاله، فتوجَّهت إليه وطلبت منه أن يمتثل لأوامر القبطان، لكنَّه أجابها بتحدٍّ: «الرجل الخارق لا يحتاج إلى حزام الأمان». لم تخلج مضيضة الطيران منه بل أجابته قائلة: «والرجل الخارق لا يحتاج كذلك إلى طائرة».

أنا ألُفْتُ الانتباه إلى هذه القصة، إذ كثيرون منّا يجدون أنفسهم في سياقها المباشر والشامل. فنحن نعيش بلا شك في أمة فاحشة الثراء لديها الإمكانيات اللازمة للنجاح مادياً وثقافياً. والنتيجة، يستطيع بعضنا أن يحصل على أفضل مستوى من التعليم في أي مكان من العالم، ونتوجَّه من تفوُّق إلى آخر في عالم المتغيّرات السريعة. وبإمكان هذا المحيط المتحضر أن يخلق فينا بسهولة شعوراً بأننا لا نقهر، وهكذا ننخدع تماماً ونظنَّ أنَّ النجاح الذي أحرزناه أو المعرفة التي اكتسبناها سيرفعاننا فوق «الجماهير الجاهلة»، وأننا مجهزون بطريقة أفضل منهم لمواجهة الحياة مهما كانت المصاعب والمشاكل الكامنة أمامنا كبيرة. بكلِّ أسف، إنَّ التقدُّم الأكاديمي أو المادي لا يعطينا بالضرورة الحكمة. من التهور بمكان أن نأخذ ما وقرَّته الأجيال السابقة في مواجهتها

لاضطرابات الحياة، ثم ننقده ونرميه جانباً فقط لأننا عصريون. إن وقعنا ضحية لهذا الواقع، فإن الكلمة المناسبة لوصف ذلك التبجح بالذات هي الكلمة اليونانية *hubris*، المترجمة إلى اللغة العربية بكلمة «كبرياء». إن الدلالة الضمنية للكلمة الأصلية لها معنى أعمق، فهي تصف إنساناً أرعن مختلاً بنفسه، ينظر بازدراء وكبرياء، إلى *hoi polloi* وكأنهم محرومون من القوة الفكرية ومصابون بداء التشوش، ذلك الداء الذي لا يصيب المثقفين الناجحين. لذلك أتمنى، فيما نعالج بعض هذه الأفكار المتعالية، أن نعالجها بتواضع. وإن الذي يدعي على نحو كاذب أنه رجل خارق، سيكون سقوطه محتملاً، لأن التاريخ مليء برسائل تذكيرية عن هلاك مثل هؤلاء المتعاليين المغرورين. إنه من السخرية بمكان أن مبدأ التأليه الذاتي للإنسان المتمثل بالرجل الخارق طفا من جديد في أحلك لحظات القرن العشرين، حين فهم «الرايخ الثالث» فلسفة نيتشه Nietzsche وتبنّاها. أرجو أن يكون هذا التذكير وحده بمثابة جرس إنذار لأي استعلاء بشري على حساب استقصاء الله واستعباده.

علينا أن نقرب من السؤال الذي صنّفه ويل دورانت Will Durant، وهو مؤرخ وفيلسوف شائع الصيت، بالسؤال الأعظم في أيماننا هذه (هل يستطيع الإنسان أن يحيا من دون الله؟)، بحجج ومواقف تظهر ليس فطنة وسلامة نية فحسب، بل تظهر صراحة شديدة. فقد كان امتيازاً لي أن أتكلّم عن مواضيع فلسفية كهذه في أقطار مختلفة من العالم، وأنا أتمسك بنظرية أن كلّ الفلسفات المتعلقة بقصد الحياة، هي في نهاية الأمر مرتكزة في فرضيتين أو استنتاجين أساسيين.

الفرضية الأولى، هل الله موجود؟ والفرضية الثانية، إن كان الله موجوداً، ما هي ميزته أو طبيعته؟ من المستحيل تجاهل هذين السؤالين، وحتى لو لم تتمّ معالجتهما بطريقة رسمية، فإن آثارهما تظهر في الحياة اليومية. كلّ القناعات الأخرى تتشكّل وفقاً لإيمان الشخص بوجود الله أو عدم وجوده.

ثمة تذكير آخر وثيق الصلة بالموضوع، فيما نناقش أمراً هاماً ومثيراً للجدل كموضوع وجود الله. وبما أنني انتقلت من الشرق إلى الغرب، فقد عاينت شخصياً ماذا يمكن للغيظ الديني والاستبداد الإيديولوجي أن يفعلوا، وأعلم أن المشاعر الفياضة حول هذه المواضيع قد تستعر وتؤدي آخرين من حولها. على الرغم من هذا، يبدو أن المجادلة في مواضيع تتعلق بالخير الأسمى بينما نتخلى عن كل ما هو خير وصالح خلال هذه العملية، هي مجادلة تهزم نفسها بنفسها إلى حد بعيد. وأنا أطرح السؤال التالي: أليس ممكناً أن نتصارع مع هذه الأفكار وأن نفكر ملياً في أي خلاف يطرأ من دون أن نختلف بعضنا مع بعض؟ من الواضح أن المشاعر ستُمسّ في مسائل كهذه، لكن لماذا غالباً ما تنتهي هذه المناقشات حول هذه المواضيع بسخونة بدل أن تُنتج نوراً؟ والحق يُقال إنه حين نحاول الإجابة عن سؤال كهذا السؤال المطروح أمامنا، فإن الإجابة عنه تؤمن لنا بشكل منطقي قاعدة ووجوداً حضارياً.

لا يستطيع أحد أن ينكر أن العقول الكبيرة تكلمت بإسهاب عن ناحيتي هذا الموضوع المتعارضتين. غالباً ما يتباهى الباحثون الملحدون بقولهم إن «إمانويل كانت» Immanuel Kant هو الذي زوّد المجتمع بالأسس المنطقية للبنية الأخلاقية، بصرف النظر عن وجود الله. (من دواعي السخرية أنني سمعت بهذا التباهي في شمالي أمريكا وفي روسيا. وسأدعم تفكروني ملياً في مضاعفات النظريات السياسية والاقتصادية المترتبة على ذلك). إلا أنني، وبكل دهشة، لم أسمع أحداً منهم يقدم الاستنتاج الذي توصل إليه «كانت» في نهاية كتابه «نقد محض للمنطق» Critique of Pure Reason:

بكلمة أخرى، إن الإيمان بالله والإيمان بالعالم الآخر متشابكان مع مشاعري الأخلاقية، فبينما هناك خطر بسيط أن أخسر مشاعري الأخلاقية، هناك أسباب قليلة موازية تجعلني أخاف أن يؤخذ مني إيماني بالله وبالعالم الآخر.

ما زلت أتذكر جيّداً محاضرات البروفيسور دون كيوييت Don Cupitt، عميد كلية عمانوئيل Emmanuel College، حين استضافتني جامعة كامبردج Cambridge University كعالم زائر لفترة قصيرة من الزمن. لقد اشتهر هذا البروفيسور من خلال مسلسله الإذاعي «بحر الإيمان» *The Sea of Faith* عبر هيئة الإذاعة البريطانية، والذي أشار إليه أحد النقاد بشكل مناسب بأنه «إيمان مطروح في البحر». (لقد دحض برايان هبلاثوايت Brian Hebblethwaite بقوة، وهو فيلسوف زميل له في جامعة كامبردج، موقف كيوييت في كتابه «محيط الحقيقة» *The Ocean of Truth*). كيوييت هو في الوقت نفسه ملحد وكاهن مرسوم في الكنيسة الأنكليكانية. التعزية الوحيدة للتوفيق بين هذين التوأمين المعتمدين هي أنك في حال لم تعجبك معتقدات كيوييت، يمكنك أن تعود في الفصل التالي حيث سيقدّف البحر هذا الغموض وتلك الأفكار، ثم يعود ليعرض استنتاجاته في حلّة جديدة ومختلفة. في هذا الحرم الجامعي، كما في الكثير غيره، لا يهدأ المدّ والجزر بين عمالقة الفكر حين يكون كل واحد منهم على طرفي نقيض.

إنّ أحد أكبر المنتديات المنعقدة حول موضوع وجود الله في مجتمع شمالي أمريكا يظهر في كتاب بعنوان «هل الله موجود؟» *Does God Exist?* في هذا المنتدى تناظر عالمان رفيعا المستوى حول هذا الموضوع من وجهتي نظر متعارضتين، فيما كان كثيرون ينتقدون عرضهم^١. قام الفيلسوف ج. ب. مورلاند G. P. Moreland بعمل بارع في دفاعه عن موقف الإيمان بوجود الله، على الرغم من أنّ خصمه، كاي نيلسون Kai Nielson من جامعة كالغاري Calgary، تجاهل معظم حججه. في الواقع، لقد أصرّ نيلسون على أنّه لا صحّة لأيّ حجة مناقضة لحجته لأنّ فلسفة الإيمان بوجود الله غير قادرة على تقديم أي حجة دلالية. قدّم البروفيسور دالاس ويلارد Dallas Willard من جامعة كاليفورنيا الجنوبية طعنا لازعا للمنطق الذي استخدمه نيلسون. (هذا الكتاب الذي يفيد كلّ

طالب جاد، والذي يتضمن آراء من بعض مفكرّي عصرنا الذائع الصيت كالمفكر أنطوني فلو Anthony Flew وبيتر كريفت Peter Kreeft، يعالج هذا الموضوع بشكل منطقي وشامل). برهن هذا الجدل مرّة أخرى، ومن دون أدنى شك، أنّ الجهل فقط أو الأحكام المسبقة هي التي تقول عن موقف الإيمان بالله أنّه موقف جاهل أو موقف فاقد للمنطق. أمل وبكلّ إخلاص أن نعلو فوق هذه الميول لكي نصل إلى صلب الموضوع، وأن نحدّد بكلّ وضوح في أي جهة يقف ما يُطلق عليه التسمية: «وثبة الإيمان».

٣ المصارحة مع الفلسفة

إنّ أحد التحديات التي تواجهني في عرض هذا المحتوى هي أن أكون عادلاً مع الناقد اللانع، وفي الوقت نفسه، ألا أسمح للمجادلة أن تصبح غامضة لدرجة أن يستهتر بها كثيرون من المفكرين الجديين الذين، وعلى الرغم من ذلك، فإنهم ينزعجون من المزاح الفلسفي المستهتر. أنا مدرك تمامًا لذلك التوازن الضروري، لهذا السبب طوّرت نظامًا يعكس بشكل واقعي الطريقة التي تخترق فيها الأفكار الفلسفية حياتنا. أعتقد أنّ هذا يحدث على مستويات ثلاثة، نصل من خلالها كأفراد إلى استنتاجاتنا، أو نبني عليها قناعاتنا. لقد ساعدني هذا النظام في حوار مع الذي يعتبرون الفلسفة تهذيبًا أكاديميًا جديًا، ومع الذين لا يعتبرونه كذلك. أعتقد أنّ سي. أس. لويس C. S. Lewis لاحظ مرّة أنّه إن لم يكن الإنسان قادرًا على تبسيط حجة معقّدة لتجذب الشخص العادي، فأغلب الظن أنّ الذي يشرح هذه الحجة هو نفسه لا يفهمها. من الصعب تحقيق هذا المطلب لكن وجب التنويه به.

دعوني أصف هذه المستويات الثلاثة. المستوى الأول، وهو أساسي، هو مستوى النظرية. على هذا المستوى نتشارك في الأفكار الفلسفية العظيمة والأبواب الفلسفية المعروضة للنقاش المنطقي. حين يتحاور

شخصان، أو يتجادلان على هذا المستوى، يجب أن تكون نظرية المعرفة واضحة أمامهما، أي إنشاء العملية التي من خلالها يصل الإنسان إلى الحقيقة. هذا النوع من الحوار يتضمن التطبيق الدقيق لقوانين المنطق وتقديم الحجة بأسلوب سليم. لا يوجد أي مكان هنا للمشاعر والثقافة والعواطف أو للتقاليد. على كلّ تجاوب عاطفي فوري أن يلقى جانباً مهما كانت حدّته، لأنّه لا صحّة له ولا شرعية في الدفاع عن مصداقية ما يُقال أو مصداقية الأنظمة التي تتم مناقشتها. الصراخ لن يجدي نفعا إن فقدت الحقيقة. وإنّ فهم الدور الذي يمارسه هذا المستوى الأول في السعي وراء الحقيقة هو أمر أساسي. فلا مجال لتجاهل قوانين المجادلات هذه أو التحايل عليها، لأنّ الإنسان سيضطرّ أن يطبّقها لكي يدحضها ويفنّدها. سأعود إلى هذه النقطة لاحقاً، إلّا أنّه من الضروري أن نلاحظ هنا والآن، أنّ الذين لا يستمتعون بصرامة المنطق وحدّته وعنده، غالباً ما يتجاهلون هذا المستوى، بينما يستخدمونه حين يندّدون بوجهة نظر معارضة لهم ويستنكرونها.

إنّ التفكير النقدي مهارة أساسية. كان أوغست كومت Auguste Comte محقّقاً حين لاحظ أنّ «الأفكار إمّا تحكم العالم وتضبطه، وإمّا ترميه في الفوضى».^٧ اقترح الفيلسوف الألماني آرثر شوپنهاور Arthur Schopenhauer مرّة قائلًا: «من الرائع لو كان بالإمكان إطلاق تسمية قصيرة ومناسبة على كلّ حيلة أو خدعة، حتى حين يستخدم أحدهم هذه الخدعة أو تلك، يمكن للآخرين أن يوبّخوه عليها بالذات».^٨ ثمّ إنّ هذا النوع من الخداع الكلامي، أي التلاعب بالكلام عند معالجة المسائل الهامة في الحياة، يمكن أن يكون من أعظم القوى الغادرة والمدمّرة في حياة الأمّة. لقد أظهر التاريخ أنّ جرائم المنطق يمكن أن تكون أفظع من جرائم الشرف على الإنسانية، إذ يمكن اكتشاف جرائم الشرف ومواجهتها. أمّا بالنسبة إلى جرائم المنطق، فلا قوانين تضبطها وبالتالي تشكّل خطراً مضاعفاً على مجتمعاتنا.

لقد تعمّدت أن أقضي وقتًا طويلًا لأشدّد على أهمية التفكير المنطقي السليم، ولكي أحذّر من إساءة استخدامه. إنّ أحد الاضطرابات الأكثر مكرًا، بل قسوةً في أيامنا، هو في الطريقة غير المنطقية التي حاربت فيها بعض المجموعات لتتبوأ مناصب معيّنة من خلال إعادة تعريف بعض الكلمات بطريقة ذكية، وتحويل الأفكار بطريقة غير لائقة. في هذه الحضارة التي تعتمد على الشعارات، قلّلنا، بلا حياء، من شأن الأمور الرصينة، ورفّعنا الأمور التافهة والمبتذلة، لأنّنا تخطّينا الخطوات الأولى والضرورية للجدال المنطقي. يمكن للواقع أن يضيع عندما تنتهك حرمة المنطق واللغة.

وعلى الرغم من أهمية هذا المستوى، قليلون من الناس يقرأون كتبًا عن المنطق، وحين يعبرون عن عدم اهتمامهم بهذا التهذيب، يبدؤون باحتقار أيّ استخدام للمنطق حين يتحدّى أحدهم أفكارهم المخالفة للمنطق. يمكن أن نفهم الآن لماذا أسماء الكتب المتعلقة بالمنطق لا تدوّن في لائحة أكثر الكتب مبيعًا، غير أنّ على قوانين المنطق أن تطبّق على الواقع، وإلا سيّتضح لنا أنّنا نعيش في مستشفى للمجانين.

حين ندرك وجود هذا النفور من المنطق، علينا أن نسأل أنفسنا كيف يُكوّن أغلبنا أنظمة معتقداتنا. ماذا عن الذين نعمل معهم أو نساfer معهم كلّ يوم؟ إن لم تتمّ متابعة عملية المنطق بشكل جيّد كما هي الحال في التهذيبات الأخرى، فما هي التأثيرات القاهرة التي تحدّد قراراتنا وتشكّل مبادئنا؟

اسمحوا لي أن ألمّح إلى أنّ جيلنا قد يكون جيلًا فريدًا في هذا المعنى. يُشَنُّ علينا هجوم عالمي ضخم، والعامل الأكثر تأثيرًا من أيّ قوّة أخرى، ناتج عن الفنون التي تشكّل شخصيّتنا وقيمتنا ومعتقداتنا. هذا الغزو يتخطّى منطقنا ويسبي مخيلتنا. لم يحدث من قبل في التاريخ أن يكون هناك أمر ما على المحكّ كما هي الحال اليوم بين أيدي الفنانين. هنا

نجد شيئاً ساخراً، فالرجل الغربي افتخر منذ زمن بعيد بأنه من أتباع حركة التنوير، يتدرب عند أرجل مفكرين متمرّسين. إلا أنه في المقابل أذل المنطق عبر الأدوات التي انبثقت من قوة الفكر.

هذا المستوى الثاني من الفلسفة عبر الفنون، شكّل ذهنية الأمة في كل شيء من تحديد استراتيجيات الحرب إلى انتخاب الرؤساء وإلى اكتشاف الإنسان هويته في السيارات وفي مزيل روائح التعرّق. لم يهدر الفلاسفة الوجوديون من مثل جون پول سارتر Jean-Paul Sartre وألبيرت كامو Albert Camus وقتهم في تأسيس المقاييس المنطقية. لقد سَخروا عواطف عالم فارغ من الوجدان الإنساني، وصهروها بقيمهم الخاصة مؤثرين في أمزجة ومشاعر تُلّة من المثقّفين. تلا ذلك بسرعة تجانس في أدواقنا الثقافية، وقُيّدت حساسياتنا، أو بالأحرى فقد ضميرنا إحساسه. لقد أصبح كلّ العالم اليوم من خلال التكنولوجيا رعية للإعلام، وأصبح مقدّمو البرامج الحوارية أنبياء، والممثلون والموسيقيون كهنة، وأي كتاب يمكن أن يحلّ مكان الكتاب المقدّس ما دامت القيود الأخلاقية قد حُذفت منه. والجلوس أمام التلفزيون هو كلّ ما تحتاج إليه البدع لأداء طقوسها، ويستطيع كلّ إنسان أن يتوجّ نفسه كإله. لقد تدنّت الحقيقة إلى مستوى الذاتية، وأخضع الجمال حسب منظار صاحبه، وبما أنّ الملايين يُصبحون أغبياء ليلة بعد ليلة، فقد أنشئ مجتمع عالمي حيث الفن يحكم فيه حكماً شمولياً.

وتأكيداً على ذلك، فقد مارس الفنّ وسيمارس دوراً في مخيلة المجتمع والترفيه عنه. إلاّ إنّ الأمر الذي يميّز به مجتمعنا هو تأثير الفنّ الشامل عليه، حتى في الأمور ذات الأهمية العالية. في الواقع، إنّ الفنّ يعرّي المقدّسات ويبرمج كياننا.

المستوى الثالث الذي يلي حتماً، هو حديث يجري حول مائدة المطبخ، حيث يمكن أن تُطرح أسئلة عميقة جداً من دون الشعور بأيّ حرج

أو تهديد. هذا المستوى، غالباً ما ينخفض إلى حدّ اللامبالاة. ثمّ إذا قيّدت هذه الأسئلة المتعلقة بالخطأ والصواب يدي الأستاذ المحترف، كيف يمكن للجّد والجِدّة أو الأب والأم أن يجيبوا بسهولة عن هذه الأسئلة، في هذا العالم الجديد الشجاع الذي تصدر منه أصوات كثيرة؟

واستطراداً، هلاًّ سمحتم لي أن أقول لكم إنّ لكلّ مهنة مخاطرها؟ ففي الحفلات التي يقيمها الأصدقاء في بيوتهم، يستغلّ هؤلاء الأصدقاء وجود الأطباء، فيمطّرونهم بأسئلتهم حول أمراضهم، على أمل أن يجدوا علاجاً شافياً لها. وكذلك المحامون، حين يتعرّفون بأشخاص جدد، في هذا النوع من اللقاءات، تنهال عليهم الاستشارات القانونية المجّانية حول أية قضية شخصيّة. سمعت مرّة عن طبيبة فقدت صبرها بسبب هذا الاستغلال المستمر لمهنتها. وفي إحدى المناسبات، بدأت تشكو أمرها لصديقها المحامي. سألتها ماذا يجب أن تفعل حين تُستغلّ خبراتها المهنية في تلك المناسبات العامة. اقترح عليها المحامي حلاً بسيطاً، وهو أن ترسل فاتورة للشخص الذي يستغلّها بهذه الطريقة. لم تنعم هذه الطبيبة طويلاً بنصيحة المحامي، إذ إنها تسلّمت في اليوم التالي فاتورة من المحامي صديقها، تُبيّن الأجرة المترتبة عليها مقابل استشارته القانونية التي قدّمها لها.

لقد دُعيتُ على مرّ السنوات إلى موائد لذيذة في مئات من البيوت. كنت أدرك هناك أنّ السبب الحقيقي لدعوتي هو لحلّ مشكلة أخلاقية كبيرة، أو فلسفية أو علمية؛ هذه هي مخاطر مهنتي. لقد تعلّمت بطريقة حسيّة وواقعية أنّه لا توجد وجبة غداء مجانية. إلّا أنّني كنت أحياناً أسمع أسئلة عميقة ومعقّدة يطرحها مراهقون جالسون معي حول المائدة، لكنّ الطول التي كان الآخرون يقترحونها عليهم كانت حلولاً صريحة وسطحية وبسيطة. عبّر كثيرون من أولئك الشباب المحبطين عن خيبة أملهم هذه قائلين: «كلّ ما أسمع من والديّ ومن الوعاظ أنّ الكتاب المقدّس يقول كذا وكذا، وبالتالي عليّ أن أفعل كذا وكذا، وهذه هي

الإجابة الوحيدة التي أسمعها.» وتابع أحدهم بحسرة قائلاً: «إذا جاوبتُ في المدرسة أو في الجامعة بعبارة، هكذا يقول الكتاب المقدس، فسُحِّكَم فوراً على إجابتي بأنها إجابة خاطئة، وأحياناً أتعرض للضرب.» فغالباً ما كنتُ أذكرهم بأنَّ الأشخاص غير المتدينين هم أيضاً يقدمون أنموذجاً عن «مرجعيتهم ذات السيادة»، من دون أن يدافعوا عن كَيْفِيَّة صيرورة مصادرهـم تلك، مصادر قانونية بالنسبة إليهم، سواء كان ذلك الشخص فيلسوفاً أو نجماً سينمائياً. فالطريقتان بلا أي منازع، مشكوك في أمرهما.

هل يستطيع أحد أن يكتب وصفاً لأي سبب؟ إنَّ لائحة الأبحار الذين يصرِّحون بمقتضى السلطة البابوية، والذين يشكِّلون آراء هذا الجيل، هي لائحة لا تنتهي، ابتداءً من وودي ألن Woody Allen وصولاً إلى هوارد سترن Howard Stern. إنَّ فلسفة كتابة الوصفات لمُجَرَّد الكتابة هي تحت رحمة وصفات معاكسة لها إن كان كلَّ المطلوب للإيمان بشيء ما، هو فقط أن نؤمن به. كيف يمكن لأي شخص أن يقول إنَّ الأخلاق موجودة أو لآخر أن يقول إنَّها غير موجودة من دون أن يبرِّرا ويشرحا سلطان المصدر الذي اعتمدا عليه؟ ومع ذلك، تُناقش على هذا المستوى مواضيع كثيرة. إنَّ المواقف المعارضة، سواء كانت صادرة من مضيبي البرامج الحوارية التلفزيونية، أو السياسيين، تُنتَقَد باستمرار وبازدراء كونها عبثاً ثقيلاً على المواقف المعاكسة لها، غافلة في الوقت نفسه عن أنها ستُشكِّل عبثاً على مواقف الآخرين، حين يعتبرون أنَّ الحلَّ الذي يقدمونه هو الحلَّ الأفضل والأسمى.

معظمنا يعيش في المستوى الثالث، سواء كان ذلك في المقاهي أو في الحفلات العائلية أو حول مائدة الطعام في المطبخ، حيث الحوارات التي تحدّد الحياة وتغيِّرها هي الحوارات التي تجري عند التبادل العفوي للأفكار.

هذا يقودني إلى خلاصتي حول نظرية المستويات الثلاثة الفلسفية: مستوى المنطق، ومستوى الفن، ومستوى الحوار حول المائدة. إن أراد أحد أن يصل إلى استنتاج سليم حين يناقش في أي موضوع، اقترح أن نمتثل إلى قاعدة، وهذه القاعدة هي: ناقش على المستوى الأول، قدّم إيضاحًا على المستوى الثاني، وطبّق على المستوى الثالث. إنّ عملية التفكير المنطقي تؤمّن القاعدة، والفن يؤمّن البنية التحتية. أمّا الإيضاح والحوار حول المائدة، فيؤمّنان البنية الفوقية والتطبيق. إن أعيد ترتيب هذه العملية بطريقة مختلفة، لن يكون للنقاش أي معنى، ولن يكون هناك نقطة مرجعية للحقيقة.

ما أتمنى أن أفعله فيما نجيب عن السؤال المتعلق بوجود الله، هو البدء بالمناقشة من الأرضية المشتركة للمستوى الثاني، حيث كلنا نشعر ونعيش ونتصرّف لكي نصل إلى نقطة اتفاق حول الصراعات الفكرية والوجودية التي نواجهها جميعنا. لكن، قبل أن ننتهي، سنعود إلى المستوى الأول لكي نثبت لماذا رسالة يسوع المسيح تعمل ضمن منطق سليم، ولماذا تُقدّم رسالته حلاً لأسئلة عصرنا هذا وآلامه. بعد ذلك نستطيع أن نمنح طاولة حوارنا السلطان، حين نعالج أبعاد الحياة المطلقة.

الفصل الثاني



ضلال بلا هدًى



منذ بضع سنوات، كنت حاضراً في اجتماع عائلي غير اعتيادي لأصدقاء لي من الشرق الأوسط. لم يطل الوقت حتى أدركتُ وسط كلِّ مرحهم الصاحب وضحكهم، أنه على الرغم من أنهم كانوا ذوي قُربى، فإنهم كانوا في الوقت نفسه من بلدان مختلفة، حيث كان هناك عداوات عميقة بين الواحد والآخر على مدى قرون. كنت أتساءل هل كانت أحاديثهم المرحية تتناول أموراً سياسية، أم كان هناك اتفاق ضمني بينهم يعتبر نقاشات كهذه مقدّسات؟

حصلت على إجابة عن سؤالي حين تقدّم واحد منهم وقال لي إنهم لا يخافون أبداً أن يغوصوا في المواضيع السياسيّة، لأنهم متأكّدون أنّهم سيتجادلون إلى النهاية حتى في الأمور المبدئية. ولكي يوضّحوا هذه الميزة الثقافية الخاصة بهم، أخبروني هذه الرواية الهزلية التي لا تظهر فقط النمط الفكري لشخصيّاتها، إنّما تظهر أيضاً كيف أنّ كلّ حضارة مغلفة بطريقتها الخاصة في نفق فريد.

تحكي الرواية قصة مراسل صحفي متجوّل يسافر من بلد إلى آخر ليُجري استطلاعاً للرأي. كانت محطته الأولى في أمريكا، فسأل أحد المارّة: «ما هو رأيك في مسألة تناقص اللحوم في العالم؟» أجابه الأمريكي بارتباك: «ماذا تقصد بالنقص؟»

تابع المراسل الصحفي جمع البيانات، وكانت محطته التالية في بلد فقير يزرع تحت وطأة الجوع. سأل الصحفي أحدهم: «ما هو رأيك في مسألة تناقص اللحوم في العالم؟» فأجابه الرجل وهو خائراً جوعاً: «ماذا تقصد باللحوم؟»

أما محطّته الثالثة، فكانت في بلد مخنوق تحت نظام ديكتاتوري، وهناك سأل الصحفي رجلاً واقفاً في خطّ طويل ليحصل على بعض الطعام: «ما هو رأيك في مسألة تناقص اللحوم في العالم؟» كان هذا الشخص قد تجرّد من شخصيّته الفردية بسبب ذلك النظام، فأجابه في حيرة، «ماذا تقصد بالرأي؟»

أخيراً، وصل الصحفي المُحبط إلى الشرق الأوسط، وطرح سؤاله على شخص مسرع إلى عمله: «ما هو رأيك بمسألة تناقص اللحوم في العالم؟» فأجابه الشرق أوسطي بإيماءة عشوائية: «ماذا تقصد بـ 'ما هو'؟»

وبينما كانت الضحكات تعلو من حولي، رحّب بي ضيفي أمام عائلته وقال: «في تركيبة المجتمع الشرق أوسطي الحقيقي، لا يمكننا حتى أن نتفق حول السؤال، لهذا السبب نحن لا نخاف من الاختلاف حول الإجابة.» يجب أن أعترف أنّ ثقلاً قد أزيح عن كاهلي حين علمت أنّهم قادرون على تخطي التوتر الناتج عن المواضيع الكبيرة والهامة حين يرون الجانب الهزلي في معتقداتهم. ومع ذلك، كان هذا بمثابة تذكير جدّي حول كَيْفِيَّة كون النقاط الأساسيّة التي يبدأ بها الحوار في بعض المداولات مملّة.

إلا أنّنا نجد أنفسنا هنا نبحث عن أجوبة وإن كانت حول موضوع حساس كهذا، إذا دعونا على الأقل نتفق على بعض الأرضيّات المشتركة التي سننطلق منها.

٥ تعريف المصطلحات

يعطي إيتيان بورن Etienne Borne تعريفاً واضحاً عن الإلحاد ومضاعفاته على الحياة:

الإلحاد هو إنكار وجود الله بطريقة متعمّدة ومحدّدة

وَمُنْتَظَمَةٌ. لا يكتفي الإلحاد بالحقيقة النسبية أو الحقيقة المطلقة، بل يدّعي أنّه قادر على رؤية ما هو داخل اللعبة وخارجها بوضوح كبير، لأنّه الإنكار المطلق للمطلق.^١

التعريف الثاني مقتبس من موسوعة الفلسفة *Encyclopedia of Philosophy*.

الملحد هو الشخص الذي يُصرّ على أنّه لا يوجد إله. أي إنّ عبارة «الله موجود» تعبّر عن افتراض زائف.... فهو شخص يأبى الإيمان بالله.^٢

تجزم المناصرة المشهورة للإلحاد مادلين موراى أوهير Madalyn Murray O'Hair في كتابها: «عجبا، ما هو الملحد؟» *What on Earth Is an Atheist* قائلة:

نحن في حاجة إلى مجموعة من المعايير اللائقة والحديثة والمتطورة والعملية التي نستطيع أن ننسجم معها ومع الآخرين.

نحن الملحدون... نحاول أن نجد بعض مبادئ التفكير المنطقي لكي نبني على أساسها أعمالنا ومعتقداتنا، وقد وجدنا ضالتنا... نقبل الفلسفة التقنية للنظرية المادية. إنها فلسفة صحيحة لا يمكن الشكّ بها. فلسفة النظرية المادية بشكل أساسي، هي فلسفة تقول إنّ لا شيء موجود إلاّ الظواهر الطبيعية... النظرية المادية هي فلسفة حياة، وتحيا وفقاً للعمليات المنطقية بمقدرات الفرد الفكرية وغير الفكرية، وتتطور إلى أعلى درجة في النظام الاجتماعي حيث يمكن لها أن تكون كذلك... لا يوجد قوى خارقة للطبيعة، ولا يوجد كائنات خارقة للطبيعة كالآلهة أو السماوات أو الجحيم أو

حياة بعد الموت. لا يوجد قوى خارقة للطبيعة، ولا يمكن أن تكون موجودة.

نحن الملحدين نوّمن بأنّ الطبيعة موجودة بكلّ بساطة.
المادة موجودة. المادية موجودة.^٢

هل تسمحون لي هنا أن أشدّد على نقطة، كما تشدّد الكتب الأخرى التي تعالج موضوع الإلحاد عليها؟ الإلحاد ليس مجرد موقف سلبيّ غير مؤمن بالله، بل هو إنكار توكيدي للدّعاءات الأساسيّة التي تدعو إليها مختلف أنواع العقائد المختصّة بالإيمان بالله. الإلحاد يناقض الإيمان بالله مع تأكيد إيجابي للمادة كونها الواقع المطلق. يتجنّب بعض الملحدين هذا الهجوم المباشر على الإيمان بالله، ويحاول أن يخفّف هذا الإنكار المطلق لوجود الله. تجزم حجّتهم أنّ فرضيّة وجود الله غير مبرهنة بطريقة منطقية، وبالتالي أفضل ما يمكن أن يُقال عنها إنّها فرضية بلا معنى. في الواقع، هم يصلون إلى الإلحاد بشكل تلقائي. غالباً ما تُعتبر هذه المقاربة مخرجاً مناسباً من عبء الدفاع عن وجهة نظر بديلة خاصّة بأحدهم. بكلمات أخرى واقعية، إنّ الشكل اللين أو القاسي للإلحاد، يحقّق الهدف نفسه وينتهي بنكران وجود الله بطريقة ضمنية أو صريحة. وإنّ أي محاولة للهروب من آثار الإلحاد المطلقة هي محاولة فاشلة.

سيترتبّ على إعلان هذا الإنكار خيارات ضرورية في كلّ وجه من وجوه الحياة تقريباً، وإنّ الفلسفة الداعمة لهذه الخيارات المأخوذة، هي فلسفة إنكار ونفي وجود الله. يحاول الملحد، ومن الأفضل الإشارة إليه بالعبارّة: من هو ضدّ الإيمان بوجود الله، أن يبني حياته على معتقد أنّه لا يوجد إله، وأنّه لا يوجد أي كيان فوق طبيعي. فهوّلاء يعتبرون أنّ أي شكل من أشكال الدّين غير منطقي. وبينما يحاولون رَفَسَ أشواك الحياة التي لا مفرّ منها في أثناء سيرهم على دروب الحياة، يجرّحون أنفسهم ثقافياً واجتماعياً. إنّني مقتنع تماماً بأنّه عند كتابة الفصل الأخير من

فصول تاريخ البشرية، سنجد أنّ آثار الإلحاد، أي العيش من دون الله، ستجعل حياتهم تَعَسَة ضمن حدود المنطق أو حتى التفكير السليم، إن استمروا يعيشون على هذا المنوال.

٥ تفصيل الفكرة

ربما لم يعبر أي فيلسوف بوضوح عن دحضه القوي لوجهة النظر العالمية المتعلقة بالإيمان بالله أكثر من فريدريك نيتشه Frederick Nietzsche. لقد طرح مكانها تبنيًا جريئًا للفكر الإلحادي، مدركًا تمامًا الآثار الثورية والمغيّرة للعالم الناتجة عن هذا التحوّل في المبادئ. قليلون هم الفلاسفة الذين كان لهم وقع وتأثير جذري على صنّاع تاريخ القرن العشرين كنيته. إنّ تأثيره القوي على هتلر Hitler، ومن خلال هتلر على موسوليني Mussolini، أصبح الآن موثقًا بشكل جيّد. وعلى الرغم من أنني أشرت إلى هذه العلاقة في مكان آخر من كتاباتي، فإنني سأخاطر وأكرّر، لأنّه حسب تقديري، لم يعبر أي شخص بطريقة مؤثرة عن الصلة بين الإلحاد والحياة بعبارات قوية وواضحة مثله. لقد وصف نيتشه هذه الصلة بطريقة دراماتيكية في مثله الشائع «الرجل المجنون» The Madman.

ألم تسمع بالرجل المجنون الذي أشعل مصباحًا في ساعات الصباح المشرقة، وركض إلى السوق صارخًا من دون توقّف، «إني أبحث عن الله، إني أبحث عن الله.»

كثيرون من الذين لا يؤمنون بوجود الله ابتدأوا يسخرون منه ويستهزئون. سأله أحدهم: «لماذا تبحث عنه، هل أضاع الله طريقه؟» وسأله آخر: «هل أضاع طريقه كولد صغير؟ هل اختبأ في مكان ما؟ هل يخاف منّا؟ هل سافر في رحلة طويلة؟ أم هاجر إلى بلد آخر؟»

وهكذا صرخوا واستهزأوا وضحكوا. فجأة قفز الرجل المجنون في وسطهم، وحدّق إليهم بعينين ثاقبتين وصرخ، «أين الله؟ سأقول لكم أين هو. لقد قتلناه - جميعنا قتلة الله. لكن كيف فعلنا ذلك؟

كيف استطعنا أن نشرب البحر؟ من أعطانا ممحاة لنمحو بها الأفق بالكامل؟ ماذا فعلنا عندما حرّرتنا الأرض من شمسها؟ أين تهيم الآن؟ إلى أين نحن ذاهبون الآن؟ أنبتعد عن كل الأنوار؟

ألنسنا نتهاوى باستمرار؟ إلى الخلف، إلى الجانب؟ إلى الأمام؟ وإلى جميع الاتجاهات؟ هل يمكننا الحديث في ما بعد عن أعلى أو أسفل؟ ألنسنا نتيه في العدم اللامتناهي؟ ألا نشعر بنفخة الفضاء الفارغ؟ ألم يصبح الجوّ قارساً؟ ألا ترون الليل يخيم بلا انتهاء؟ ألنسنا في حاجة إلى إشعال المصابيح في الصباح؟ ألا تسمعون ضجّة حفّاري القبور الذين يدفنون الله؟ ألا تشتمّون رائحة تحلّل الله؟ ألا تعلمون أنّ الآلهة تتحلّل أيضاً؟ لقد مات الله ونحن الذين قتلناه. كيف نعزي أنفسنا، نحن أشرّ القتلة؟ الأقدس والأقوى في هذا الوجود، نزف تحت خناجرنا حتى الموت. من سيمسح هذا الدم عنا؟ بأي ماء يمكن أن نغتسل؟ أية شعائر تكفير وأية طقوس دينية يجب أن نخترع؟ أليست شناعة هذا العمل فظيعة جداً علينا؟ ألا يجب علينا أن نصبح آلهة لمجرّد أن نكون أهلاً لها؟ لم يرتكب عمل أفظع من هذا العمل من قبل قط. وأي شخص سيولد من بعدنا سيكون جزءاً من تاريخ أعظم من أيّ تاريخ سابق بسبب ما فعلناه نحن.»

هنا، صمّت المجنون ونظر مرّة جديدة إلى سامعيه. وهم أيضاً صمتوا وحدّقوا إليه بدهشة. أخيراً رمى بمصباحه إلى

الأرض فتحطّم وانطفأ... وعُلِمَ أيضًا أنَّ هذا المجنون اقتحم
عدّة كنائس في ذلك اليوم ورتّل لحنا جنائزيًا للإله.

وعندما اقتيد إلى الخارج ليُحاسَب على ما فعله، يقال إنّه
في كلّ مرّة كان يُسأل، كانت إجابته:

«هذه الكنائس، ما هي الآن سوى مقابر لله.»

إنّ مزاج نيتشه، ومن دون اعتذار، هو مزاج جنائزيّ. يستعير بكلّ
جرأة مصطلحات مبتذلة من سجلّ الوفيّات، فيما يُشرّح بطريقة فلسفية
فكرة عفا عنها الزمن، فكرة وجود الله. مرّة خفقت هذه الفكرة ونبضت
مرسلة غذاءها المنعش للحياة إلى أقصى أطراف الحضارات. وعندما أقنع
نفسه بما وصفه بالتعليم المسيحيّ القامع، مشيرًا إلى انتقال الإنسان من
فترة الطفولة إلى فترة المراهقة، قال إنّه لا يمكن في ما بعد التصريح
والاعتراف بالله ككيان قابل للحياة. تكاثفت الفلسفة والحرية في الحلبة،
«وتمّ القضاء على أنبل الخرافات.» وحين أراد الرجل المجنون أن ينشر
هذا الخبر، أدرك أنّ الجنس البشريّ لم يكن مستعدًّا بعد لتقبُّل هذه الفكرة
المولودة حديثًا، لأنّ الخرافات القديمة لا تموت بسهولة. لكن سيأتي يوم،
كما قال، حين سيُرحّب الناس بعالم بلا إله بين يديّ الفيلسوف المنقذ
الذي طال انتظاره.

في وقت مبكرّ من عمل نيتشه، لم يكن علماء عصره منصفين معه
حين اعتبروا كلماته الشديدة الانفعال غير أكاديمية. كان أسلوبه موطن
قوّته، وفي الوقت نفسه الدُّ أعدائه. ما زال من السهل صرْفُ النظر عن
الصور القوية التي تملأ كتاباته باعتبارها مبالغة في العدمية التي
يفرضها. لكن، هنا بالتحديد، يجب أن يُمدّح نيتشه على شعوره بالشفقة
كفنان بدل الاختباء وراء منصّة المعلم الرزين. في الواقع، لقد لفت الانتباه
إلى مستويات الفلسفة الثلاثة، حين بيّن بشكل واضح أنّه يوجد رابط بين
الرجل المجنون في الشارع والشخص السليم الموجود في المكتبة. لقد

تكهن من دون مساومة بالاضطرابات المخبّأة للبشرية لأنّ الأساس قد تفتّت. لقد كان حقاً أحد «أنبياء الملحين» في القرن العشرين، وقد تنبأً بالهلاك والظلام بينما كان يدعو إلى تقييم مبادئنا حسب المقياس الجديد. كان يجب إعادة التعريف بالحياة وإعادة بنائها على أساس جديد بدون الله. هذا هو الأساس الذي يجدر بنا فحصه والتدقيق فيه.

❖ أساسات مُهَرَّبَة

كان أحد ادّعاءات نيتشه أنّ المسيحية سلّت إمكانيات البشر. (من المحتمل جداً أن يكون قد تأثر هذا المفهوم بالملحن واغرنر Wagner). كان واغرنر صديقاً له، وكان معادياً صريحاً للسامية، وكان يعتبر أنّ المسيحية إرث ملعون من اليهود). في الواقع، لقد صنّف نيتشه الرسالة المسيحية في الدرك الأسفل للتطوّر البشري، لأنّها ترفع مبادئ الأخلاق والتوبة والتواضع. لا تستطيع أن تبني حضارة قوية على هذه الأفكار المخزية والمُحتقرة للذات، كما يقول، وبالتالي يجب تدمير هذه الأفكار. كان تحليله يعتبر أنّ المفاهيم المسيحية تُضعف العقل وتُنْهك العظمة القابعة داخل الإنسان. وقد شعر بأنّ البنية التحتية للمبادئ الأوروبية قد توقّفت عن النموّ بسبب التعليم المسيحي. ولو كان بالإمكان تفكيك هيكلية المسيحية ورميها إلى الأبد، لتحرّرت البشرية، وعلت إلى مرتفعات أعظم، وتسَلّقت جبلاً أعلى من الإنجازات الفردية. لقد قدّم الأساس الإلحادي كبديل لكي يُبنى عليه، لكنه حذّر من أنّ التطبيق الفوري لهذا الأساس قد يكون كارثياً.

إنّ تقدير نيتشه بأنّ التأثير السلبي لفلسفته هو تأثير مؤقت، بانتظار ظهور الرجل الخارق، هو تقدير خاطئ ومُضلل إلى حدّ بعيد. لقد كان عناده وتشبّثه برأيه الزائف من أكثر الأخطاء التاريخية كلفةً، إذ رسّخ في معتقده أنّه لا مفرّ من الأساس الإلحادي للبناء نحو المستقبل. تخيل

نيتشه أنَّ الإلحاد سيؤمّن بصورة أكيدة، أساساً داعماً وممتازاً للإنسان لكي يسمو فوق ضلال الماضي. في الحقيقة، وبعد فحص دقيق، فإنّ هذا الأساس الجديد هو أساس غير متماسك فلسفياً، ومفلس أخلاقياً، وغير قادر أن يدعم الحضارة بطريقة منطقية أو وجودية.

لا نجد في البناء الجديد العظمة أو التناسق الموعودَ بهما، بل نجد أنفسنا عالقين في دوامة من العنف والخلافات والفراغ والعزلة والكراهية العنصرية. على السبب الكامن وراء هذا أن يكون واضحاً لنا، فالمغنون يغنون عنه. لكن لأننا أصبحنا سادة في الخداع، ومناورين بارعين حيال الحقيقة، فقد صرنا بالتالي صُمّاً عن الحقيقة. يقول المثل إن حبة الجوز لا تقع بعيداً جداً عن الشجرة التي سقطت منها، وإن لم تكن حزين سنشبه أكثر فأكثر نسلَ الرجل المجنون. فقد أصبحت البنية التحتية لمجتمعنا بلا ضمير وبلا إحساس، لأنّ الأساس الذي بنينا عليه لا يقدر أن يدعم أية بنية أخرى.

إلى هنا كنا نلعب على الكلمات ونكذب على أنفسنا ألف كذبة وكذبة. واسمحوا لي أن أقول لكم بصراحة إنّ كلّ ما قمنا به هو تهريب قوى تأسيسية من الفكر المسيحي والمدفونة بعيداً جداً عن السطح لكي نحافظ على بعض الاستقرار، بينما نجد فوق السطح اختبارات إنسانية غريبة بلا رقيب. إن وضعنا تحت السطح المبادئ نفسها التي نتفاخر بها فوق السطح، فسندمر أنفسنا بالكامل. وعلى الرغم من أننا حاولنا في قاعات التعليم أن نعطي كرامة لما فعلناه، فإنّ مؤلفي الأغاني والفنانين قد فضحونا.

الإيضاح الأكثر عجباً حول خداعنا لأنفسنا هو البناء الفني الأخير الذي افتتح في جامعة ولاية أوهايو Ohio State University، مركز واكسندر للإنجاز الفني Wexner Center for the Performing Arts، وهو واحد من مآثرنا الخيالية باسم التطور العقلي. وصفت مجلة نيوزويك

Newsweek هذا المبنى بأنه «بناء المفكّكين الأوّل في أمريكا». فمنصّاته البيضاء، وأبراجه المبنية من الطوب الأحمر، تجعلنا نؤمن النظر فيه لأنّه يبدو مختلفاً. لكن الحيرة تشتدّ أكثر فأكثر حين تدخل المبنى، لأنك ستجد في الداخل سلالم لا توصلك لأي مكان، وأعمدة معلّقة في السقف بلا هدف معيّن، وأسطح بزوايا غريبة مصنوعة لكي تخلق فيك دوّاراً. قيل لنا بهدوء إنّ المهندس صمّم المبنى لكي يعكس صورة عن الحياة نفسها، حياة فارغة بلا معنى وغير متماسكة، و«تقلّبات القوانين التي تنظّم العالم المبني».^٧ حين شرحوا لي المنطق الكامن وراء هذا البناء، كان لي سؤال واحد: هل هذا المهندس فعل الشيء نفسه لبناء أساسات هذا المبنى؟

كشفت الضحكات التي صدرت كردة فعل على سؤالي القناع عن ازدواجية المبادئ التي يتبنّاها المفكّكون. وهذه بالضبط هي ازدواجية المبادئ في الإلحاد. من الممكن جعل اختباراتنا الغربية رومانتيكية في إعادة الهيكلية الاجتماعية بينما نتنصّل من الحقيقة والمطلق. لكن لن يجرؤ أحد أن يلعب ألعاباً مميتة كهذه مع أساسيات التفكير السليم. وإن عبث أحدهم على المستوى التأسيسي، فهو لن يشهد فقط إنهيار كل المنطق، بل سيخسر حقّه في نقد نقطة إنطلاق أي وجهة نظر عالميّة أخرى. يُصرّ الإلحاد أنّه لا يوجد إله أزلي وشخصي وكلّي المعرفة وكلّي القدرة كما تفترض أية ديانة من الديانات الأساسية. يقول عالم المتحجّرات ستيفان جاي غولد Stephen J. Gould من جامعة هارفرد، «لا يوجد إجابة أسمى من هذه الإجابة: علينا أن نبني ما هو حقيقي بأنفسنا».^٨

إن كان الأمر كذلك، فلا يمكن بالتالي وقف هذا الكمّ من الأسئلة الحتمية الناتجة عنه. هذا يشبه سحب فلينة لا يمكن استخدامها مرة ثانية من حاوية مليئة بأبخرة سامّة. هذه هي بالتحديد الحالة التي يعرضها نيتشه، والتي أكّدها مؤخراً جون پول سارتر. لهذا السبب كان من المهم جداً أن تبرز عقيدة الرجل الخارق لنيتشه وتتولّى الأمور. إلا أنّ المخلّص

الذي تخيَّله نيتشه أصبح مدمرًا، لأنَّ قاعدته الفلسفية مالت نحو الطغيان والاستبداد، وفي نهاية الأمر نحو الإبادة الجماعية.

❖ لقد رأَت أعيننا ما يذهل

أحد أهم النقاط العمياء في الفلسفة التي تحاول أن تنكر وجود الله هو عدم رغبتها في النظر إلى وجه الوحش الذي أنجبته وتحمل مسؤولية خلقه. هنا يواجه العيش من دون الله أوَّل عائق لا يمكن التغلُّب عليه، وهو عدم القدرة على الهروب من قبضة القانون الأخلاقي. لقد رأيت طلابًا وأساتذة في الكثير من الجامعات غاضبين وعلى وجوههم ابتسامة وحشٍ مفترس، ينتظر أن ينقضَّ على الدين، متلهِّفًا لإعادة تهمة، غالبًا ما تتكرَّر ويُسَاء فهمها: ماذا عن الآلاف الذي قُتلوا باسم الدين؟

لن تكون الإجابة عن هذا السؤال المفعم بالعاطفة صعبة إن استطاع الشخص الذي يطرح السؤال أن يشرح أوَّلًا القتل الناتج عن أشخاص عاشوا من دون الله، كهتلر Hitler وستالين Stalin وموسوليني Mussolini وماو Mao وآخرين غيرهم. يرفض الملحد بشدَّة وبسرعة كلَّ المعتقدات الدينية من خلال إلقاء اللوم بشكل عام ومن دون أي تمييز على كلِّ مَنْ يدَّعي أنَّه متدين. وانطلاقًا من هذا المعيار، لماذا لا نجد حماسة لتوجيه اللوم بالتساوي إلى العنف الناتج عن بعض اللادينيين؟

لكنَّ الجرح أعمق من هذا المستوى. فقد نسي مهاجمو الدين أنَّ هذه المذاهب الكبيرة التي ارتكبتها أيادي الملحين كانت نتيجة منطقية لفلسفتهم التي تنكر وجود الله. وفي المقابل، لا يمكن للعنف الناتج عن الذين قتلوا باسم المسيح أن يكون صادرًا عن مسيح الكتاب المقدَّس. إنَّ الذين قتلوا باسم الله كانوا بكلِّ وضوح يسيِّسون الدين لمآربهم الشخصية. كانت وسائلهم ورسالتهم متناقضة مع الإنجيل. في المقابل، كان الإلحاد يؤمِّن الأساس المنطقي للإرادة المستقلة والمستبدَّة الراضية

للمبدأ الأخلاقي. لقد تنبأ داروين Darwin عن هذا المنحدر الزلق من العنف في حال تُرجمت نظرية النشوء والتطور إلى فلسفة للحياة. تكلم نيتشه عن كفن الظلام الذي وقع على البشرية - لقد رأى آثارها على الجنس البشري. كتب الروائي الروسي فيودور دوستويفسكي Fyodor Dostoevsky مراراً وتكراراً عن فتح بوابة الجحيم حين يبتعد الإنسان عن المراسي التي أرساها له خالقه، وحين يجعل نفسه إلهاً. لقد فهم النتائج. والآن، وببرهان ثابت، نشاهد ثقافتنا بأكملها في انحراف جنوني نحو اللاقانون. إننا نعيش نتائج تصادم الحريات الذاتية التي لا ترحم.

إن كنت تخشى من كوني أتمادي في تفاصيل الموضوع، فأليك ما يلي لكي تتأمل فيه. يصعب عليك أحياناً في الحياة أن تشير بدقة إلى اللحظات التي تغير مستقبلك جذرياً. لكن أحياناً، حين نستذكر ما حدث معنا، نستطيع أن ننظر إلى تلك اللحظة ونقول: «بالنسبة إليّ، هذه كانت اللحظة التي غيرت مستقبلي». أود أن أبسط أمامكم لحظة من تلك اللحظات التي اختبرتها أنا في حياتي.

بينما كنت أتكلم منذ سنوات قليلة في بولندا، أخذني أصدقاء لي إلى معتقلات الموت النازية في أوشويتز Auschwitz وبيركانو Birkenau، ومنذ تلك الزيارة لم أعد الإنسان نفسه. مرّات كثيرة رحّت أفكراً ملياً في زيارتي الأولى إلى هناك، رحّت أذكر كلمات هتلر وهو يتخيّل جيلاً بلا ضمير من الشباب، تلك الكلمات التي علّقت على حائط لتذكر الزائر بالجحيم الذي نتج عن تحقيق أهدافه.

لقد حرّرت ألمانيا من حماقة وخزي مغالطات الضمير والأخلاق... وسندربّ شبابنا الذين سيرتجف العالم أمامهم. أريد من هؤلاء الشباب أن يكونوا قادرين على القيام بأعمال العنف، أن يكونوا مستبدين بلا شفقة أو رحمة.

ثمّة، على مرأى من الجميع، شعر النساء بأوزان هائلة مُعلّق للدلالة على المبيدين النازيين، مهندسي الحلّ الأخير الذين أرسلوا جماهير غفيرة إلى أفران الغاز. أمور تذكارية لا تُصدّق: غرف مليئة حتى السقف بصُور أطفال مشوّهين إذ تعرّضوا للإعتداء، صُورٌ ترمي بظلالها الشاحبة على الزائرين.

العقل عاجز أن يفهم كيف أنّ كلّ هذه الأمور تصوّرت ووُلدت في مخيِّلة أكثر الدول ثقافةً في تلك الحقبة من التاريخ، ونشأت على التراب نفسه الذي أنجب حركة التنوير الفلسفية. لكن هذا كان الإبن الشرعي للإلحاد. بدأ الإنسان يعيش من دون الله.

القُصَل السَّالِث



الرجل المجنون يصل



هل ثمة تفسير لما حدث في أوشويتز Auschwitz؟ هل ثمة تفسير لهذا الجرح التاريخي المحير للعقل والذي أصاب وجه الإنسانية؟ أعتقد أنه يوجد تفسير، وقد ورد على لسان أحد الناجين من أحداث أوشويتز واسمه فيكتور فرانكل Viktor Frankl.

حين نتعامل مع الإنسان من خلال مفهوم غير صحيح عن الإنسان، فقد نفسده.

عندما نتعامل مع الإنسان وكأنه ردّة فعل أوتوماتيكية، أو كآلة عقلية، أو مجموعة من الغرائز، أو رهينة للفعل وردّة الفعل، أو مجرد منتج وراثي وبيئي، فنحن بذلك نغذي العدمية التي يميل إليها الإنسان الحديث. لقد أصبحت المرحلة الأخيرة من الفساد مألوفة لديّ حين زرت مخيم أوشويتز للمرة الثانية. كانت غرف الغاز في أوشويتز النتيجة النهائية لنظرية كون الإنسان لا شيء سوى منتج وراثي وبيئي، أو كما كان يودّ النازيون أن يقولوا: «من دم وتراب.» إني مقتنع تمامًا بأنّ غرف الغاز في أوشويتز وتربلينكا Treblinka ومايدانك Maidanek لم تكن مجهّزة أساسًا في وزارة ما من وزارات برلين Berlin، إنّما في مكاتب وقاعات محاضرات العلماء والفلاسفة العدميين^١.

إن كنا نحن الذين في الغرب نعيش تحت وهم الحيادية ونصرّ على حذف الوصايا العشر من قانوننا الأخلاقي، ربما علينا أن نفكر في عرض

ملاحظات فرانكل أمامنا لكي نتذكّر أنّ الدافع وراء المحرقة النازية لم يكن نتيجة خطة عسكرية، بل صدر عن النخبة المثقفة من قليلي الحياء في فلسفاتهم الإلحادية وفرضياتهم المادية.

علم أمراض المعتقد

سمعت شخصياً قصة من مالكولم ماغريدج Malcolm Muggeridge (هزّنتي حينها وما زالت) عن حوار أجراه مع سڤيتلانا ستالين Svetlana Stalin، ابنة جوزف ستالين Josef Stalin. فقد أمضت هذه الأخيرة بعض الوقت مع ماغريدج في بيته في إنكلترا، بينما كانا يعملان معاً لإنتاج برنامج لإذاعة «بي بي سي» BBC حول حياة والدها. تقول سڤيتلانا، بينما كان ستالين على فراش الموت، وتعتريه هلوسات مرعبة، جلس فجأة في فراشه وقبض يده رافعاً إياها نحو السماء مرّة أخيرة، ثم هوى على وسادته ومات. وما يدعو للسخرية أنّ جوزف ستالين كان ذات يوم تلميذاً في كلية لاهوت، يتهياً للخدمة. لقد عاش في عصر ينادي بمبادئ نيتشه، فقرّر أن لا يؤمن بالله في ما بعد. هذا التحوّل الجذري والكامل في معتقده والذي نتج عنه كره شديد لكل الأديان، كان السبب الذي من أجله اختار لينين Lenin ستالين ووضعه في منصب مسؤول؛ وكان خياراً ندم عليه لينين في ما بعد. هذا، وإنّ الاسم ستالين الذي يعني «الفولاذ»، لم يكن اسمه الأصلي، بل أطلقه عليه معاصروه الذين وقعوا تحت تأثير عزم إرادته الفولاذية. وحين كان ستالين راقداً يلفظ أنفاسه الأخيرة، كانت إيماءته الأخيرة عبارة عن قبضة يد موجّهة ضدّ الله، وكان قلبه بارداً وقاسياً كالفولاذ.

هل ثمة من رابط بين إلحاد ستالين وعقله المدبّر لإجرامه الواسع ضدّ شعبه، إذ قتل نحو خمسة عشر مليون شخص؟ خلال الأيام الأخيرة من انهيار النظام الماركسي في الإتحاد السوفياتي Soviet Union، كتب الروائي

السوفيياتي شينغيز أيتماتوف Chingiz Aitmatov القصة التالية التي أعدت صياغتها هنا.

طلب ستالين، في إحدى المناسبات، أن يأتوه بدجاجة حيّة لكي يستخدمها أمام بعض أعوانه كعبرة لا تُنسى. أمسك الدجاجة بقوة بيد واحدة، وبدأ بيده الأخرى ينتف ريشها واحدة تلو الأخرى وبطريقة منهجية. بينما كانت الدجاجة تحاول يائسة أن تهرب منه، تابع تجريده المؤلم للطير إلى أن أصبح عارياً تمامًا. وضع ستالين الدجاجة على الأرض وابتعد عنها قليلاً وفي يده فتات من الخبز وقال: «راقبوا جيّدًا الآن.» وبطريقة عجيبة، قفزت الدجاجة التي كانت ترجف خوفًا في اتجاهه وتعلّقت بهُذب سرواله. رمى ستالين حفنة من فتات الخبز إلى الطائر، وحين بدأت الدجاجة تتبعه في أرجاء الغرفة، التفت إلى زملائه المصعوقين وقال بكلّ هدوء: هذه هي الطريقة التي ينبغي أن يُحكم الشعب بها. هل رأيتم كيف تبعنني هذه الدجاجة لكي تأكل، على الرغم من أنني سبّبتُ لها عذاباً أليماً؟ الشعب يُشبه هذه الدجاجة، إن أفرطت في تعذيبه، سيتبعك لكي يأكل كلّ أيام حياته.»^٢

بهذا الذلّ الواعد، حطّ ستالين من شأن البشرية إلى مستوى الحيوانات، وهو مخمور بالقوة والسلطان، قضى بلا شفقة على ملايين من شعبه، ممّا دفع عددًا كبيرًا من أفراد عائلته المقربين إلى الانتحار. كانت نقطة انطلاق ستالين نحو بناء عالم من دون الله سببًا في قيادته نحو أكثر الاختبارات دموية في كلّ تاريخ الإبادات البشرية.

دعوني أوضح لكم ما أعنيه. أنا لا أقترح هنا أن كلّ الملحدين هم على هذه الشاكلة، أو أنّ كلّ الملحدين يؤيدون هذا النوع من التفكير. كما أنني لا أفترض أنّ هذه هي النتيجة الوحيدة للفكر الإلحادي. بالتأكيد، مرّ عبر التاريخ أشخاص على الرغم من نكرانهم لوجود الله، اختاروا لأنفسهم طريق عمل الخير والإحسان. وهنا بيت القصيدة. فالخيار المبني على

النمط أو النموذج الستاليني، هو خيار يأخذه الملحد الخير بصعوبة بالغة ليتذمّر حين يخسر حقّه في المطالبة بقانون أخلاقي بمقتضى الإلحاد. وهذا المأزق لا مفرّ منه. إنّ أساس الاستقلالية الفردية والأخلاقية قادر على تنمية عشبّة ضارّة تخنق حياة غيرها.

هل هذا هو بالفعل الحلم الإنسانيّ الخياليّ؟ وهل هذه هي الشخصيّة المتلوّنة التي تسير على حبل الزمن المشدود والتي تُبعد من طريقها الرجل «المتدين» المتقلقل الذي يتمايل على الجبل لكي يحافظ على توازنه؟ هل تذكر ذلك المجاز في قول نيتشه؟ «إني أشير هنا إلى مثله القائل: «هكذا تكلم زردشت» *Thus Spake Zarathustra*، وهو ملحمة شعرية درامية غنيّة بالتفاصيل الملوّنة، تُعبّر عن عبقرية اللغوية. الرسالة التي أراد نيتشه أن يوصلها من ذلك المثل هي رسالة عاطفية ومحدّدة الهدف في الوقت نفسه. تتكلّم القصة عن زردشت الذي هو سيّد أخلاقي، سعى في مرحلة من حياته إلى خلق عالم خاص به فتنسكّ منعزلاً على أحد الجبال. بعد محاولات دامت عدّة سنين للتوصل إلى عالم أخلاقي مثالي خاص به، تخلى عن سعيه للفضيلة لأنّها غير منطقية وزائفة. أقرّ أخيراً بتردّد أنّه كان على خطأ، وتخلّى زردشت عن معتقده الذي كان يوماً يعتبره كنزاً ثميناً، وهجر عالم التنسكّ المعزول. كانت مهمّته وهو تارك جبله أن يعلن للعالم في أسفل الجبل عن هذه المعرفة الجديدة التي اكتشفها، والتي حرّرتّه من قيود الأخلاق التي كانت تُكبّله.

التقى ذات مرّة ناسكاً ضحّى، فكّرَه كلّ شيء لأجل «محبة الله». وبينما كانا يتجاذبان أطراف الحديث، سأل الناسك زردشت أين كان ذاهباً. أجابه زردشت أنّه يغادر الجبل لكي يعود إلى «الأعماق» فيحطّم الأساطير التي يؤمن بها الإنسان، أساطير الفضيلة والأخلاق والله. وبينما كان يُدير ظهره للناسك الذي كان يتوسّل إليه أن يتخلّى عن هذه المهمّة (لأنّه من الخطأ التنصّل من الأخلاق) قال زردشت بينه وبين نفسه وهو يرثي لحال الناس: «ألم يخبره أحد أنّ الله قد مات؟»

عند وصوله إلى المدينة، بدأ زردشت يبشّر الناس برسالته الجديدة، في الأسواق، حيث احتشدوا ليشاهدوا رجلاً يمشي على حبل مشدود بين برجَين شاهقَين. استغلّ زردشت الفرصة واستخدم الحبل البارعة لكي يشرح نقطته.

الرجل هو حبل، ممتدّ بين الحيوان والرجل الخارق، حبل يمتدّ فوق الهاوية. العبور خطر، والسير خطر، والنظر إلى الخلف خطر، والاهتزاز والتوقّف خطر.

وبينما كان يتوسّع في هذا الموضوع، وصل الرجل إلى منتصف الطريق بين الحيوان والرجل الخارق، ثم أضاف زردشت:

لقد شَقَقْتُ طريقك من دودة إلى إنسان، ومعظم كيائك ما زال دودة. كنتَ مرّةً قردًا، والإنسان قرد أكثر من القروء... لا تصدّق الذين يخبرونك عن آمال ورائية. إنهم يبيئون السُّمَّ، سواء عرفوا ذلك أم لم يعرفوا. إنهم يحتقرون الحياة، ويفسدون أنفسهم ويشربون السُّمَّ وقد تعبت الأرض منهم. إذًا، تخلص منهم. كان التجديف على الله في ما مضى من أسوأ الخطايا، لكنّ الله مات، وبالتالي مات معه كلّ هؤلاء المجدّفين.^٢

ما إن انتهى الرجل الأخلاقي من ديباجته التي أصرّ فيها على أنّه ينبغي للإنسان أن يتطوّر ويتخلّى عن الفكر الأخلاقي والإيمان بالله حتى بدأ الرجل الذي يسير على الحبل المشدود مسيرته فوق الهوة. في منتصف الطريق، توقّف وبدأ يتمايل. وفجأة ظهر خلفه مُهرَجٌ بلباسٍ ملوّنٍ وصرخ فيه بشدّة:

هيا أيها الأعرج، انطلق أيها الكسول، أيها المتطفّل، أيها المريض وإلا دغدغتك لتقع. ماذا أنت فاعل هنا بين

البرجيين. مكانك في البرج، حيث يجب أن تُحبس فيه، إنك تقطع الطريق على مَنْ هو أفضل منك.

كان المهرج يقترب من الواقف على الحبل شيئاً فشيئاً. ثم صرخ صرخة دموية وقفز فوقه. اهتز الواقف على الحبل بسبب ما فعله المهرج، وفقد جراته والعصا التي كانت تحافظ على توازنه، ثم هوى وسقط على الأرض. وقف زردشت بهدوء قرب الرجل المحطّم الذي كان يلفظ أنفاسه الأخيرة، ويئنُّ خوفاً من الجحيم.

أجابه زردشت: «أقول لك بصدق إنّه لا يوجد أيُّ شيء من ذلك الذي تكلمت عنه. لا يوجد شيطان ولا يوجد جحيم. ستموت روحك قبل جسدك. إذا لا تخف في ما بعد من أي شيء.» نظر إليه الرجل بعدم ثقة وقال: «إن كنت تقول الحقيقة، فأنا لن أخسر شيئاً حين أفقد حياتي. أنا لست أكثر من حيوان تعلم الرقص بالضرب والإطراء.» قال له زردشت: «أبدأ، فأنت اخترت مهنة خطيرة ولا عيب في ذلك. ستقضي الآن بسبب مهنتك؛ ولهذا السبب سأدفنك بيدي.» حين أنهى زردشت كلامه لم يجبه الميت بكلمة، بل حرّك يده كما لو كان يبحث عن يد زردشت ليشكره.

هذا المثل يلخص رسالة نيتشه للعالم. كانت رسالته رسالة الإلحاد. بالنسبة إلى نيتشه، أدرك زردشت، سيّد الأخلاق والقيم، أنّ كلّ كلام حول الأخلاق هو كلام تافه، لأنّ الفكر لا يمتلك أية حقيقة عنه في الواقع المطلق. اقتنع باستنتاجه هذا، وبدأ رسالته بتنوير الشعوب وشرح اكتشافه الجديد لهم: إنّ السعي وراء الأخلاق هو سعي مشؤوم فرضته المسيحية لتقزيم الإنسان وسجنه بواسطة الخوف. وبتعبير إلحادي يقول إنّ الإنسان هو في منتصف الطريق إبان رحلته التحوّلية من وحش إلى رجل خارق، ويجب القضاء على أي أمر يعترض طريقه. أمّا العائق الأساسي فهو المسيحي،

ذلك الرجل المتدين، «اللاهوتي الدودة»، لأنَّ الدين مهزلة، وهو مستولد من الخوف من العالم الآخر. اطرح المسيحيّ جانباً؛ ادفنه؛ قل له إنه يتوهم وإنه جاهل؛ قل له إنه لا ينتمي إلى هذا العالم الجديد. وحين ترى يديه ورجليه تتخبّط فيما يهوي ويموت، بشّر بأعظم خبر على الإطلاق؛ قل له إنه لا يوجد سماء ليرثها، ولا جحيم ليخاف منه. وبينما يلفظ أنفاسه الأخيرة، سيمدّ يده ليشدّ على يدك شاكرًا. انهب وادفنه لكي لا ترى وجهه في ما بعد، ولكي تنزع عنك ثقل الله الذي أثقلنا به القديسون «المضلّلون».

٣ وعود جديدة وخيانات قديمة

بالنسبة إلى نيتشه والإلحاد، فقد حقّق زردشت أعظم عمل على الإطلاق حين احتقر الواقع. فالأخبار السارّة لم تعد خلاصاً في ما بعد، بل إنها اختراع سامّ قام بتحضيره الزعماء والتجار الدينيّون. فالأخبار السارّة هي أنّ الرغبة في الخلاص لم تعد مبرّرة، وأنّ الإنسان لم يعد مضطراً أن يتحمّل عبء المجد في ما بعد. يستطيع الإنسان الآن أن يشرب ويرتوي من كأس الإلحاد، إنه إلحاد نقي خالص.

كيف يمكن التعامل مع هذا التقريع العنيف؟ الطريقة الوحيدة هي من خلال فحص الأفكار المطروحة، وتذكّر نتائجها. بعد التدقيق الكثيف، يتّضح لنا جلياً أنّ هذا الهجوم العاطفي ضدّ الإيمان بوجود الله، تكتنفه مصطلحات فكرية، إلّا أنّه يُخفي في طيّاته برنامجاً و«منطقاً» يتربّص وراء هذا الهجوم الذي يبدو أكاديمياً من الخارج. قليلون يتكلّمون عن هذا البرنامج بلا حياء، وألدوز هوكسلي Aldous Huxley هو واحد منهم، قال:

بالنسبة إليّ، وبالنسبة إلى معظم معاصريّ، كانت فلسفة اللامعنى بشكل أساسي وسيلة للتحرير. كان التحرير المنشود تحريراً من نظام سياسي واقتصاديّ معيّن، وكان في الوقت نفسه تحريراً من نظام أخلاقيّ معيّن. وقد اعترضنا على

النظام الأخلاقي لأنه كان يتعارض مع حريّتنا الجنسية. اعترضنا على النظام السياسي والاقتصادي لأنه نظام غير عادل. ادّعى مؤيدو هذه الأنظمة بأنهم بطريقة ما كانوا يجسّدون معنى العالم (كانوا يُصِرُّون على أنّ هذا المعنى هو المعنى المسيحي). وكان ثمة طريقة واحدة بسيطة لدحض ادّعاءات هؤلاء القوم، وفي الوقت نفسه تبرير أنفسنا في تمردنا السياسي والجنسي: لقد أنكرنا وجود أي معنى للعالم على الإطلاق.^٥

على أنه في القرينة نفسها، كتب مقدّمة لملاحظاته على الشكل التالي:

كان لي دوافع لكي لا أريد أن يكون للعالم معنى، ونتيجة لهذا، افترضت أن لا معنى للعالم، وكنت قادراً من دون صعوبة أن أجد أسباباً مرضية لهذه الفرضية. إنّ معظم الجهل يمكن قهره. فنحن لا نعرف لأننا لا نريد أن نعرف. إرادتنا هي التي تقرّر كيف نستخدم ذكاءنا، وما هي المواضيع التي تحتاج إلى ذلك الذكاء. والذين لا يجدون معنى في العالم يصلون إلى هذه النتيجة عموماً، لأنّ ذلك يناسب ما ورد في كتبهم، بأنّ العالم يجب أن يكون بلا معنى.^٦

إنّ معظم الذين يقتلون الله في أيامنا هذه، ليسوا صريحين ولا يعترفون بدوافعهم التي أوصلتهم إلى هذه الخلاصة. ثمة بعض الاستثناءات، غير أنّهم يحاولون تهريب تبرير لاستنتاجاتهم على الأكتاف الأكاديمية القوية. تفترض المصادقية أن نسأل هؤلاء المفكرين، ماذا تقدّم على ماذا. هل كان الشوق إلى التحرّر من كلّ الالتزامات الأخلاقية هو الذي دفع الفكر ليبتكر أساساً منطقياً لهذا الشوق، أم أنّه كان ذلك الطريق المنطقي الحقيقي غير الزائف الذي أدّى إلى نفي الله؟ قال ستيفن جاي Stephen Jay ما يلي:

نحن موجودون هنا لأن مجموعة غريبة من الأسماك كان لها زعانف خاصّة وغريبة، استطاعت أن تتحوّل إلى أرجل لتصبح كائنات بريّة. ولأنّ المذنبات اصطدمت بالأرض وقضت على الديناصورات، أصبح للتديّيات فرصة لم تكن متاحة لها بطريقة أخرى (لذلك قدّم الشكر لتلك المذنبات الجالبة للحظ بكلّ ما للكلمة من معنى). ولأنّ الأرض لم تتجمّد بالكامل خلال العصر الجليدي، ولأنّ فصيلة صغيرة واهنة ظهرت في أفريقيا منذ ربع مليون سنة واستطاعت حتى الآن أن تبقى على قيد الحياة بوسيلة أو بأخرى. إنّنا نتوق إلى إجابة «أسمى»، لكن لا يوجد أية إجابة أخرى. هذا التفسير، مع أنّه مزعج ظاهرياً، إن لم يكن مرعباً، فإنّه في نهاية الأمر التفسير المحرّر والمنعش.^٧

ثمّة مُفارقة رهيبة في كلّ هذا، أليس كذلك؟ ما هو هذا الانتعاش والتحرّر الذي يتكلّم عنه؟ هل غابت عني بعض الأمور؟ هل هذا التحرير مرادف للحقيقة بأننا أصبحنا أكثر الأمم عنفاً وتعاطياً للمخدرات على وجه البسيطة؟ هل هذا هو الانتعاش الذي يجعل المهدّئات ومضادات الحموضة أكثر الأدوية مبيعاً في الصيدليات، لكي تبطئ اندفاعنا المجنون لتعاضم ثروتنا؟ هل هذا الانتعاش هو الذي يوصل مؤلّفي الأغاني والملحنين إلى نوبات جنونهم على المسرح وإلى سبات وغيبوبة في بيوتهم؟ هل هذا هو الانتعاش الذي نسمعهم يتكلمون عنه في البرامج الحوارية حيث يفتخرون بأحاديثهم الدنسة معتبرينها حوارات ترفيحية؟ هل هذا هو الانتعاش الذي فكّك عائلتنا وجعل الأضعف فينا ضحية؟ هل هذا هو الانتعاش، أن نعيش في أكثر العصور دموية في التاريخ؟ هل هذا هو الانتعاش، أن يكون في وسطنا جيلاً كاملاً من الفتيان الذين غالباً ما يكونون بلا أب وبلا رجاء؟ هل هذه كلّها أسباب الانتعاش؟ أم أنّنا نلعب لعبة كلام خطيرة مرّة أخرى؟

أكرّر وأقول إنّ أحد الأشخاص قد يتّهمني بغضب، ويقول إنّي أسيء تمثيل الإلحاد وأنّ ليس كلّ الملحدين غير أخلاقيين ويائسين. أستطيع أن أفهم الغضب، لكنّ الحجة غير منطقية. صحيح أن ليس كلّ الملحدين غير أخلاقيين، لكن يبدو أنّهم أخفقوا في فهم النقطة الأكبر. فالإلحاد يُقدّم كلّ سبب لكي يكون غير أخلاقي وهو محروم من أي نقطة مرجعية موضوعية لإدانة أي خيار يُتخذ. إنّ أي ملحد يعيش حياة أخلاقية هو بكلّ تجرّد يعيش حياة أفضل ممّا تجيزه فلسفته. وإنّ أي شجب واستنكار لا بدّ أن يتضمّن عقيدة أخلاقية ما، والملحد يضع دائماً ألغاماً في أنفاقه. هذا بالضبط ما يجعل قبول ما يقول به نيتشه أمراً مرعباً.

دعوني الآن أعود إلى مثّل زردشت لأسلط الضوء على كيفية كون فلسفة نيتشه قد غدّت حياته. فإنّه لأمرٌ يفطر القلب أن تقرّأ وصفاً لعقله ونمط حياته السقيم، بينما كان يسير نحو مكتبه كلّ يوم ليكتب مقالته العنيفة ضدّ الله. لقد حملت حياته بصمات تدهوره الجسدي والعقلي. كان مقوّس الظهر، قصير القامة، ضعيف النظر. وكان يعود كلّ يوم إلى حياته الروتينية في غرفته الصغيرة، القارسة البرد وغير المرتبة. وكان على طاولته قصاصات لا تُحصى من الأوراق المكدّسة تحوي على أفكاره غير المنتظمة. وتجد في إحدى الزوايا ممتلكاته الوحيدة وهي عبارة عن بذلة رثّة وقميصين مطروحة في صندوق خشبي قديم. كان في غرفته أيضاً كتب ومخطوطات مبعثرة هنا وهناك، وصينية عليها عدد كبير من القناني التي تحتوي على أدوية وجرعات طبّية للتخفيف من آلام رأسه الحادّة التي كانت تنهكه، إضافةً إلى آلام معدته التي كانت تسبّب له نوبات من التقيؤ. كانت مسكنات الألم تطرحه لساعات عديدة فاقد الوعي. وقد جمع حوله هذه الترسانة من السموم والأدوية المخيفة فقط لكي تخفّف من آلام عالمه الذي ينحلّ ويتفتّت سريعاً. كان يكتب لساعات طويلة، ملتحمًا بمعطفه ووشاحه، متقوقعاً قرب موقد يخرج منه دخانٌ بدل الحرارة، وكان يرتدي نظارات سميكة

ويقترب بها أكثر فأكثر نحو الصفحات التي يقرأها. كان يسكب أفكاره على الأوراق إلى ما لا نهاية، وكان جسده يرتعش وعيناه تتحرقان، فيما كانت حياته التي تقودها أفكاره المضطربة متوجّهة إلى نهاية غير محمودة.

هذا، وإنّ العبارة التي تلخّص بصورة حادة ومؤلمة حالة نيتشه المقلقة هي بالقول: «زردشت هو خلاصة عمل رجل متوحّد تمامًا».

من السخرية بمكان أن يكون هذا الرجل هو نفسه الذي وصف المؤمنين بالله بالقول: «خالطو السموم»، في الوقت الذي كانت حياته مزيجًا من خليط كارثي مميت.

هاجم فولتير Voltaire مرّةً المسيحيّة بانتقاد عنيف على ادّعاءها بأنّ للحياة معنى، قائلاً إنّها لا تتماشى مع الواقع. هذا التوبيخ اللاذع معكوس هنا بواسطة التناقض الصارخ «للأخبار السارّة» التي أعلنها نيتشه، والتي كانت متضاربة بشكل جليّ مع الواقع الذي أنجبته فلسفته. فضعهف الجسدي المثير للشفقة واضطرابه العاطفي الذي تقاوم بشكل واضح بسبب مرض الزهري الذي كان مصابًا به، ظهر بشكل صارخ في كتاباته عبر السنين. وسيبقى كلّ ما قاله عن ذلك المهرج ذي اللباس الملون الذي يُرفّه الناس، حُلماً إنسانياً وهمياً لن يتحقّق.

إنّ الجنون الذي تنبأ به نيتشه عن العالم باغته شخصياً على حين غرّة. ففي سيرته الذاتية، التي بعنوان «هوذا الإنسان» *Ecce Homo*، كانت له فصول تحت عنوان «لماذا أنا ذكي إلى هذه الدرجة» *Why Am I So Intelligent*، «لماذا أكتب كتباً رائعة إلى هذا الحدّ» *Why I write Such Good Books*، و«لماذا أنا القدر» *Why I Am Fate*. وقد عرّف بنفسه بأنّه «وريث الله الميت». كانت نهاية نيتشه في مدينة تورين Turin في شمال إيطاليا، مدينة سيزار لومبروسو Cesare Lombroso، العالم النفسي ومؤلف الكتاب المشهور «العبقريّة والجنون» *Genius and Insanity*. وقد انهار نيتشه في

الشارع، فأخذه أولاً إلى مدينة بازل Basel، ثم لاحقاً إلى مأوى. وبطريقة غريبة وشريرة، وضع خلاصة فلسفة أنكرت وجود الله بلا هوادة، واختارت أن تحيا من دون أدنى تلميح إلى قيادة الله وإرشاده. قد يكون أهم فلاسفة القرنين الأخيرين، لأنه حاول بتعابير عملية أن يجيب عن سؤال زماننا الأعظم من خلال وجوده الشخصي.

يشير بعض كتّاب السيرة الذاتية إلى فترة من حياة نيتشه وهو شاب، ويصفونها بالفترة المأساوية والحاسمة في آن واحد، والتي كانت بمثابة نقطة تحوّل في آفاقه الأخلاقية والروحية. حين وصل إلى كولن Cologne كتلميذ، طلب من دليل أن يرشده إلى فندق، لكن بدل أن يأخذه هذا الخبيث إلى فندق، أخذه إلى بيت للدعارة. وحين وجد نيتشه نفسه محاطاً «بنساء الليل» وزبائنهنّ القذرين، شعر بصدمة رهيبة. لم يُخفِ ازدراءه لأولئك المشاركين في تلك الممارسات الصاخبة. وبعد أن لعب عازف البيانو بعض الألحان، انطلق إلى الخارج بسرعة البرق، معلناً أنّ الهدف الوحيد لكل البشر هناك هو الاستماع إلى عزف البيانو. كثيرون من الذين عرفوه أمحوا إلى أنّ الإغراء أوقع نيشته في الشرك فعاد لاحقاً. بعد ثلاث سنوات اعترف بأنّه أصيب بداء الزهري خلال تلك الفترة. وقد تغيّرت حياته بطريقة مأساوية، فذاك الذي احتقره قبلاً، عاد ليحتضنه الآن، وكان سبب نهايته. أنا ألمّح إلى هذا التغيير حين أتكلّم عن أمر موازٍ لأمتنا. فمدينة نيتشه الفاضلة التي حلّم بها لألمانيا لم تتحقّق قطّ.

في حالته المروّعة من الجنون، قد يكون حوّل الجنون إلى موت، وهو موت يبدو أنّه يسيطر على الحضارة الغربية اليوم، حيث تُمنع فكرة وجود الله من الدخول إلى حياة هذا الجيل. فبكل تأكيد، مُنع الله من دخول المؤسسات التي تحدّد تفكير المجتمع وسلوكه. أنا واحد من الذين يرون أنّ حياة نيتشه وموته كانا النسخة المُسوّدة من المخطّط الذي يقودنا إلى المكان الذي لا بدّ أن نصل إليه كأمّة، بعد أن كرّسنا أنفسنا لشكل من أشكال الحكومة والثقافة الإلحاديتين.

الفصل الرابع



العقل المتشرد



إنَّ سبب الإنهيار الحرفي والمجازي لمدينة الإلحاد الفاضلة هو أنَّه في قلب هذه الفرضية يكمن العجز الفاضح لبناء نظرية أخلاقية منطقية، أو متماسكة وثابتة، من دون تقليصها إلى مجرد عملية تطبيقية. هذا العجز عن الوصول إلى الصلاح بعيداً عن الله، ليس عجزاً ناتجاً عن عدم المحاولة. في الواقع، إنَّ بعض الأفكار الأكثر تأثيراً حول موضوع الأخلاقيات هي من بنات أفكار المفكر في حركة التنوير الفلسفية «إمانويل كانت» Immanuel Kant، الذي سعى إلى تأسيس دافع أخلاقي داخل الإنسان وقاعدة للتمييز بين الخير والشر من خلال المنطق فقط. يشير مؤرّخو نظرية الأخلاق إلى أنَّ القرنين الممتدَّين من العام ١٦٣٠ إلى العام ١٨٥٠ أصبحا الأساس الذي بُني عليه الصرح الغربي الحالي. أصبحت الأخلاق معروفة بقواعد سلوك ليست لاهوتية في أساسها ولا قانونية ولا جمالية، بل تحرّرت من تلك التهديبات وأُعطيَت مساحة ثقافية خاصة بها.^١ كتب «كانت» بسخرية في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، زارعاً بذرة فكرية في تراب الثقافة الغربية الخصب، ثمَّ سقاها محبُّو المنطق فازدهرت وأصبحت وجهة نظر علمانية. أقول إنَّه من السخرية بمكان، كما أعلنت سابقاً، أنَّ النظام الديمقراطي والاستبدادي يدعيان بأنَّ فلسفة «كانت» هي الفلسفة التي كانت أساساً لنظريتهما الإجتماعيّة الخاصة بهما. هذا واقع هامّ جداً نسيه راديكاليو عصرنا الحالي ومتطرّفوه، الذين يبدو أنَّهم يعتقدون بأنَّ صرخة حرية الديمقراطية الحزينة هي التي تصدح بصدى الأخلاقيات المنطقية. والحقيقة المرعبة هي أنَّ ملحي الإتحاد السوفياتي السابق كانوا يقتبسون «كانت» بكلِّ رقة معتبرينه الأساس لنظريّتهم الأخلاقية.

٥ الحجج التي رسبت فيه امتحان العقل والمنطق

بما أن «كانت» يُعدُّ عَرَّاب الخير الذي يمكن الحصول عليه بعيداً عن الله، دعونا نعيده انتباهنا للحظة. يبدأ «كانت» بفرضيتين بسيطتين: أولاً، يؤكد أن قوانين الأخلاق كانت عقلانية وبالتالي هي مفروضة على كل الكائنات العاقلة. كانت هذه القوانين غير قابلة للجدل تماماً كالمقياس المنطقي أو القوانين الرياضية الثابتة. كانت فرضيته الأساسية الواضحة وغير الملتبسة أن البشر، شرقيين وغربيين، بدو وحضر، متدينين وغير متدينين، يستطيعون من دون أي مساعدة من المنطق أن يصلوا إلى إقرار معياري يميز الصواب من الخطأ.

ثانياً، كان «كانت» يؤمن بأن هذا الإقرار لم يكن مجرد «نظرية مُلزمة» لا يمكن الوصول إليها، بل كان يؤمن أن لدى البشرية القدرة في ذاتها لأن تصل إلى هذه النظرية المُلزمة عبر إلزام الإرادة بأسلوب الرقعة والنبيل. لذلك نستطيع من خلال منطقنا أن نعرف الصواب، ومن خلال إرادتنا نستطيع أن نفعل ذلك الصواب.

في هذه المرحلة من جدله، يُقدِّم «كانت» حجتين هامتين لتبريره المنطقي للأخلاق. الحجة الأولى هي أن الله ليس بالضرورة هو المعلن عن الصواب والخطأ، لأننا نستطيع أن نصل إلى منطق صاف بعيداً عن الله. (لا ينكر «كانت» أن الله أعطانا بعض الوصايا. هو ينكر فقط الحاجة إلى ذلك الإعلان لأن المنطق وحده، كما يؤكد، يقودنا نحو ما هو صائب وصحيح). الحجة الأولى يقدمها باستمرار، الملحد إلى المؤمن بالله، أما الثانية فيتجاهلها.

ما هي الحجة الثانية التي يحبّ المشكك أن ينساها؟ قال «كانت» من دون مراوغة إن خيارات الفرد الأخلاقية لا يحددها اختبار الفرح، بمعنى أنه ينبغي للإنسان ألا يختار طريقاً معيناً للحياة لمجرد أن هذا الطريق

يسعده. ومجددًا، لا ينكر «كانت» حاجتنا جميعًا إلى السعادة، كما أنه لا ينكر وجود الله. إلا أنه يدحر تلك الاحتمالات كأساس للاختيار بين الخير والشر. من الغريب أن العالم الماركسي مقفل على هذا المنطق لأنه طرد الله من مجتمعه وفرض الذل والألم على الجماهير الشعبية (لأن الخير الأعظم كان للدولة على حساب سعادة الفرد)، بينما عالم الديمقراطية الجديد للمدينة الفاضلة حدد سعي الفرد للسعادة كحق أساسي لكل الأفراد على حساب الخير الجماعي. لكن الأخلاق «الكانتية» كانت مهترئة في كلا الميدانين.

إن ثقافتنا تسرع في إصرارها (كما هي حالنا الآن في عرضنا الأكاديمي هذا) على أننا لسنا في حاجة إلى الله لكي نفهم الأخلاقيات، مقتبسين «كانت» إلى حد الملل منه. لكن هل تخلّصنا من حجّته الثانية بأنّ على الإنسان أن يختار الأخلاق بعيداً عن السعادة الفردية؟ يجادل «كانت» بأنّ المتطلّبات الأخلاقية لها ميزة غير مشروطة كما هي الحال بالنسبة إلى الرياضيات. هي تقف بكلّ بساطة وبشكل قاطع باستقلالية تامّة عن خياراتنا. ثمّ إنّ الأخلاق ليست من فعل رغباتنا أو أشواقنا أو حقوقنا أو أية صياغة أخرى.

لن أجادل النظام «الكانتية» في هذه المرحلة. على كلّ طالب في علم الأخلاق أن يعلم أنّ تأكيدات «كانت» الأساسية لها فرضيات عديدة لا يقبلها حتى الملحد المعاصر. إيمانه بأنّه يمكن الوصول إلى مقياس أخلاقي، من دون الحاجة إلى أي إعلان إلهي، مفعم بالمتناقضات الفلسفية والاجتماعية والتاريخية.

أريد أن أشير أيضًا إلى أنّ هذه الفرضية الجريئة الموجودة في بعض أشكال التفكير الغربي، الذي يدّعي أنّه يمكن الاستدلال على الأخلاق عبر المنطق فقط، هي بالضبط سبب الإنهيار الشامل للوفاق بين الشرق والغرب. إنّ مقولات الصواب والخطأ المنبثقة من وجهة نظر علمانية، لا تجد

قاسماً مشتركاً لها مع الحضارات التي تولد نظرياتها الأخلاقية والسياسية من التزاماتها الدينية. وإنَّ الغضب العارم الذي نراه في ما يُسمَّى ببلدان العالم الثالث ضدَّ بعض المواقف في الغرب، ولا سيَّما ما يتعلق فيها بالجنس والسياسة، يجب أن ينبَّهنا على الأقل إلى أنَّ «المنطق» وحده لم يكن عاملاً مشتركاً. فما هو منطقي في الهند ليس بالضرورة منطقياً في فرنسا، وما هو منطقي في أمريكا، قد يكون «شيطانياً» في إيران.

والمقلق أكثر من هذا، أنَّ الإنسان الغربيِّ العلماني قد استقرأ المبادئ «الكأنتية» وافترض أنَّه إن وصل إلى هذا الوضع بالصدفة من دون أي مرجعية فوقية، فإنَّه بالتالي يستطيع بكلِّ جرأة أن يتكلَّم عن المنطق بطريقة موضوعية. المرجعية السلطوية للعملية المنطقية التي يستخدمها هي بالإشارة إلى نفسه أو إلى ثقافته. وثقافته بالمقابل مبرَّرة بمنطقه، وحجَّته بالتالي تعلق في دائرة مثيرة للشفقة.

بالنسبة إلى الإسلام في عالم الشرق الأوسط، فإنَّ الحقيقة «قد أُعلنت». وبالنسبة إلى الهندوسية والبوذية في عالم الشرق الأقصى، فإنَّ الحقيقة هي «حدسية». أمَّا بالنسبة إلى العالم الغربيِّ، فإنَّ الحقيقة هي «منطقية»، وبالنسبة إلى العلماني الغربيِّ، فإنَّ سعادته الذاتية هي الأساس. كيف يمكن أن تجادل الحدس والإعلان والسعادة الذاتية حين يدافع أتباعها عنها بشغف وقناعة؟

ذكر «كانت» حجةً غالباً ما نُغفلها، وهي توضح هذه النقطة. فقد جادل أنَّه كان ثمة فضائل مقياسية عالمية قاطعة وثابتة داخلياً. قاده هذا إلى صياغة قوله المأثور بأنَّه ينبغي لكلِّ واحد منا أن يريد ويعمل وفقاً للطريقة التي يريد ويعمل بها الجميع. وقد قال «كانت» نفسه إنَّ بعض «الالتزامات» هي ملزمة دائماً. مثلاً «قل الحقيقة دائماً»، أو «حافظ على وعودك دائماً»، أو «ساعد المحتاجين»، أو «لا تنتحر». بيد أنَّ المشكلة في كلِّ هذه الأقوال النبيلة أنَّها في حاجة إلى نوع من التفسير المشابه

«للميشنا أو التلمود» Mishna or Talmud، ويمكن لكل واحدة منها أن تتعدل بكل سهولة ومع ذلك تبقى عالمية. فمن السهل، مثلاً، أن تجعل من المبدأ القائل: «قل الصدق دائماً، إلا إذا أدى ذلك إلى موت شخص آخر»، مبدأً عالمياً. يوجد عشرات الآلاف من هذه المبادئ. حجة «كانت» غير قابلة للبرهان حسب المبادئ التي وضعها هو لنفسه، ويتخللها سهوات فاضحة.

أشار عالم الأخلاق أليسدير ماكنتاير Alisdair MacIntyre إلى تأثير خلفيّة «كانت» المسيحية في تفكيره سواء اعترف «كانت» بذلك أم لم يعترف. فقد تأثر كل واضعي النظريات الأخلاقية بفرضياتهم الدينية التي ساهمت في تشكيل نظرياتهم الأخلاقية، وهذا عنصر ظاهر بشكل واضح في نظريات كيركغارد Kierkegaard و هيوم Hume و ديدارو Diderot. كانت مبادئهم غير القابلة للنقاش متأثرة بتنشئتهم الدينية، سواء كانوا لوثرينيين أو مشيخيين أو من أتباع كورنيليوس جانسن Cornelius Jansen المتأثر بالكتلكة. هنا أيضاً يفشل الملحد في رؤية «الإجابة الأسمى» التي لا يمكن إخفاؤها، وإلا سيشعر بضغط لكي يحكم بين القواعد الأخلاقية المتضاربة التي لا يمكن الدفاع عنها، أو مجابتهها من دون الدفاع أولاً عن قاعدة عليا للأخلاق.

من المهم أن أذكر على الهامش أن معظم واضعي النظريات الأخلاقية الذين يحب الملحدون أن يقتبسوا عنهم، يتمسكون بنظرة عليا ومقدسة نحو الزواج، وستكون حياتهم صعبة مع الفلاسفة العصريين الذين يقللون من شأن الزواج اليوم. أنا أفكر بشكل خاص بشخصية مثل برتران راسل Bertrand Russell وإهماله الكامل لالتزاماته الزوجية. ذات يوم، وبينما كان راكباً على دراجته الهوائية، قرّر راسل فجأة أنه لا يحب زوجته بعد الآن، لذلك، استنتج أنه حان الوقت للتخلي عنها. تكرر تصرفه هذا مرات عديدة خلال حياته. لقد مرّ الزواج والحبّ فعلاً في فترات صعبة، والرجال مثل «كانت»، لا يشعرون بالإطراء حين يُتهمون بأنهم هم الذين وضعوا الأساس الأخلاقي لانهيار هذا الالتزام.

٥ الاختيار ضد العقل

في الختام، فشلت مساعي «كانت» لتأمين أساس عقلائي للأخلاق بعيداً عن الله أو السعادة الشخصية، إلا أنه مهد الطريق أمام الآخرين ومن بينهم الوجوديون. والفيلسوف المعروف بكفاحه لإيجاد هذا النوع من الأخلاق، هو الفيلسوف الدانمركي سورن كيركغارد Søren Kierkegaard. كانت الخطوة من «كانت» إلى كيركغارد خطوة طويلة لكنها كانت متوقعة. فمقاربة الأول للأخلاق كانت مقاربة منطقية، أما مقاربة الأخير، فكانت من الإرادة ومن قدرة الفرد على الاختيار. إن الكلمة المفتاح في تفكير كيركغارد هي كلمة الاختيار التي يشرحها في كتابه بعنوان: «إما، أو» Either-Or. هذا الاختيار بين الأخلاق وما هو جميل للنظر، لم يكن خياراً بين الخير والشر كما قال، بل كان القرار أن يختار أو لا يختار في ضوء وجود الخير والشر. والعقيدة التي انبثقت في كتاباته هي أنه عندما يتم تبني الطريقة الأخلاقية في الحياة، لا يجب أن يتم تبنيها لعلّة معينة، بل كخيار يكمن ما وراء المنطق. قال كيركغارد، ما إن يأخذ الرجل الأخلاقي قراره، فلن يكون عنده مشكلة في التفسير. مرة أخرى، يظهر عدم ترابط كبير حين يتم طرح المنطق خارجاً. كما كان لهيوم Hume وديدارو Diderot اتجاه مماثل لهذا الاتجاه.

ليس من الصعب أبداً أن نفهم لماذا فشل ما يُسمى بالاختبار التنويري في علم الأخلاق. لقد فشل لأن فرضيات مروجيه الأساسية، قد كشفت واحدة تلو الأخرى. وكانت فرضيتهم كالتالي: في كل الأحوال، كان هدف الحياة مُفترضاً قبل أن يكون هناك مسلمات أخلاقية، وهدف الحياة بعيداً عن الله يجعل من ساحة معركة الأخلاق ساحة مفتوحة للجميع. لقد تبرهن مراراً وتكراراً أنه من المستحيل تأسيس نظرية أخلاقية منطقية ومتماسكة قبل تحديد «تيلوس» Telos، أي قبل تحديد هدف الحياة البشرية ومصيرها. حتى «كانت» نفسه استنتج أنه من دون «تيلوس» ستتشوه

النظرية الأخلاقية. لو كانت الحياة نفسها بلا هدف، ستسقط الأخلاق في عالم من الفوضى والتشويش. وكما قال دوستويفسكي Dostoevsky، لو كان الله ميتاً، لكان بالإمكان تبرير كل شيء.

اسمحوا لي أن أفترض أن هذا هو المأزق الذي وضعت أمريكا الشمالية نفسها فيه. هذا هو العبء الذي يُثقل كاهل المرّبين. هذا هو المهماز الذي يَخْرُنا فيما نجرّح بعضنا بعضاً. وهكذا نستمر في الكلام عن القيم والأخلاق، ونصرّ على رسم حدود أخلاقية للآخرين بينما نمحو الخطوط المرسومة للحياة نفسها. إن كانت سعادتي حقاً من حقوقي والهدف المطلق لحياتي، فلماذا أقلق على سعادة الآخرين؟ وإن كان لا بدّ من أن أقلق على سعادة شخص آخر، فمن سيكون هذا الشخص؟ لماذا أقلق على سعادته ولا أقلق على سعادة شخص آخر؟ لو لم يكن للحياة هدف، فلماذا يكون للأخلاق أي هدف غير هدفي الخاص؟ لو كنت مجرد نتاج للمادة، ولو كنت تحت رحمة الحتمية المادية، فلماذا أخضع نفسي لقناعات الآخرين الأخلاقية؟

من جهة أخرى، لو كان الله قد خلقني وشكّلني لأحقق مقاصده، فيجب أن أعرفه، وأعرف قصده الذي خلقني لأجله، لأنّ إحساسي بالصواب والخطأ ينبثق من هذا القصد. يوجد عالمان ممثّلان في هذه الخيارات.

٩ قانون أم فوضء

بعد أن تخلّينا عن الله واكتشفنا أنّ المنطق والخيار هما مرشدان غير كافيين لمعالجة قضايا الحياة العميقة، يبدو لنا أنّ الحلّ بعيد المنال، خاصّة عندما تدخل إلى الصورة وجهات نظر أخرى للحياة. فالمسلم في سلام تامّ مع نفسه لأنّه جعل معتقداته الأخلاقية عالمية. والماركسي مقتنع بنفسه وراضٍ عنها أكثر من المسلم، لأنّه جعل مدينته الفاضلة عالمية على حساب الفرد. قبورهم تتحدّث عن قناعات قلوبهم. ثمّ إنّ

الوجودي يؤكد أنّ خياره هو الخيار الكافي للمنطق. وها نحن نُحدِّق إلى أمة حيث يُقذَف الواقي الذكري في وجه العابدين بلا حياء، وحيث تُسمع أصوات المشاجرات والصراخ الساخر الخارج من أبواب عيادات الإجهاض، وحيث نسمع عن راشدين يخدعون الأطفال ويُلجِّقون بهم الأذى. إلّا أننا في بحثنا عن الأخلاق والسعادة بعيداً عن الله، خسرنا ثلاثة أمور: خسرنا الله والأخلاق والسعادة.

قال مالكولم ماغريدج Malcolm Muggeridge، الصحفي المتجول الذي جاب الكرة الأرضية لأكثر من ستة عقود من حياته: لو كان الله ميتاً، سيأخذ شخص آخر مكانه. سيظهر جنون العظمة أو الهوس الجنسي، ستظهر غريزة السُّلطة أو غريزة المتعة، ستظهر قبضة يد مطبقة بإحكام أو سيظهر العضو التناسلي الذكري، سيظهر هتلر أو هيو هافنر Hugh Hefner. دعوني أضيف إلى هذا: سيظهر الاستغلال الاقتصادي أو الجنسي. ثم يقول ماغريدج إنّنا قد فقدنا النقطة المرجعية لأخلاقنا، لأننا نسينا ذلك الجزء المُثبت والمبرهن من الاختبار البشري (مع أنّ هذا الجزء هو الجزء الذي يُنكر أكثر من غيره)، ألا وهو فساد الإنسان. لقد كان ماغريدج مُحقّقاً في كلامه.

إلّا أنّ ماغريدج لم يكن الشخص الوحيد الذي افترض هذه القناعة وسلم بها. وها أيريس مردوخ Iris Murdoch الأستاذ الجامعي في جامعة أوكسفورد Oxford University يردُّ بكلام حادّ وقاطع ومثير للمشاعر على ما قاله «كانت» في «أساسيات حول الأخلاق» *Groundwork on Ethics* وعلى حجّته بأنّه يمكن الوصول إلى الأخلاق من خلال المنطق فقط وبعيداً عن الله:

كم هي مألوفة ومُعْتَبَرَة صورة الإنسان الموصوف بشكل جميل في كتاب الأساسيات، والتي إذا واجهها حتى المسيح، سيبتعد عنها لكي يترك ضميره يدينه، ولكي يسمع صوت

منطقه الخاص... هذا الإنسان ما زال موجوداً معنا، وهو حرّ ومستقلّ وجميل وقويّ ومنطقي ومسؤول وشجاع، وهو بطل لكثير من الروايات والكتب المتعلقة بفلسفة الأخلاق. إنّ علّة وجود هذا المخلوق الجذاب والمضلل في الوقت نفسه، ليست بعيدة المنال. هو ذرية عصر العلم، منطقي بجداره، ومع ذلك يُدرك بشكل متزايد بُعدَه عن العالم الماديّ الذي استكشفه... لا علاج لبعده... والخطوة ليست بعيدة من «كانت» إلى نيتشه إلى الوجودية، وإلى العقائد الأخلاقية الأنجلوسكسونية التي تشبّها في بعض النواحي... في الواقع، لقد تجسّد إنسان «كانت» قبل الآن بطريقة جليّة قبل قرن تقريباً في أعمال ميلتون Milton: إنّ اسمه الحقيقي هو لوسيفر Lucifer.^٢

هل هذه التهمة الفلسفية مختلفة عن الصرخة المحذرة لفريق الروك الموسيقي كينغ كريمسون King Crimson: «المعرفة صديق مميت حين لا يحدّد أحدٌ قوانينَ لها. إنّ مصير البشرية كلّها في أيدي الحمقى»؟^٣ هذا يعيد إلى ذهني ذكرى اجتماع عُقد مؤخراً في دار البلدية بعد أن اختبرت ولاية أتلانتا Atlanta أحد أكثر الأشهر إجراماً ودموية في تاريخها الحديث. فقد وقف العديد من أولئك الشبان المُعذّبين والمُعَنْفَين وناشدوا شيوخ المدينة والسياسيين، قائلين: «نتوسّل إليكم أن تُعيدوا الله والصلاة إلى مدارسنا»، فيما وقف قادة المدينة المدنيون عاجزين عن إيجاد حلّ، وكلّهم أمل أن تظهر حلول أخرى مقبولة اجتماعياً. إنّ الثمن الأغلى الذي يفرض على مجتمع يعيش من دون الله، يدفعه شباب ذلك المجتمع.

أجل، يوجد صلة، صلة منطقية، بين الغائية والأخلاق، بين هدف الحياة، «والموجبات» الملزمة، بين الله والفضيلة.

بينما كان الناقد الاجتماعي المشهور دنيس پراغر Dennis Prager يناظر الفيلسوف الملحد جوناثان غلوثر Jonathan Glover من جامعة أوكسفرد، طرح هذا السؤال الشائك: «لو وجدت نفسك يا أستاذ غلوثر عند منتصف الليل في شارع مقفر من شوارع لوس أنجلوس Los Angeles، ثم خرجت من سيارتك خائفاً مرتعداً وسمعت صدى أقدام تُسرّع إليك من خلفك، ثم رأيت عشرة رجال أقوياء البنية خارجين من مبنى ومتجهين نحوك، ألن يشكّل فرقاً، أن تعرف إن كان هؤلاء الرجال خارجين من درس للكتاب المقدّس أم لا؟»

ووسط الضحكات العالية الصادرة من القاعة، اعترف غلوثر أنّ هذه المعرفة ستشكّل فرقاً. طبعاً إنّها تشكّل فرقاً لأنّه يوجد صلة منطقية.

عبّرت دوروثي سايرز Dorothy Sayers، وهي عالمة لاهوت وروائية، عن المشاعر نفسها في عنوان بحثها: «قانون أم فوضى» *Creed or Chaos*. إنّ عقيدة أصحاب الحداثة تفضح إفلاس تلك العقيدة. لا يوجد أحد يعبّر بشكل أفضل عن هذا الأمر مثل ستيڤ تورنر Steve Turner، الصحافي الإنكليزي، في قصيدته الساخرة «العقيدة» *Creed*، التي تصف العقل الحديث:

نحن نوّمن بماركس وفرويد وداروين.

نحن نوّمن بأنّ كلّ شيء على ما يرام

ما دمت لا تؤذي أحداً،

على حدّ علمك.

نحن نوّمن بممارسة الجنس قبل وخلال وبعد الزواج.

نحن نوّمن بالعلاج بواسطة الخطيئة.

نحن نوّمن بأنّ الزنى ممتع.

نحن نوّمن بأنّه لا بأس باللواطية.

نحن نوّمن بأنّ المحرّمات محرّمة.

نحن نوّمن بأنّ كلّ شيء يتحسنّ

على الرغم من وجود أدلّة معاكسة.

يجب التحقيق في البرهان،

ويمكنك أن تثبت أي شيء من خلال البرهان.

نحن نوّمن بالأبراج

وبالصحون الطائرة والملاعق المقوّسة،

كان يسوع رجلاً صالحاً تماماً مثل بوذا، ومثلنا.

كان معلّماً أخلاقياً جيّداً

على الرغم من أننا نعتقد أنّ

أخلاقه الجيدة كانت رديئة.

نحن نوّمن بأنّ كلّ الأديان هي نفسها في الجوهر

على الأقل تلك الديانة التي تبناها.

كلّ الأديان تؤمن بالمحبة والصّلاح،

إنّما تختلف فقط حول قضايا الخلق،

والخطيئة والفردوس والجحيم والله والخلّاص.

نحن نوّمن بأنّ بعد الموت يأتي العدم

لأنك حين تسأل الأموات عمّا حدث لهم

لا يجيبونك بشيء.

لو لم يكن الموت هو النهاية، ولو أنّ الأموات كذبوا،

فلا بد أن يكون الفردوس للجميع

ما عدا، ربّما، هتلر Hitler وستالين Staline وجنكيز خان Gengis Khan.

نحن نوّمن بما قاله ماسترز Masters وجونسون Johnson

ما تمّ اختياره هو معتدل،

والمعتدل هو طبيعي،

والطبيعي هو صالح.

نحن نوّمن بنزع السلاح بالكامل.

نحن نوّمن بأنّه يوجد رابط مباشر بين الحرب وسفك الدماء.

على الأمريكيين أن يحوّلوا أسلحتهم إلى جرّارات

وعلى الروس أن يتمثّلوا بهم.

نحن نوّمن بأنّ الإنسان صالح في أصله.

سلوكه فقط هو الذي يحبطه.

هذا خطأ المجتمع.

المجتمع هو ما هو عليه بسبب الشروط.

الشروط هي ما هي عليه بسبب المجتمع.

نحن نوّمن بأنّ على كلّ إنسان أن يجد الحقيقة

المناسبة له.

الواقع سيتأقلم وفقاً له.

الكون سيتأقلم.

سيتغيّر التاريخ.

نحن نوّمن بأنّ الحقيقة المطلقة غير موجودة،

ما عدا الحقيقة التي تقول:

إنَّ الحقيقة المطلقة غير موجودة.

نحن نوّمن برفض المعتقدات وقوانين الإيمان،

كما نوّمن بازدهار الفكر الفردي.^٥

ثم يضيف التالي في الحاشية ويدعوه «الصدفة» *Chance*:

إن كانت الصدفة

قد خلقت كلَّ جسد،

فالكارثة هي قوس قزحها في السماء،

وحين تسمع:

حالة طوارئ!

القناص قتل عشرة!

هجوم مسلّح!

البيض ينهبون!

القنابل تُفجّر المدارس!

فما هذا إلاّ صوت إنسان

يعبد صانعه.^٦

حقًا، إنَّ رجاء الإلحاد ينقله لا محالة إلى فوضى بلا عقيدة.

في أعقاب عصر التنوير، كان المذهب الوجودي ينتظر ولادته.

أصبحت الشهوة مألوفة، والحشمة «ذهبت مع الريح». حين استهلكت

الوجودية ذاتها، فكَّ المفكِّكون كلَّ ما تبقى وراءهم. هذا، وإنَّ لكتاب

كولن غونتون Colin Gunton الذي يتابع الوجوديين إلى نهايتهم المحتومة،

عنواناً رائعاً: «التنوير والانعزال» *Enlightenment and Alienation*. لم يتبقَّ أي نقطة مرجعية أخلاقية متماسكة ومنطقية في الوقت نفسه.

هذه هي المرحلة الأولى من الإنهيار حين تحاول أن تعيش بعيداً عن الله. النتائج ستكون مرعبة. دعونا الآن ننتقل إلى المرحلة الثانية.

القُصْلُ الْخَامِسُ



أَيْنَ الْإِلْحَادِ عِنْدَ الْأَلَمِ



قال الواعظ المشهور جوزف پاركر Joseph Parker مرّة: «إذا وعظت عن آلام الناس، تجد دائماً جمهوراً يسمع لك.» إنها ملاحظة جيّدة، لأنّ اختبار الألم والمعاناة يتخطّى كلّ الحواجز الثقافية واللغوية. إنّ واقع الآلام البشرية وكثرتها، لا يُثير عطفنا نحو الآخرين فحسب، بل يجعل الروح البشرية تسأل سؤالاً عميقاً وحساساً: أين هو الله حين نتألم؟ أنا لا أعتزم أن أجيب عن هذا السؤال من وجهة نظر مسيحيّة، حتى وقت لاحق. ما أريد أن أفعله هو وضع إطار للسؤال ضمن معالمه الشرعية أو القانونية.

قال أحدهم: «حين تمرّ الفضيلة بمحنة، والرذيلة تزدهر يُصبح البشر ملحدين.» ومن دون أدنى شكّ، هذا هو العائق الأعظم في وجه الإيمان بالله. لقد عبّر عن هذا الأمر ألفرد لورد تنيّسون Alfred, Lord Tennyson بكلمات بسيطة إنّما مقنعة في الوقت نفسه، فقال: «لم ينتقل الصباح إلى المساء قطّ، لكنّ قلباً ما قد تحطّم.»¹ يحقّ للشاعر أن يركّز على المشاعر من دون اعتذار.

عندما نتأمّل في الآلام التي تصيب البشر، نجد أنفسنا أمام معضلة ذات أبعاد كونية. هذا السؤال يُنتج عدة أسئلة. حين يرتبط السؤال نفسه بوجهة النظر العلمية، فإنّه يطفو بشكل مواز مع حجة برهان وجود إله من خلال التصميم الذي نراه في الكون. وبعبارة أخرى، كما أنّ العالم يُسلّم بأنّ العين مصمّمة بشكل رائع ولكن ليس بشكل كامل، هكذا يسلمّ الفيلسوف إلى حدّ ما بكون منظمّ لكنه يرى فيه تعسّفاً بسبب كمية الألم الهائلة والمفرطة التي تصيب البشر. إنّ الإيمان الدينيّ من وجهة النظر الإلحادية، لا يعطي إجابة عن هذا السؤال، ويعتبر أنّ أدوية الإيمان الدينيّ

تُبْتَلَعُ مع جرعة كاملة من الخرافات الأخرى. ويؤكد أنّ هذا يؤدي فقط إلى تهدئة مؤقتة للفرد من دون الإجابة فعلاً عن السؤال: لماذا الألم موجود في هذا الكون، ما دام بالفعل يوجد إله كليّ المحبة وكليّ القدرة في المركز القيادي. يشتدّ الصراع بأكمله بواسطة الاختبار البشري للموت الذي هو الشكل النهائي للألم والمعاناة، والذي بالنسبة إلى كامو Camus هو المشكلة الوحيدة التي تواجهها الفلسفة.

لا يدرك الإنسان للوهلة الأولى كم أنّ هذا السؤال واسع ومعقدّ. لكن كلّما حاول الإنسان أن يجد إجابة وافية ومرضية يدرك كم أنّ هذا الموضوع معقدّ بالنسبة إلى كلّ وجهات النظر العالمية. مثلاً، يبحث الفلاسفة في مشكلة الشرّ الميتافيزيائية (خالق الشرّ)، مشكلة الشرّ الأخلاقية (دور الله في الشرّ)، ومشكلة الشرّ المادية (حيث لا يوجد عامل بشري وراءها). جزء ضروري من المناقشة سيعالج ما يُعرف عادة بعنوان «أفضل العوالم الممكنة».

يتكلّم المشكّك عادة عن أربعة خيارات كان يمكن لله أن يستخدمها في الخلق (إن كان الله موجوداً حقاً). أولاً: أن لا يخلق العالم أبداً. ثانياً: أن يخلق عالماً لا يوجد فيه شرّ أو خير، أي عالم غير أخلاقي. ثالثاً: أن يخلق عالماً حيث يستطيع الإنسان أن يختار الخير فقط، أي عالم شبه آلي. رابعاً: أن يخلق عالماً كما نعرف الآن، يمكن أن يختار فيه الإنسان بين الخير والشرّ. يسأل المشكّك لماذا اختار الله هذا النموذج من العالم وهو يعلم أنّ الشرّ سينتج عنه؟

هذه هي الجبهات الفلسفية للمعركة. من الواضح أنّه من المستحيل معالجة كلّ هذه المواضيع هنا، لكنني آمل في دفاعي عن المسيحية في الجزء الثالث من هذا الكتاب أن أجيب بقدر المستطاع عن أكثر الأسئلة صعوبة.

أمام الملحد معضلتان لا تتزحزان. الأولى هي التحدي الفلسفي الذي يواجهه الملحدون في دفاعهم الفلسفي عن الشر الموجود حاليًا. المعضلة الثانية هي مشكلة الموت. هنا أيضًا، سيُكشف النقاب عن لاعقلانية الحياة حين يحاول الإنسان أن يحيا بعيدًا عن الله. من المهم جدًا فيما أتوسّع في هذا الجدل المتعلّق بالشرّ، أن أناقشه بشكل متكامل. كلّ جزء منه مرتبط بالآخر، وإن تعاملت معه بشكل مجزأ فسأكون ظالمًا في حقّ الإجابة. كما أنّ المسيحية لا تستطيع أن تعالج مشاكل هذا السؤال بعزلة بعضها عن بعض، هكذا هي الحال أيضًا بالنسبة إلى الإلحاد. إنّ الفرضيات والاستنتاجات هي جزء من نظام أكبر وأوسع.

إنّ أحد أكثر الإجابات استفزازًا لاختبار الموت والبحث عن الرجاء عرّضه البروفيسور ويلفريد ماكلاي Wilfred McClay من جامعة تولان Tulane بعد أن حضر جنازة سيّدة. إنني الآن أقتبس تعليقاته بشكل موسّع، لأنّ هذه الكلمات تكشف عن حدّي السؤال، سواءً بالنسبة إلى الملحد أو بالنسبة إلى المؤمن بالله.

بينما كان كثيرون منّا تحت وطأة حالة من التأمل الصامت، مرتعدين وخانعين لفكرة ذلك الخيط الرفيع الذي تتعلّق به حياتنا، كانت أفكار أخرى تجول في بال خادم الله... لم يحاول أن يعزّي عائلتها وأصدقاءها، كما لم يحثنا على تذكر الكلمات الصعبة في الصلاة الربّانية، «لتكن مشيئتك». بل بدأ بسلسلة خطابه المسهب ضدّ سوء ترتيب الأولويات في مجتمعنا، حيث تُهدر الملايين من الدولارات على أبحاث حول «حرب النجوم» فيما نساء شابات كهذه يُتركن لقبضة الموت على طاولة العمليات. هذا كلّ ما قاله ذلك الخادم. كان خطابه في الواقع تلميحًا لكي تخفّض الحكومة الفدرالية إنفاقها على الدفاع، وتزيده على تطوير التقنيّات الطبيّة... الأمر الوحيد الذي كان من المفترض أن نقوم به

هو كتابة توصية إلى أعضاء الكونغرس، أو إلى رالف نادر Ralph Nader نشرح لهم فيها عن هذه الانتهاكات.

لا أستطيع أن أصدق ما أسمع... لن أتطرق إلى سوقية الكلام المستخدم في الخطاب وقسوته غير المقصودة على عائلة المرأة. لن أتطرق إلى كلامه وخطابه المبتذل. لن أتحدث عن نبرته الحادة المرضية للذات... ولن أتطرق إلى أناقة آرائه... أنا مستعد أن أعترف على سبيل الجدل أن هذا الخادم كان محققاً في كل ما قاله. كل هذه الاعتبارات هي خارجة عن الموضوع. لا شيء سيغير واقع كونه خذلنا وخذلها، وخذل دعوته حين هدر لحظة ثمينة من أجل خطاب مبتور، وأجبرنا على كبت مشاعر الحزن والأسى في قلوبنا في لحظة كنا في أمس الحاجة إلى التعبير عنها. هذه اللحظة لا يمكن استعادتها.

لا شيء يمكن للدين أن يقدمه أكثر من تجهيزنا للصمود أمام مصاعب الحياة من خلال مساعدتنا على إيجاد معنى إبان الألم والخسارة. عندما نكتشف المعنى نستطيع بالتالي أن نتحمل الكثير من الأمور. لكنّ واعظنا لم يعرف كيف يكشف لنا عن هذا المعنى. كل ما عرضه علينا هو رغباته وأمنيته السياسية. أما بالنسبة إليّ، فقد غادرت دار المأتم وأنا مصدوم ومتزعزع أكثر من ذي قبل. فجزء من حزني كان نتيجة خيبة أمني، لأنّ هذه العظة وهذه الكلمات لم تعكس أعماق أفكارني (وأفكار كثيرين من حولي كما اكتشفت لاحقاً). ولا بدّ أن الجزء الآخر من حزني كان نتيجة نذير شوّم، كوني كنت أشهد نوعاً آخر من الخطأ المقصود، ونوعاً آخر من الموت.^٢

من المثير للفضول، أنَّه على الرغم من الذمّ الذي يتعرّض له الدّين، فإنّه ما زال يُعتبر حصن الأمل الوحيد في وجه الموت، بالنسبة إلى المتوفي وإلى الأشخاص الأحياء الذين يحزنون على فراقه. إنّ النقاط التي يُثيرها البروفيسور ماكلاي هي ذات صلة وثيقة بنقاشنا بطريقة ضمنية وواضحة. فالأحداث التي أثارت هذه الكلمات المتقدّمة منه، كانت أحداثاً مأساوية، فقد كانت المرأة التي وقف قرب قبرها صديقة له منذ أيام الجامعة. توفيت فجأة وهي تنجب طفلها. كلّ التعابير اللطيفة والكلام الفلسفي المبهم لا يقدر أن يخفي الألم أو أن يتجنّب الأسئلة. فالإلحاد هنا يواجه تحدّيًا قاسيًا.

أشار سي. إس. لويس C. S. Lewis بتبصّر إلى أنّ الكائنات البشرية هي الكائنات الوحيدة التي تتكلّم عن الألم بهذه الطريقة. كان مقتنعاً أننا لا نطرح حقيقة الألم فحسب، بل نطرح السؤال بشكل جازم في سياقه الأخلاقي، خاصّة في أخلاقية العدل. لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟ وفي مكان آخر، أشار سي. إس. لويس بقوة إلى أنّ الألم قد يكون مكبر صوت يستخدمه الله مع عالم أصم أخلاقياً.^٣

هذان الموضوعان التوأمان، أي السياق والقصد من الألم، كما فهمها لويس، هما موضوعان يتجاهلهما الملحد بشكل مستمرّ لأنهما يطعنان الفكر الإلحادي في صميم أقوى انتقاد له ضدّ وجود الله. عندما يُطرح موضوعا الألم والموت في السياق الأخلاقي، يقع الملحد في تناقض فاضح في فهمه للواقع، إن كان في الوقت نفسه يُنكر وجود الله. لو لم يكن هذا الكون كوناً أخلاقياً، فلماذا يُطرح السؤال على المستوى الأخلاقي؟ لماذا نتكلّم عن الألم بالطريقة التي نتكلّم بها؟

بدلاً من ذلك، لو كان الكون كوناً أخلاقياً، ألا يمكن أن يكون اختبار المعاناة والألم فعلياً مكبر صوت يستخدمه الله ليلفت انتباه البشر إلى الواقع الأخلاقي؟ إن كان هذا العالم عالماً أخلاقياً، سيّتهم السؤال نفسه

بنفسه، فما يتضمّنه هذا السؤال هو أنّ هذا الكون هو كون أخلاقي، لذلك على الناقد أيضاً أن يعالج الأمور غير الأخلاقية التي يمارسها. وبالعكس، لو لم يكن لهذا السؤال معنى، لأنّ الشرّ لا يتناسب مع عالم مادي تماماً ومن دون الله، لوقع المنتقد في تناقض صارخ حين ينتقد الله على المستوى الأخلاقي. بطريقة أو بأخرى، السؤال والسائل كلاهما يدمّر نفسه بنفسه.

إنّ أحد أكثر الاهتداءات غير الاعتيادية إلى المسيحية هو اهتداء الشاعر و. هـ. أودن W. H. Auden. كان اهتداء غير عاديّ بسبب المسار الذي قرّر أن يسير فيه عقلياً، فيما كان يبحث عن إجابات تتعلق بالسؤال العميق حول الشرّ. يصف البروفيسور ألن جاكوبز Alan Jacobs من جامعة ويتّن Wheaton بصورة مؤثرة وحادة هذا المسار الذي ساره أودن. يروي جاكوبز حادثة جرت في العام ١٩٤٠ حين دخل أودن قسماً من مسرح في مدينة مانهاتن Manhattan فيه أشخاص من غالبية ألمانية، وكان يُعرض فيه فيلمٌ عن الرايخ الثالث واحتلاله لپولندا. صُعق أودن بالكامل وشعر بالأسى، حين كان يسمع صراخ المشاهدين يعلو في المسرح في كلّ مرّة يظهر فيها شخصٌ پولندي؟ «اقتله... اقتلهم.» كانوا يصرخون كصراخ الجماهير في المدن الرومانية القديمة المتعطّشة للدم، فيما كانوا يحتشدون في الحلبات لمشاهدوا وحشية المصارعين وهمجيّتهم وساديّتهم.

ترك أودن المسرح مصدوماً بشكل هائل ومتحيراً من اختبار الكراهية المطلقة التي شهداها. لم تكن حيرته بسبب عدم قدرته كإنسان أن يجد حلاً لهذه الآفة الاجتماعية فحسب، بل بسبب عدم قدرته حتى على إيجاد تفسير لوجود هذه العواطف البشرية التي تأسر الأبواب. لقد وجد صعوبة في شرح الشرّ استناداً إلى فرضيّاته، فقاده هذا الصراع إلى المسيحية التي أمّنت له بشكل متماسك تفسيراً لفساد الإنسان وعلاجاً له.

لقد فهم أودن السؤال بشكل جيّد. فطرّح موضوعي الألم والموت بعيداً عن الله لا يبقى من دون إجابة فحسب، بل يبقى من دون تبرير.

دعوني أحاول باختصار وقدّر المستطاع أن أحيط بالمسألة من كلّ جوانبها، وأسَلِّط الضوء عليها. فإذا عُذنا إلى إحباط البروفيسور ماكلاي، نجد أنه يُعَلِّن عن خيبة أمل أخرى. كان توقّعه وتلميحه المنطقيّ أنّ من دور الدّين أن يعطي رجاء للحالة الميئوس منها وغير القابلة للعلاج. فالنّائحون عالقون في صحراء اليأس القاحلة وهم في حاجة إلى أكثر من عظة سياسية مريعة في مناسبة مأساوية كالموت. لكن، أليس هذا جزءاً من إفلاس عصرنا؟ نلوم أي شخص وكلّ شخص، ونبدأ نعتبر التعليم والنظريات السياسية والتطور الاقتصادي كـمخرج من رمال الأخلاق المتحرّكة، ونتخيّل أنّها قادرة بطريقة ما أن تبني لنا ملاجئ تحميّنا من حرّ الواقع الشديد، وأنّها قد تنقذنا من الموت واليأس. أليس هذا هروباً من المشكلة الناتجة عن العيش من دون الله؟ لا بدّ أنّ البروفيسور ماكلاي أدرك هذا الأمر.

حقاً، لا يمكن إثبات الدّين لمجرّد أنّه قادر أن ينقذ الإنسان من اليأس. لا أهمية للدّين، إن كان الدّين حلاً نفسانياً. إن تعاملنا مع الحقيقة الدينية بعقلية غير نقدية، واعتبرناها مخرجاً من واقع مؤلم، يُصبح استخدام القياس الكتابي، وطرد أرواح اليأس الشريرة، بوابة مشرّعة أمام خناق قبضة متشدّدة سبع مرات، خادعين الممسوس بخدعة مستقبلية مثيرة للشفقة. من جهة أخرى، إن كان المعتقد الديني مرتكزاً على الحقيقة وخاضعاً لتدقيق كبير، فإنّ السعي للحصول على السلام والرجاء وتحقيقهما في الحياة هو سعي شرعي ومقبول.

هذا التدقيق في البحث عن الحقيقة ضروريّ قبل أن يخضع الإنسان لأي دين. لكن هنا تكمن المشكلة: لماذا لا يطبّق هذا التدقيق نفسه على التفكير الذي يقود إلى حياة من دون الله؟ باختصار، أين يكون الإلحاد إبّان الألم؟

هنا أيضاً، كما هي الحال في الصراع ضدّ ناموس أخلاقي، يجادل المفكّرون الملحّدون في حلقة، ويرمون المنطق بإجابة غير منطقية. كيف

يُمْكِنُ أَنْ يُعْطَى رَجَاءٌ لِرَجَالٍ وَنِسَاءٍ مُفَكِّرِينَ، حِينَ تَكُونُ الْحَيَاةُ مَتَّجِهَةً نَحْوَ الْمَوْتِ؟ وَأَيُّ رَجَاءٍ يُعْطَى، مَا هُوَ إِلَّا سَلْبٌ لِلْحَقِيقَةِ لِأَجْلِ إِبْرَازِ الْمَظَاهِرِ. فَالرَّجَاءُ الَّذِي يُعْطِيهِ نَيْتَشْهُ هُوَ أَنَّ الشَّخْصَ الْمَوْشَكَّ عَلَى الْمَوْتِ، سَيَمْدُ يَدَهُ وَيَسْلَمُ عَلَيْكَ حِينَ تَطْمَئِنُّهُ بِأَنَّ انْقِرَاضَهُ وَشَيْكَ، الْأَمْرُ الَّذِي يُشَكِّلُ دَعَابَةً مِنَ الْأَخْبَارِ السَّارَّةِ وَالْمَحْزَنَةِ فِي آنٍ. فَالْأَخْبَارُ الْمَحْزَنَةُ هِيَ أَنَّ هَذَا الشَّخْصَ سَيَمُوتُ. وَالْأَخْبَارُ السَّارَّةُ هِيَ أَنَّهُ لَنْ يَحْتَاجَ إِلَى أَيِّ شَيْءٍ بَعْدَ أَنْ يَمُوتَ. إِذَا، الْأَخْبَارُ السَّيِّئَةُ لَيْسَتْ سَيِّئَةً، بَلْ هِيَ، فِي الْوَاقِعِ، تَحْرِيرٌ كَامِلٌ وَمُطْلَقٌ.

مِنْ حَيْثُ الْغَرَابَةِ، يَبْدُو أَنَّ هَذَا الرَّجَاءَ شَبِيهِ بِالرَّجَاءِ الْبُودِيِّ، مَجْرَدًا مِنَ الْعَنْصَرِ الرُّوحِيِّ لِلْبُودِيَّةِ. كَمَا تَذْكُرُونَ، بَدَأَ غَوْتَامَا بُودَا Gautama Buddha بَحْثَهُ عَنِ الْأُجُوبَةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالْحَيَاةِ لِأَنَّهُ اخْتَبَرَ الشَّيْخُوخَةَ، وَالْمَرَضَ وَالْمَوْتَ. وَقَدْ اقْتَادَهُ هَذَا الْبَحْثُ إِلَى التَّخَلِّيِّ عَنِ زَوْجَتِهِ وَبَيْتِهِ وَكُلِّ الرِّفَافِيَّاتِ الْمَادِيَّةِ. كَانَتْ الْإِجَابَةُ تَكْمُنُ فِي إِيْمَانِهِ بِأَنَّ الشَّهْوَةَ هِيَ جَوْهَرُ الْأَلَمِ الْبَشَرِيِّ، وَإِنْ اسْتَطَاعَ الْإِنْسَانُ أَنْ يَقْمَعَ هَذِهِ الشَّهْوَةَ، يَصِلُ إِلَى حَالَةِ الْنِيرْفَانَا Nirvana. لَا شَكَّ أَنَّ الْبُودِيَّةَ الْكَلَّاسِيكِيَّةَ كَانَتْ إِحْدَاثًا مَعَ نَفْحَةٍ مِنَ الْغُنُوسِيَّةِ، وَقَدْ عَلِّمَتِ الْبُودِيَّةَ الْكَلَّاسِيكِيَّةَ أَنَّ الْإِجَابَةَ عَنْ مَسْأَلَةِ الْأَلَمِ تَكْمُنُ فِي اسْتِنْصَالِ الشَّهْوَةِ. وَيَعْتَبَرُ الْبُودِي أَنَّ التَّأْمُلَ وَنُكْرَانَ الذَّاتِ وَتَقَمُّصَ الرُّوحِ هِيَ السَّبِيلُ نَحْوَ حَالَةِ الْاسْتِنَارَةِ.

وَبِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمَلْحَدِ، فَإِنَّ الشَّهْوَةَ تَمُوتُ فَقَطْ عِنْدَ الْمَوْتِ، وَهَكَذَا يُصْبِحُ الْمَوْتُ فِي الْوَاقِعِ الْمُنْقَذَ مِنَ الشَّهْوَةِ. أَثَارَ جَانْ بُولِ سَارْتَرِ Jean-Paul Sartre مَسْأَلَةَ عَدَمِ انْتِحَارِهِ اعْتِرَافًا مِنْهُ بِهَذَا اللَّغْزِ، لِأَنَّ الْإِنْتِحَارَ فِي الْوَاقِعِ سِيرِيحُهُ مِنْ كُلِّ آلَامِهِ. إِذَا كَانَتْ الْحَيَاةُ فِي تَعْرِيفِهَا حَيَاةً مِنْ دُونِ اللَّهِ، يُصْبِحُ هَذَا السُّؤَالُ شَرْعِيًّا جَدًّا. كَانَتْ إِجَابَةُ سَارْتَرِ غَامُضَةً، إِذْ قَالَ إِنَّهُ لَمْ يَنْتَحِرْ لِأَنَّهُ لَوْ انْتَحَرَ لَكَانَ اسْتِخْدَامَ حُرِّيَّتِهِ لِكِي يَقْضِيَ عَلَى حُرِّيَّتِهِ. هَذِهِ الْإِجَابَةُ، كَغَيْرِهَا مِنَ الْإِجَابَاتِ الْإِلْحَادِيَّةِ، هِيَ أَجَابَةُ جَوْفَاءٍ، وَالرَّدُّ عَلَيْهَا وَاضِحٌ وَجَلِيٌّ. لِمَاذَا سَيَتَرَدَّدُ أَيُّ إِنْسَانٍ فِي أَنْ يَتَخَلَّصَ مِنْ هَذِهِ الْحُرِّيَّةِ، إِنْ كَانَتْ الْحُرِّيَّةُ هِيَ الْمَشْكَلَةُ الَّتِي يَرِافِقُهَا التَّشْتُّتُ وَالْأَلَمُ وَالْيَأْسُ؟

إنَّ خسارة شيء لا نفكر فيه أبداً ولا نشعر به ولا نسعى للحصول عليه، ليس خسارة على الإطلاق. يُصبح الموت في الواقع علاجاً لكل شيء، لأنَّه يُنقذ الإنسان من حالة كهذه. إن كان الموت علاجاً، فلن يكون شراً إلا بالنسبة إلى الأحياء. إلا أنَّ هذا يُبعد الحلَّ خطوة إضافية. إنَّه لمن الغرابة بمكان أنَّ الموت يُقاس بمقاييس مختلفة، فبدل أن يكون شراً يُصبح الخير المطلق. يستطيع الإنسان بهذا النوع من المنطق أن يبني أفضل العوالم على الإطلاق، من خلال الانقراض فقط. أهلاً بك إلى اللعب على الكلام في عالم الملحد.

مع كلِّ المحاولات الهادفة إلى منح الرجاء، فإنَّ أي محاولة للعيش من دون الله تنتهي بحلقة مفرغة. باختصار، لا يقدر الإلحاد أن يعطيك إجابة على لماذا نعبر عن الألم بالطريقة التي نعبر بها. والطامة الكبرى، أنَّ الخيارات البربرية كالرواقية والأبيقورية، والتي تُسمَّى اليوم الإنسانية المتفائلة، لا يمكن أن تقدِّم أيَّ عون. وإن أراد أحد أن يطَّلِع على تعريف إدوارد مورو Edward Murrow عن المتفائل، فهو هذا: «شخص يطلب منك أن تفرح عندما تسير الأمور كما يشتهي.» هذا يوضح لماذا الإنسانية المتفائلة تُعرَّف على هذا النحو، غير أنها تعطي تعريفاً جديداً للكلمتين، لأنَّ تفاؤلها مصطنع، وإنسانيَّتها تحطُّ من شأن الإنسانية. فالتفاؤل هنا هو بديل غامض للمنطق بغية الحصول على الرجاء والأمل.

المشكلة مع هذا التفلسف الكثير هي أنَّه يمكن للفلسفة أن تصبح بكلِّ سهولة عملية تشييد بناء فوق الآخر في محاولة منها لتغيير الواقع. مع كلِّ الأمل الذي يقدمه الإلحاد، ومع كلِّ كلامه حول مدينة الإلحاد الفاضلة، لم يسبق أن رأينا في التاريخ يأساً يكتنف عدداً هائلاً من البشر كهذا اليأس، ما دامت أعمق أشواق القلب وأمنيّاته غير محقَّقة.

إنَّ المشكلة الرئيسية في روسيا اليوم هي اليأس، والأمر نفسه ينطبق على ملايين من الشباب في بلادنا. منذ مدَّة ليست ببعيدة، وبعد خطاب

ألقيته أمام قادة «اتفاق السلام» Peace Accord في جنوب أفريقيا، وقف شاب آسيوي في جلسة مفتوحة وطرح السؤال التالي: «سيد زكارايوس، ما هي الأجوبة التي يمكن أن تقدمها لنا لكي تحميّنا من أن نصبح بوسنة أخرى؟» عندما يكون مراقب شاب قادراً على طرح سؤال كهذا، مثقل بالأحاسيس والخوف، فهذا دليل لا يقبل الجدل على أن الحياة من دون الله فاشلة. في الواقع، يجب أن يُطرح السؤال على الشكل التالي: ما الذي سيقى العالم بأسره من أن يصبح بوسنة أخرى؟

علق مؤخراً العالم المناصر للإنسانية والمتفائل الذائع الصيت تيد تورنر Ted Turner قائلاً: «لو كانت محطة CNN التلفزيونية موجودة في الأربعينيات، لما حدثت المحرقة أبداً.» أنا أستنتج من تباهيه هذا أنه يعني أن نشر المعلومات سيوقف زحف الشرّ، وأن الطاقة الإنسانية لفعل الخير ستنتصر. مع كل احترامامي لذكائه اللامع، أتساءل ماذا سيقول للأبرياء المتوقعين أن يذبحوا في البوسنة وراواندا؟ لا يمكن تقديم الرجاء عبر التطور التكنولوجي حين يضع الموت عينه عليك؛ فقط الرواقية القائمة ستسود. قد نهرب من الواقع، لكن ذلك سيُشكّل محاولة من المحاولات لإخفاء النُدب عبر العمليات التجميلية، فلن نستطيع تجنب ألمها العميق المميز.

إنّ العالم بأسره يشعر بسيف الموت والألم، وعلى كلّ ديانة وفلسفة في الحياة أن تواجهه. والفلسفة التي لا تحتضن إيماناً بالله لا تستطيع حتى أن تبرّر هذا السؤال، فكيف تعطي أملاً غير الأمل بالفناء والانقراض. لو كان ممكناً سدّ هذه الفجوة في المعرفة الإنسانية، تصوّروا كيف كانت ستُعيد تحديد كلّ شيء. استقامة الفكر تقود كلّ جيل إلى البحث عن إجابة لا تفوح منها رائحة الجهل والتكبر، كما أن دروب الحياة تتطلب شيئاً أفضل لكلّ حياة قبل أن تنتهي الحياة. لدى المسيحيّ جواب.

٥ تناقص الظلام وازدياد النور

منذ فترة قصيرة، كنت أتكلّم في كنيسة كانت تجتذب عددًا لا بأس به من قادة الحكومة المحليّة ورجال الأعمال. سألني أحد أعضاء الطاقم الرعوي إن كنت أرغب في زيارة سيّدة لم أكن أعرفها، لكنّها حضرت بعض الاجتماعات التي كنت أتكلّم فيها منذ سنة. لا شكّ أنّها أحبّت تلك الاجتماعات واستمتعت في استماع رسائلّي المسجّلة. إنّها الآن على فراش الموت بسبب مرض الأيدز. اغتنمتُ الفرصة فورًا لكي أزورها مع زوجتي وأحد زملائي.

أتمنى لو كنت قادرًا أن أصف لك مشاعري في تلك المناسبة. هناك، في تلك الغرفة، تلاقى الواقع البائس والمذلّ للموت مع عظمة وشجاعة الإيمان داخل القلب البشري. كانت شقتها السكنية مطلة على موقع مميز في مدينة شهيرة بآثارها التاريخية. لكنّ صديقنا التي كانت تُحتَضِر لم تكن قادرة على التمتع بهذا المنظر الخلّاب. كانت حياتها تتدهور بسرعة. حين دخلنا شقتها، نزلنا درجًا مؤدّيًا إلى غرفة الجلوس. كان والداها جالسين على أريكة، وصديق لها كان يجلس قربيها. أمّا هي فكانت مستلقية هزيلة بشكل يرثى له، فاقدة كلّ قوّة في جسدها، إلّا أنّها أدارت رأسها بضعف حين سمعت صوت أقدام تقترب منها. لم تعرف من كان يزورها، لكنها تنفّست الصعداء حين وقع نظرها علينا. عندما انحنيت نحوها لكي أغمرها سمعتها تردّد قائلة: «أنا لا أصدّق ما أرى، أنا لا أصدّق ما أرى.» لن أجعلكم تملّون تفاصيل حواريّ معها، إلّا أنّني أودّ أن أخبركم بفكرتين بسيطتين.

بينما كانت نظراتي تجول في أرجاء الغرفة، لاحظت وجود جهاز تسجيل وبعض الأشرطة المسجّلة على طاولة بالقرب منها، وكتابًا مفتوحًا ومقلوبًا. عنوان الكتاب يعبر عن كلّ محتواه: «توقّ لاكتشاف المعنى» *The Hunder for Significance*. قبل أن أترك المنزل، سألتها إن

كان ممكناً أن نصلي معاً، فوافقت بكل سرور. نظرتُ إلى حالة جسدها المروعة، إذ كان قد فقدَ شكله الطبيعي وأصبح مجرد جلد وعظام. أحنينا رؤوسنا وصلينا، وحين فتحتُ عينيَّ لاحظتُ بريقاً في عينيها. مدتْ يدها نحوي فغمرتها مرةً أخرى قبل أن تغادر. كانت تعلم يقيناً أنّ حياتها قاربت على الانتهاء، بيدَ أنّ شُعاعاً من الرجاء في داخلها كان يتخطى الحاضر. ومع أنّ بعض الخيارات في حياتها كانت مُكلفة، فإنّها اتخذت منذ سنتين أعظم خيار لها، إذ اختارت أن تثق بالله ليقودها في هذا الاختبار المؤلم، وأن يقودها بعد الممات. توفيت بعد خمسة أيام، وبحسب وعد الكتاب المقدس، أنا أعلم أنّها أدركت ذلك الرجاء. لقد عاش المسيح ومات وقام من الأموات لكي يُعلن عن وعد السماء.

دعوني أنقلكم من رائحة الموت إلى مكان في لندن. حدث هذا في خطاب ألقاه الملك جورج السادس King George VI في ليلة الميلاد أمام الكومنولث البريطاني British Commonwealth. فالأقتباس الذي ختم به خطابه خلال تلك الفترة العصيبة التي مرّت بها بريطانيا والعالم بأسره بعد الحرب العالمية الثانية، انحرف في ذاكرة أولئك الذين كانوا في مراكز قيادية في تلك الحقبة من التاريخ.

قلت للرجل الواقف على بوابة السنين: «أعطني نوراً لكي أسير بأمان في المجهول.»

قال لي: «اخرج إلى الظلام، وضع يدك في يد الله، وستكون يده لك أفضل من النور وأكثر أماناً من المعلوم.»

بينما كان يتكلّم، كان المستمعون غير مدركين أنّه كان عتيداً أن يموت بمرض السرطان. أصبحت كلماته هذه مرساة لحياته حين كان في أمس الحاجة إليها.

إنّ حاجة النضال العالمي هي إلى الرجاء الوحيد المنطقي والشرعي، ألا وهو الرجاء الذي من الله، رجاء للحياة الحاضرة، ورجاء للحياة بعد

الموت. عندما لا نجد إجابة حول مسألة الموت، يغزو اليأس حياتنا لا محالة. كان پاسكال Pascal يعي كلامه حين قال إنه تعلم كيف يحدد الحياة ويفهمها من آخرها إلى أولها. كان يقصد بهذا أنه حدد معنى الموت أولاً ثم حدد معنى حياته. هذا منطقي جداً. حين يخطئ الإنسان للقيام بأية رحلة، فإنه دائماً يحدد مكان وصوله. قال الرسول بولس وهو يشير إلى يسوع: «لأعرفه وقوة قيامته وشركة آلامه متشبهاً بموته» (فيلبي ٣: ١٠). إن قيامة المسيح تتضمن الألم، لهذا السبب، فإن وجود الله والثقة بالرجاء يسيران جنباً إلى جنب. لا نعود نرى الحياة من خلال نظارات المحدودية الضبابية، إنما نراها من خلال رؤية الله الواضحة، الله الذي يعطي النصر على الموت.

يقع امتياز الإجابة عن هذه الصراعات على عاتق الذين يتعاملون مع أمور الروح. وبالنسبة القوية نفسها أشد على أن الإلحاد يترك السائل متهمًا بشكل مضاعف، لأنه ينكر مبرر السؤال عينه ويعتبر مشكلة الألم مجرد شذوذ أخلاقي يصيب جنساً متطوراً. أكد برتران راسل Bertrand Russell أن حياته كانت مبنية على قاعدة من القنوط القاسي، وربما يكون هذا هو السبب الذي دفعه إلى أن يعطي تصريحاً مشتركاً مع ألبرت أينشتاين Albert Einstein، قبل يومين فقط من موت أينشتاين، معترفاً بأن «الأشخاص الذين يعرفون أكثر هم الأشخاص الأكثر تشاؤماً بالمستقبل.»

حين تكون المادة هي الحقيقة المطلقة، يكون التشاؤم نتيجة منطقية. وحين ينكر الإنسان الله، يصبح الإنسان حراً ليلغي الماضي ويسن المستقبل، لكن العارفين لا يجدون رجاء في القوانين البشرية. إن فقدان اليقين والرجاء بالمستقبل هما آفة قلب الوثنية. من الواضح أن الوثنية الجديدة لا تحز تقدماً، بل الآفة أضحت خلية سرطانية، وبالطبع، سلوك الإنسان وشخصيته لا يقلصان الخوف من المستقبل.

منذ ربع قرن، أطلق أرشيبالد ماكلايش Archibald McLeish صرخة تحذيرية ضدَّ مذهب الشكِّ لدى البشرية التي نظنُّ أنها انتصرت على الله؛ قال:

في العالم رعب، والفنون قد سمعت به كعاداتها. وراء
هدير الآلات العجيبة والمنشورات المتواصلة للفيزيائيين
اللامعين، صمتٌ ينتظر ويُصغي، كما أنَّه مسموع.

إنَّه صمت الإدراك. نحن لا نثق بزماننا، لأننا نحن مَنْ
صنع هذا الزمن، كما أنَّنا لا نثق بأنفسنا. قمنا بدور البطل،
وسيطرنا على الوحوش، وأنجزنا أعمالنا، وأصبحنا آلهة،
ونحن لا نثق بأنفسنا كآلهة، لأننا نعلم مَنْ نحن.

في سالف الأيام، حين كانت الآلهة غير ما هي عليه، لم تُخفنا
معرفتنا بأنفسنا. كانت الإلهة ألكتو Alecto وماغييرا Magaera وتيسوفون
Tisophone، تلاحق أناسًا مثل هتلر، وكانت الإلهة أثيناس Athenas
تستعيد الحقَّ. لكن الآن حين أصبحنا نحن آلهة أبقينا المعرفة لأنفسنا.
نحن مثل ذلك البطل اليوناني القديم الذي أدرك بعد أن انتهى من إنجاز
كلِّ أعماله أنَّه هو نفسه مَنْ قتل ابنه.^٥

هذه الكلمات تصف نتائج محاولة العيش بعيداً عن الله. لا يحقُّ لك
برجاء عتيد، سواء كان شخصياً أم كونياً.

الفصل السادس



بَحْثٌ فِيهِ الْمَعَانِي الْمَتَدْنِيَّةُ



والآن، نصل إلى معضلة الإلحاد الثالثة. حين يُفصل الفرد عن قانون أخلاقي منطقي، وعن وجود رجاء يتحقّق، فإنّه يُواجه وجودًا بشريًا خاليًا من أي معنى. إنّ العقل البشري الخام، قبل أن يُسجّل عليه شيء the tabula rasa، يكون جاهزًا لتقبّل أية لوحة جدارية، لأنّه كيف يمكن للمعاني المتناقضة أن تتنافس في حلبة من اللامنطق وعدم الرجاء؟ لقد رسم ستيفن جاي غولد Stephen Jay Gould الخطوة بكلّ وضوح إذ يقول:

لقد سكن الجنس البشري هذا الكوكب لمدة ٢٥٠,٠٠٠ سنة من تاريخ الحياة، والإنش الأخير من الميل الكوني. لقد استمرّ الكون بشكل جيّد بدوننا كلّ هذا الوقت إلّا في اللحظات الأخيرة من الوقت الأرضي، وهذه الحقيقة تجعل وجودنا يبدو كأنّه حادث ثانوي بدل أن يكون تنويجًا لخطّة مسبقة.

وفوق هذا كلّ، فإنّ الطرق التي أدّت إلى تطوّرنا كانت طرقًا ملتوية، غير محتملة، لا يمكن تكرارها ولا يمكن التكهّن بها على الإطلاق. التطوّر البشري ليس تطوّرًا عشوائيًا، بل هو منطقيّ ويمكن شرحه بالوقائع. لكن، أرجع فيلم الحياة السينمائي إلى فجر التاريخ وقم بالعملية مرّة ثانية، عندئذ لن تُدخل الجنس البشري مرّة ثانية إلى هذا العالم... لا نستطيع أن نقرأ معنى الحياة سلبًا في واقع الطبيعة. علينا أن نجد هذه الإجابات بأنفسنا، بحكمتنا الخاصة وحسّنا الأخلاقي.^١

هذه عبارات قويّة، ولا يمكن أن نشكّ من موقف البروفيسور جولد في هذا الموضوع: في الواقع، هو يقول: «نحن موجودون هنا بالصدفة... ليس لنا معنى جوهري... علينا أن نبني هذه الإجابات بأنفسنا... لا يوجد أي طريقة أخرى.» من الواضح أن ليس كلّ المفكرين الناقدين أمثاله متفقين معه. بالنسبة إلى هذا الموضوع، ليس كلّ الأشخاص الموافقين على نظرية النشوء والتطور متفقين معه. وبالنسبة إلى جولد، ومن لفّ لفّه، من الواضح أنّه يجب أن يحيا الإنسان حياته من دون الله. استقراره الفلسفية ليست مجرد تأملات معتدلة، إنّما هي فلسفة عدوانية يريد نشرها. وقد أظهرت خطبته العنيفة ضد فيليب جونسون Philip Johnson، بروفيسور الفلسفة في جامعة باركلي Berkeley، غضبه كردة فعل على كلّ من يحاول أن يتحدّى التزامه وهوسه بمعتقد التطور والنشوء الإلحاديّ.^٢

لكن يوجد على الأقلّ أمر واحد يتفق حوله الملحدون والمؤمنون بوجود الله، وهو أنّه مهما كانت نقطة الإنطلاق، علينا جميعنا أن نحاول الإجابة عن السؤال المتعلّق بمعنى الحياة. فبالنسبة إلى الفلسفة التي تدعو إلى الحياة من دون الله، هناك وفرة من الخيارات، وعلى كلّ فلسفة، بحكم الضرورة، أن تتخلّى عن حقّها في الحكم على خيار الآخر. أمّا بالنسبة إلى الفلسفة التي تتبنّى وجود الله، فتصبح الحياة مُسيرة بمفاهيم ومبادئ توحّيها شخصيّة الله ومقاصده.

من بين أكثر العبارات التي يكرّرها الذين وصلوا إلى قِمة النجاح، تلك التي تتحدّث عن الفراغ الذي ما زال يملأ حياتهم على الرغم من كلّ نجاحاتهم. هذا النوع من الاعتراف هو على الأقلّ أحد الأسباب الذي يجعل من السؤال عن المعنى سؤالاً جوهرياً في الحياة. فبالنسبة إلى كثيرين من الناس، خاصة في الدول الغنية بمؤسساتها، فإنّ رفع مستوى المعيشة هو الأمر الذي يعطي معنى لحياتهم حتى لو تتطلّب الأمر أن يموتوا من أجل الوصول إلى هذا الهدف، على الرغم من أنّ أحداً منهم لا يحب أن يقرّ بذلك. لكن حين نسمع ملاحظات بعض الذين وصلوا إلى مستوى معيشي

أفضل، نكتشف أنهم غالباً ما يعبرون عن خيبة أملهم. فها بوريس باكر Boris Becker الذي ربح مرةً ثانية مباريات ويمبلدون Wimbledon في كرة المضرب، فاجأ العالم حين صرَّح أنه يصارع بشدّة مع الانتحار.^٣ أمّا جاك هيكنز Jack Higgins المؤلّف الشهير لكتاب *The Eagle Has Landed*، فقد صرَّح بأنّ الأمر الواحد الذي تمنّاه بعد أن وصل إلى ذلك المركز السامي في وظيفته، هو لو أنّه كان يعلم منذ أن كان ولدًا صغيراً أنه: «حين تصل إلى القمّة لن تجد فيها شيئاً.»

اسمحوا لي وبكلّ جرأة أن أقترح عليكم أنّ هذا الأمر هو أحد أصعب الأمور التي يمكن تقبّلها في حقائق الحياة. إنّ الذين لم يختبروا بعد النجاح الذي طالما اشتبهوا أن يصلوا إليه، يجدون أنّه من الصعب أن يصدّقوا أنّ الذين اختبروا النجاح لم يجدوا معنى لحياتهم. فالقوّة المحركة الكامنة وراء الإزدهار الذي نختبره في حقل التسويق وسيادة التكنولوجيا (أستخدم هنا العبارة نفسها التي استخدمها نايل پوستمان Neil Postman) تجعلنا ننتهي أموراً جديدة لكي ننسى ما هو قديم. إن لم يُقدّم لنا دولا ب الحظ شيئاً، نحول انتباهنا نحو الخداع والافتتان الذي فينا لكي نصبح موضوع التملق الفنّي. هذا السعي الفائق السرعة بين الغنى والشهرة يتفاقم باتّساع إغراءاته لكلّ الأعمار، حتى إنّ الشباب يجدون أنفسهم مجبرين بأن يكتشفوا أنّ الوصول إلى قِمّة الشهرة مُكلف. قد يستطيع الإنسان الراشد أن يواجه خدعة الصورة التشكيلية كونها سريالية (فوق واقعيّة) ومؤلّفة. لكن هذا يختلف تماماً حين نرمي بكلّ ذلك على يافع لم يتعلّم بعد أن يميّز بين الواقع والخيال. فكثيرون من الممثّلين القاصرين وقعوا في فخّ المنحدر الذي يؤدّي إلى الدمار الذاتي. كم من البشر سيتلاعب بهم شارع ماديسون Madison Avenue قبل الإقرار بالخدعة التي لا ترحم. إنّ البحث عن الاكتفاء لا ينتهي أبداً لأنّ علاج الملل يحتاج إلى شيء أسمى.

يؤكد إرنست فان دان هاغ Ernest Van den Haag هذا الشره الذي يبدو أنه شره مستمر عبر كل الخطوط الديمغرافية؛ قال:

مع أن الإنسان الذي يشعر بالملل يتمنى أن تحدث في حياته أمور معينة، فإنه لا شعورياً يُفرغها من المعنى ذاته الذي يتمنى أن يحصل عليه حين يعتبرها أحداثاً للتسلية. وحتى المجيء الثاني، قد يصبح في الثقافة الشعبية أمراً مُملاً على شاشة التلفزيون، إلى أن يُطلّ ميلتون بارلي Milton Berle. لا يوجد أية تسلية قادرة على معالجة الملل أو شفائه، كما أن الانضمام إلى مجموعة من الرفاق لن يقدر أن يشفي الوحدة. فالرجل الذي يشعر بالملل هو وحيد مع نفسه، وليس وحيداً لأنه بعيد عن الآخرين، كما يعتقد. إنه يفتقر إلى الشخصية الفردية، أي القدرة على الاختبار المحروم منه، ولا يمكن لأية تسلية أن تصلح هذا. وهكذا يبقى متعباً وجائعاً.

من الجلي أن المشكلة أصعب من أن تعالجها بعض الاختراعات الحديثة، أو بعض الحلول البسيطة. (لقد توصلنا حتى إلى حقائق مصطنعة، تمحو تدريجياً الخيط الذي يفصل بين الصواب والخطأ، وبين الواقعي والخيالي، وهذا يجعل الحياة متناقضة في نهاية الأمر). لقد تطرق المفكرون من كل نوع ولون إلى هذه المشكلة. شرح فولتير Voltaire دائرة الحياة كما رآها: من الرجل إلى الدودة، كل واحد منهما يؤدي دوره، فإما أن يكون مفترساً وإما فريسة، مكملين دورة الحياة ومآسيهما للمنفعة العامة. لكن، في كل هذا، يبقى الإنسان غريباً عن أبحاثه الخاصة.

ماذا كانت نتيجة بحثنا المستمر عن معنى للحياة بعيداً عن الله؟ إما الواقعية، أي أن تفعل ما يناسب (وهي فلسفة تخصصنا فيها نحن في أمريكا)، وإما شكل من أشكال التصوف الذي يقوم بتهريب الأمور الروحانية إلينا بعد دقائق قليلة نقضيها في عزلة شخصية تجهزنا

للدخول في انشغالات الحياة. هل يُعقل أنه حين يرتبط الألم بالمفاهيم الأخلاقية، يزيد من المعضلة الأخلاقية، حتى إنّ صراعنا المولم عندما نبحث عن معنى للحياة يعكس عظمتنا؟ هل نحن رهينة للحتمية المادية التي تدفعنا إلى الأمام بواسطة الحساء العضوي، أم نحن هنا بمشيئة مصمم بارع؟

إنّ العيش من دون الله، وتبني الخيار الأول، يضعنا أمام عائق لا يمكن تخطّيه. لقد عبّر لي أياكوكا Lee Iacocca عن هذه الآفة البشرية بشكل جيّد في كتابه بعنوان «حديث مباشر» *Straight Talk*: «ها أنذا واقف في فجر سني حياتي، وما زلت أتساءل ما الهدف من كلّ هذا... أستطيع أن أقول لكم التالي، إنّ الشهرة والثراء للعصافير.»

٩ أصوات غير متناغمة

دعوني أنهي هذا الفصل باقتباس بعض وجهات النظر الصريحة التي تمثّل مناهج مختلفة في البحث عن حلّ لمشكلة إيجاد معنى للحياة.

لقد أشرت سابقاً إلى نشرة في مجلة *Life Magazine* حول بحث الإنسان عن معنى للحياة. ففي هذه النشرة كلمات وصور مذهلة، من فلاسفة إلى مدمنين على المخدرات، ومن رسامين إلى سمكريين. إنّ الحجج (أو ربما يجب أن أقول، إنّ التناقضات) التي بين أيدينا في حاجة إلى ساعات لنقرأها، وقراءتها شبيهة بلوحة عاطفية تدور بنا وتهزّنا بسرعة. أقدم مثلاً على ذلك، مبتدئاً بخوسيه مارتينيز José Martinez، وهو سائق سيارة أجرة، يعبر عن فلسفته العدمية:

نحن هنا لكي نموت، لكي نحيا ثمّ نموت. سيارة الأجرة هي مصدر رزقي. أصطاد السمك أحياناً، وأخرج مع صديقتي، وأدفع الضرائب المتوجّبة عليّ، وأقرأ قليلاً ثمّ أستاذ للألأقي

حتفي. عليك أن تتشدد في هذا الموضوع لأن الحياة خدعة كبيرة. لا أحد يكثر لك. إما أن تكون غنياً وإما معدماً. أنت موجود الآن ولن تكون موجوداً في ما بعد. أنت كالريح، بعد أن تختفي، سيظهر أناس آخرون. لقد فات الأوان لكي تصلح الأمور. سئم الجميع ولا يمكن أن يؤمنوا بأي شيء بعد الآن. ليس هناك ما يدعو للفخر. الناس غير خائفين. هم غير قلقين. يهتمون بأمر واحد وحيد وهو المال. سندمر أنفسنا ولن نستطيع أن نفعل شيئاً بالمقابل. العلاج الوحيد لآفة هذا العالم هو الحرب النووية؛ نمحو كل شيء ونبدأ من جديد. لقد أصبحنا كحيوان مُلاحق وجد نفسه في زاوية، وهو الآن يحارب لكي يبقى حياً. لا معنى للحياة.^٦

رايموند سموليان Raymond Smullyan، عالم متخصص بالرياضيات المنطقية، يعبر عن الأمر نفسه بتحد:

لقد كنت دائماً متحيراً من الذين يدعون أنه إن لم يكن الله موجوداً، فلا معنى للحياة. هل يوجد أدنى دليل على أن الشخص العلماني ذات الفلسفة الإنسانية يجد الحياة أقل معنى من المؤمنين المتدينين؟ أنا لا أقول إنه يوجد إله أو لا يوجد إله، بل كل ما أقوله هو أن للحياة معنى عظيماً عند الذين يعيشون الحياة إلى أبعد الحدود، سواء كانت هذه الحياة مع الله أو من دونه.

لا أقدر هنا إلا أن أفكر في بيت شعري من قصائد الهايكو Haiku الياباني الذي يقول: «بصرف النظر عن ديانتنا، ففي الحياة براعم الخوخ وبراعم الكرز».^٧

من السخرية بمكان أن يكون مصدر رزق سموليان يعتمد على صناعة الصُور المقطعة إلى أجزاء صغيرة puzzles. أنا أفترض أنه يوجد حل لهذه

الصُّورَ، وإلاّ، فلا بأس أن نعيد تقطيع هذه الأجزاء لكي تناسب كل فرد. ما الفرق إذا ما دام الإنسان يستمتع بما يفعل؟ ولا تسألوا سموليان إن كان ينبغي إيجاد حل أخلاقي للصراع في البوسنة أو للعنصرية. استمروا في زراعة شجر الكرز وشجر التفاح لكي يستمتع بها كل المحاربين في طريقهم إلى القبر. يبدو من الغريب جداً قراءة نقد ساخر كهذا، للأفكار المطروحة حول معنى الحياة. أنا أتصوّر أنّ نكران معنى الحياة قد أظهر بطريقة «معبرة».

لن أقدم تحليلاً فورياً لنمط تفكير سموليان، إلاّ أنني سأكتفي بالقول إنّ ما قاله لا يمكن الدفاع عنه في عالم واقعه الصراع الأخلاقي والسياسي والاجتماعي. إنه برج مرتفع من النحاس الفارغ من أي معنى يصرخ في وجهه دم البشرية قائلاً: «ارحمني».

في المقابل، نجد أنّ ما قاله أندراي بيتوف Andrei Bitov، الروائي السوفيّاتي وكاتب القصص القصيرة، يتولّد منه أسئلة قويّة أيضاً. إنه يصف أولاً لأدريّته، ثمّ ينتقل بشكل دراماتيكي معبراً عن هذه المشاعر:

حين كنت في السابعة والعشرين من عمري، وفيما كنت مُستقلاً قطار الأنفاق في لينينغراد Leningrad، تملّكني شعورٌ غريبٌ من اليأس، حتّى إنّي شعرت بأنّ الحياة توقّفت فجأةً واستولت كلياً على المستقبل، حتّى بات بلا معنى. فجأةً، ظهرت عبارة من تلقاء نفسها: الحياة من دون الله بلا معنى. كرّرت العبارة بذهول وكأنّها حملتني على درج متحرّك وأخرجتني من القطار إلى نور الله، وأكملت حياتي.

الإيمان هو الحقيقة الوحيدة، وهو أكثر الهبات ندرةً. والمبالغة من دون الإيمان خطيرة سواء أدرك الإنسان وجود الله أو أنكره. فإن أدرك الإنسان وجود الله، لكن أساء

تفسيره، فإنه ينتهي في أحضان الوثنية، عابداً العشوائية والخصوصية في آن واحد. أمّا إن أنكر الإنسان وجود الله، فبكل تأكيد سيحوّل الخاص إلى عام، والعشوائي إلى عادي، ويصبح أسير منطق الإنكار.^٨

إنّ تحذير بيتوف تحذير مناسب. فمن جهة، إن أنكر الإنسان الله، يصل نتيجة لذلك إلى مبالغة وتشويش للعشوائية والخصوصية، كما يوجد كلفة عالية لفقدان الهدف والأمور المعيارية. أعتقد أنّ هذه منطقة عمياء أخرى في الإلحاد. من جهة أخرى، يستخدم بيتوف كلمتين بارزتين. ماذا يعني بالكلمة إيمان والكلمة الله؟ إن قدّم تعريفًا واضحًا ومناسبًا لهاتين الكلمتين، فإنه بالتالي لا يتكلّم عن سذاجة، بل يعرض إجابة ذات قيمة متناهية. هذا هو التحديّ الموضوع أمامنا فيما ننتقل إلى القسم الثاني من هذا الكتاب والذي يعيدني إلى المكان الذي بدأت فيه:

هل رجاؤنا في قشور الجوز

ملتفةً حول الأعناق وهي تقرع كأجراس الهياكل؟

أم أنّه داخل جدران الأديرة

حيث يصلي أناس مُرتدين قلنسوة ورداء؟

أم أنها على رفوف مغبرة،

أم أنها في النجوم،

أم أنها فينا،

من سيقودني إلى الحقيقة؟^٩

عندما نحاول أن نحيا من دون الله، تعيدنا الأجوبة حول الأخلاق والرجاء ومعنى الحياة إلى عالمنا الخاص، لكي نقدّم إجابات فردية. مهما كانت الطريقة التي تقرّر أن تحيا حياتك من دون الله، فالحياة من دونه شبيهة بتعليقنا أنفسنا من أحذيتنا، طبعًا بالمعنى الخيالي. ففي

عالم حيث الحضارات تختلط بعضها ببعض، نعتقد أن التطور يحدث عندما نجد قاسماً مشتركاً حول مواضيع تتعلق «بالأمور الخارقة». ومع هذا، فكلاً اقتربنا من بعضنا، بدت لنا عوالمنا الداخلية بعيدة.

هل تسمحون لي أن أضيف إلى هذا فكرة موجزة؟ الحياة من دون الله لا تخلق توتراً هائلاً في الأخلاق والرجاء ومعنى الحياة فحسب، بل سيكون هناك التزام مطلق لفلسفة جوهر الحياة والمصير التي، إن تبين أنها فلسفة خاطئة، لن يكون تغييرها ممكناً. هذه هي درجة الإيمان المطلوبة من الإنسان الذي يتبنى نمط حياة إلحادياً. برتران راسل Bertrand Russell وآخرون غيره افتخروا بما يقولونه الله إن تفاجأوا والتقوه بعد الموت. لكن أعتقد أن هذه الكلمات البارزة تدهشنا أكثر مما تدهش الله، وصوتها في الأذان أخف وطأة الآن، مما ستكون عليه في ذلك اليوم.

هل يستطيع الإنسان أن يحيا من دون الله؟ طبعاً يستطيع، من الناحية الجسدية. هل يستطيع أن يحيا من دون الله بطريقة معقولة؟ الجواب عن هذا السؤال هو لا! لأنه ينبغي لهذا الإنسان إذ ذاك أن ينكر القانون الأخلاقي، وأن يفقد الرجاء والمعنى، وأن لا يقدر أن يعود إلى الوراء لكي يغير حياته إن اكتشف لاحقاً أنه على خطأ. إن الحياة تقدم لنا براهين كثيرة عن وجود الله.

لا ناموس ولا رجاء ولا معنى خارج المسيح. أنت وحدك تعرف هذه الحياة وتحدد أساسياتها. وأنت وحدك تضع قانونك الأخلاقي. وأنت وحدك تصنع معنى لحياتك، وأنت وحدك تُخاطر بكل ما لديك على أساس الرجاء الذي تصبو إليه. وكما قال أحد الساخرين مرة: «نحن جميعنا في هذا الأمر، وحدنا». وستكون قد اتخذت أعظم قرار في الحياة، وقامت بأعظم شيء، وأجبت عن أعظم سؤال في عصرنا، إن اخترت أن تحيا من دون الله.

● ————— هل يستطيع الإنسان أن يحيا من دون الله؟ —————

إنَّ الفوارق جليّة الوضوح. والأجوبة مختلفة كلّ الاختلاف. فأنت تقوم بالإمتحانات لاكتشاف الحقيقة لكي تقوّم الأسباب التي أوصلتك إلى استنتاجاتك. هل يمكن أن يكون للحياة أي معنى؟ إنه لأمرٌ جدير بأن يستقطب انتباهنا.



القسم الثاني

ما الذي يُعطيه للحياة معناه

الفصل السابع



علم المعرفة وفن الحياة



غالبًا ما يسألونني، مَنْ أنا؟

سأخرج من سجنني

بهدوء، بفرح، بثبات،

كإقطاعي من منزله الريفي.

غالبًا ما يسألونني، من أنا؟

سأكلّم سجّانيّ

بحرية، بمحبة، بوضوح،

كأنّي أنا مَنْ يعطي الأوامر.

أيضا يسألونني، من أنا؟

سأتحملّ أيام الشؤم

برصانة، بابتسامة، بفخر،

كشخص اعتاد الانتصار.

هل أنا حقًا ما يقوله الناس عني؟

أم هل أنا فقط ما أعرفه عن نفسي،

قلق، متلهّف ومريض، كعصفور في قفص،

أكافح لأستنشق الهواء، كأنّي أشعر بيدَيْن

تضغطان على حنجرتي،

أتوق إلى الألوان، والزهور، وإلى أصوات العصافير،
متعطّش إلى سماع كلمات لطيفة، وإلى جيرة حسنة،
أرتجف غضبًا جرّاء الاستبداد والذلّ،
أقلّب متوقّعًا أحداثًا عظيمة،
أرتجف بضعف خوفًا على أصدقاء لي بعيدين عني،
مُتعبٌ، لا رغبة لي في الصلاة أو التفكير أو الإبداع،
مُنْهَكٌ، ومستعد أن أودّع الكلّ؟

مَن أنا؟ هذا أم ذاك؟

هل أنا هذا الإنسان اليوم، وغداً إنسانٌ آخر؟
هل أنا الإثنين في آن؟ منافق أمام الجميع،
وأمام نفسي مَكروبٌ ضعيفٌ محتقر؟
أم هل في داخلي ما يشبه الجيش المهزوم،
الهارب والمضطرب بعد هزيمة نكراء؟^١

كتب ديتريش بونهوفر Dietrich Bonhoeffer هذه الكلمات فيما كان في سجن النازيين. لا يستطيع أي قارئ أن يتجاهل العاطفة والمشاعر الفياضة التي تعبّر ببلاغة عن البحث عن إجابة تقدر أن تعطي معنى للحياة وتقلّباتها. قال مرّة شخص آخر كان يمرّ في الظروف نفسها إنّه قادر أن يتحمّل أسئلة تبدأ بـ «ماذا» عن الحياة إن كان قادرًا أن يجيب عنها بالكلمة «لماذا». يُنهي ستيفن هاوكينغ Stephen Hawking كتابه الأكثر مبيعًا «موجز تاريخ الزمن» *A Brief History of Time* بهذه الكلمات بعد أن شرح الأسئلة التي تبدأ بالكلمة «ماذا» وحتى الأسئلة التي تبدأ بـ «كيف» والمتعلّقة بهذا الكون: «إن كنا نعرف لماذا، سيكون لنا فكر الله.»^٢ ما يتضمّن هذا الكلام الذي لا مفرّ منه هو أنّ الإجابة عن هذا

السؤال الأخير يجب أن تصدر عن عقل يتخطى عالمنا الماديّ. فالإجابة عن سؤال «ماذا» تعطينا مادة الوجود، والإجابة عن سؤال «لماذا» تقدّم المادة اللاصقة لكلّ ما نحيا له، وفي المقام الأول، تقدّم التفسير الأعظم لسبب وجودنا هنا.

كما هي الحال بالنسبة إلى الأسئلة الكثيرة الصعبة حول الحياة، من السهل إقحام أجوبة متشعّبة، لصرف النظر عن الأجوبة الصحيحة. فالسؤال «ماذا» والسؤال «لماذا» عن الحياة مرتبطان بطريقة لا يمكن الفصل بينهما في الافتراضات الموجودة عند كلّ إنسان. هكذا يجب أن تكون الحال. حين يحصل الفرد على إجابة عن الأسئلة التي تبدأ بالسؤال «لماذا» حول الحياة، عندئذٍ فقط يستطيع أن يحدّد الإجابة عن الأسئلة التي تبدأ بالسؤال «ماذا» حول الحياة. إن كان الله قد خلقني، فيجب أن أعتبر حياتي مقدّسة. لكن، إن كنت ناتجاً عن محض صدفة، يمكن بالتالي تدنيس الجسد، لأنّ الحياة نفسها ستنتهي. إذًا، هذان الوجهان، السؤالان «ماذا» و«لماذا»، مرتبطان منذ أيام الغنوسيين القديمة حتى أيام الساعين وراء المتعة في عصرنا الحديث. العنصران لا ينفصلان حين نعالج هذا الموضوع المطروح أمامنا: ما الذي يعطي الحياة معناها.

يجب أن أذكر في مستهلّ حديثي أنّه قبل أن نجد حلاً لهذا البحث حول معنى الحياة، علينا أولاً أن ندقّق بجديّة في السؤال نفسه. تخيلوا معي كم سيكون كلامنا عقيمًا حين نعالج موضوع معنى الحياة، إن كانت معالم السؤال نفسه غير واضحة ومبهمّة.

يطفو موضوع «ما الذي يعطي الحياة معناها» في كلّ جيل وفي كلّ حياة، وغالبًا ما يُناقش خلال محادثات غير رسمية وخلال العروض الفلسفية الرسمية. أجرب بين الحين والآخر أن أسأل المتكلّم الأكاديمي ماذا يقصد، أو ماذا تقصد بعبارة «لقد وجدت معنى الحياة». هل يوجد

مقياس مُتَّفَق عليه نقدر جميعنا على أساسه أن نهتف: «وجدتها؟» أم أنه قد حُتِم علينا أن نتمرَّغ في مقاييس حضارية نسبية، حيث النقطة المرجعية في تغيّر دائم، وحيث يُحوّل المعنى إلى الشعور بالسعادة، أو إلى الشعور الذي ينتاب الإنسان في لحظة معيّنة من حياته؟ للأسف، عند أي استعراض للمعنى، غالبًا ما يُحطّ من شأنه، وإلا لماذا تُعتبر أمة كأمّتنا أنّ السعي وراء السعادة هو أمر أساسي لكي تستمرّ في الوجود؟

أوضح أستاذ لي مرّة بشكل خلاق المواقف الفلسفية المتنوّعة حول هذا الموضوع حين قارن بين تفكير عالمين وجوديين، جان پول سارتر Jean-Paul Sartre ومارتن هايدغر Martin Heidegger. قال لي، بالنسبة إلى هايدغر، يمكن التعبير عن معنى الحياة حين نقول: «أنا أعلم أننا جميعنا على هذه السفينة، وأن السفينة تغرق. لكنني سأقف على ظهر السفينة وألقي تحية لأنني هكذا سأبدو بشكل أفضل.» من جهة أخرى، يقول سارتر: «لا، لا، لا، أنا أعلم أنّ السفينة تغرق، لكن دعونا ننزل إلى أسفل قسم في السفينة لكي نلعب آخر لعبة بوكر. على الأقل نستطيع أن نستمتع بالحياة بينما تغرق السفينة.» يعرف الفلاسفة جيّدًا كيف أنّ فلسفة هايدغر قاداته حتى إلى تأييد النظام النازي، أما سارتر، فقد صدم الجميع حين تنصّل، وهو على فراش الموت، من الخيار الذي عاش على أساسه.³

نتقلّب نحن بالطريقة نفسها بين كآبة الرواقية وانغماس الأبيقوريين، وبالتالي، إمّا نحافظ على حزم متجهّم في وجه اليأس، وإمّا نغمس في مباحج الحياة بلا قيد أو رقيب، عالمين أنّ كلّ شيء زاهب إلى العدم. هكذا هي الحالة العامة في أيامنا، وهي تذكّرني بكتاب إثلبرت ستوفر Ethelbert Stauffer بعنوان «المسيح والقياصرة» *Christ and the Caesars*، حيث قارن بين الإدمان على الابتهاج في روما، وتأثير جذور نبتة مرّة، وهي نبتة سامّة كانت تُجبر المصاب بها أن يبتسم قبل أن يموت.

٩ معرفة المخطوطة

إنَّ اسم مايكل پولانيي Michael Polanyi مألوف لدى أي طالب علوم أو فلسفة. فهو عضو في المجتمع الملكي في إنكلترا، وكان يعلم الكيمياء الفيزيائية والعلوم الاجتماعية في جامعة مانشستر Manchester، وكان أيضًا عضوًا في جامعة مارتون Merton College في أوكسفورد Oxford. كان يتمتعُ بذكاءٍ حادٍّ، وقد ألَّفَ بعض الكتب الرائعة ضمن حقل خبرته، خاصة في حقل نظرية المعرفة، وهو فرع من فروع الفلسفة التي تعالج موضوع طبيعة المعرفة وأساسها. ناقش پولانيي بقوة في كتابه «المعنى» Meaning بأنَّ العلم هو شكل قياسي من المعرفة، وبأنَّ المجتمع يُعطي معنى للعلم، وليس العلم يعطي معنى للمجتمع. وقد حذَّر بقوله، إنَّ أسوء تطبيق العلم، فسيسُكِّل خطرًا على الحياة ويدمرها، بدل أن يطوِّرها. قال پولانيي إنَّ الدِّين والشَّعر والفن ما هي إلَّا ضوابط تبتُّ معنى في الوجود، وليس العلم. والأكثر تشويقًا، هو أنَّ فيلسوف العلم هذا، يؤكِّد أنَّ الخيال هو الذي يركَّب ويلصق عناصر الحياة ولولاه لكانت الحياة فوضوية ومتباينة.

أنا أتكلَّم عن پولانيي وانتقاداته اللانعة للعلم في هذه المرحلة، لأنَّ العالم هو الذي ستزعجه الطريقة التي نستخدم بها الخيال خلال المراحل الأولى من هذا النقاش. من الطبيعي أن تكون قاعدة المعرفة أو الحقيقة مؤسَّسة على أساس راسخ، كما فعلت في القسم السابق، وكما سأفعل أيضًا بإيجاز في القسم الأخير من هذه المناقشة. لكن أريد الآن أن أقلب العملية. أنا أنصحكم بشدة، أن تقرأوا كتاب پولانيي وحجَّته المفحمة، بأنَّه يوجد الكثير من الدلالات حول الواقع خارج المختبر العلمي.

ثمَّة كلمة تحذير منه تتطلب منَّا انتباهًا تامًّا قبل أن ننتقل إلى لبِّ الموضوع.

يوافق المثقف على تقليص العالم إلى عناصره الذرية التي تعمل على نحو أعمى من حيث توازن القوى، وقد سادت هذه الموافقة تدريجياً منذ ولادة العلم الحديث، جاعلة من أي نظرية غائية للكون أن تبدو لنا غير علمية وخيالية. هذه الموافقة، أكثر من أي عامل ثقافي آخر، جعلت العلم والدين في جبهتين متعارضتين في الفكر المعاصر.

يقول پولاني إنّه عندما يقلص العلم كلّ الحياة إلى عناصرها الذرية وقواها العمياء، يجعل من السعي وراء معنى للحياة سعياً بلا معنى. لكنه يحذّر أنّه ليس من شأن العلم أن يحكم في هذا الأمر أو أن يضع هدفاً للحياة. لا يمكن إنكار قلق پولاني فيما ننظر في هذا الموضوع. يبدو أنّ مجتمعنا العنيد الساعي وراء المادة، والذي يعيش من خلال نظرة علمية أحادية، مصمّم على العيش تحت وهم كون العلم وحده هو الألوهة الكاملة، القادرة أن تخلصنا من كلّ علّة. إنّ بطلنا الجديد في الحلبة الذي أسقط الله بضربة عشوائية. لا يمكن لأي فهم شرعي للضوابط أن يصل بطريقة منطقية إلى نتيجة كهذه، لا يمكن الدفاع عنها. حين تُكشف الأطراف الحادة للواقع، من الطفولة إلى الرشد، تكثر الأسئلة التي تبدأ بالسؤال «لماذا» عن الحياة، وتُسكت الصوت العلمي وتبتتر العقل الفلسفي.

إنّ التحدي الموضوع أمامنا هو أن نجيب عن السؤال الكبير المتعلق بالهدف من الحياة، والذي بدوره يتناول الأسئلة التي تبدأ بـ«لماذا» و«ماذا» حول موضوع أن نحيا حياة ذات معنى. تأملوا للحظة، في تصريحين عميقين جداً، يقرآن بفراغ في الحياة متفشّ وموجود في كلّ مكان، عنيت به الوحدة، على الرغم من كلّ التقدّم في المعرفة. التصريح الأول مأخوذ من د. هـ. لورنس D.H. Lawrence:

نريد أن نخدع أنفسنا بأنّ الحبّ هو أصل مشكلة الفراغ.
لكنني أقول إنّّه ليس كذلك. فالحبّ هو الأغصان، وأصل

المشكلة هو أعمق من ذلك. إنه العزلة العارية. إنه الأنا المنعزلة التي لا تلتقي الآخرين، ولا تختلط بهم، ولن يمكنها أن تفعل ذلك أبدًا. ما أقوله صحيح. يوجد في داخلك وفي داخلي ما هو أبعد وأعمق من الحب، وهو أبعد من النجوم. كما أن بعض النجوم بعيدة عن مدى رؤيتنا، هكذا يأخذنا بحثنا إلى ما وراء مدى الحب. على الأقل، أعتقد أن في الأصل ما هو أبعد من الحب نفسه.^٥

يقول ثوماس وولف Thomas Wolfe معبرًا عن المشاعر نفسها:

تستند كل قناعاتي في الحياة إلى الإيمان بأنّ الشعور بالوحدة، هو واقع لا مفرّ منه في الوجود البشري، وهو أبعد من أن يكون مجرد ظاهرة نادرة وغريبة تخصني وتخصّ قليلين مثلي من الذين يشعرون بالوحدة. على الشخص الذي يشعر بالوحدة أن يختبر كلّ هذا الشكّ الفظيع، واليأس، والتشويش المظلم للنفس، لأنّه لم يتّحد بأي صورة إلا تلك التي ابتكرها عن نفسه. ولا تدعمه أي معرفة إلا تلك التي جمعها عن نفسه من خلال ما رآته عيناه واختبره عقله. لا يدعمه ولا يشجعه ولا يساعده أي فريق. لا تعزيه أي عقيدة. لا يؤمن بأحد إلا بنفسه، وأحيانًا يتخلّى عنه هذا الإيمان، ويتركه مترنّحًا وعاجزًا. ثم يبدو له بأنّ الحياة قد أودت به إلى لا شيء. يشعر أنّه قد تدمّر، وضاع، ولا يمكن أن يُصلحه أي شيء، وأنّ ذلك الصباح، بنوره الساطع ووعده ببدايات جديدة، لن يُشرق على الأرض ثانية كما كان يُشرق كلّ يوم.^٦

يُظهر ثوماس وولف بكلماته القليلة، خلال حياته القصيرة التي استمرت ٣٨ سنة، مزاجًا سيطر على جزء كبير من الكتب الأدبية. لا

أستطيع إلا أن أقحم هنا المشاعر نفسها التي عبر عنها برتران راسل Bertrand Russell، حين طبع بصمته الخاصة على هذا الواقع. خلاصة راسل أن الموقف الوحيد المنطقي تجاه الحياة هو اليأس المستمر، وأن أي موقف غير موقف اليأس هو مجرد إغواء للعقل. الرسالة واضحة: فالأجوبة البسيطة التي تسعى كي تهرب من هذا المرض عبر اعتبار «المحبة» حلاً هي أجوبة لا تفهم السؤال. إن الصراع لإيجاد معنى، هو صراع معقد جداً لحل فارغ كهذا. إن تعاملنا مع هذا الصراع لإيجاد معنى للحياة بذكاء قليل، يصبح العقل أسير براثن اليأس والعشوائية التي لا مفر منها.

قليلون هم الذين يعرفون أبعاد الأعراض الوبائية لليأس والعشوائية، بمن فيهم المستشارون المحترفون والخدام المسيحيون. اعتقدت، على مدى سنوات طويلة أن هذا الألم الناتج عن التخلي عن معنى الحياة، لا تشعر به إلا بعض الحضارات، إلا أنني اكتشفت أن الفرق لا يكمن في الحاجات المادية التي نشعر بها، إنما في الإرادة أو التكتم وعدم الكلام عنه. فمن الشرق الأوسط إلى الشرق الأقصى، ومن أوروبا إلى أمريكا، حين يُغلق الباب قد تختلف الكلمات، إلا أن المشاعر تبقى هي هي متطابقة تقريباً. اسمحوا لي أن أروي لكم قصة تكشف عمق واتساع الصراع البشري في بحثه عن المعنى؟

منذ عدة سنوات، وبينما كنت أتحدث في سلسلة من الاجتماعات، كانت سيدة مميزة تجلس كل ليلة في المقاعد الأمامية، غارقة تماماً في الموضوع الذي أناقشه، وكثيراً ما كانت تسجل ملاحظات، كلما كنت أتوسع في الموضوع. عند نهاية الأسبوع، دعيتني مع عائلتها لكي أتناول الغداء معهم في بيتهم. قيل لي إن مأساة فاجعة حلت بهم، ولم يهدأ قلبها إلا بعدما وجدت بعض الأجوبة. وعلى الرغم من أنني كنت قادراً أن أستنتج ما حدث معها، إلا أن التفاصيل التي سمعتها صعقتني.

تكلّمت بإسهاب عن زوجها وعن إنجازاته المهنية الكثيرة. فقد اكتسب شهرة بسبب ريادته في الحقل الذي كان يعمل فيه، وكان في ذروة النجاح على الصعيد المالي. باختصار، كان كلّ الذين يعرفونه يحترمونه ويحسدونه ويحبونه. كانت حياته، في البيت والعمل، تشير إلى اكتفائه ونجاحه وثرائه. فكيف ستكون قادرة على شرح أحداث تلك الليلة المصيرية؟

أخبرتني أنها سمعت في تلك الليلة صوتًا مفاجئًا ومروّعًا جعلها تصحو من نومها. استغرقتها لحظات قليلة لكي تعي ما كان يجري من حولها، ثم التفتت حولها فلاحظت أنّ زوجها ليس بجانبها. توجّهت بهلع نحو مصدر الصوت لترى زوجها مطروحًا على طاولة المطبخ وعلامات الموت بادية على وجهه، وتحت يده الممدودة ورقة مرمية بخط غير مقروء. ألقت نظرة سريعة على الورقة، ثم انهار عالمها. ومنذ تلك الليلة اجتاحت عقلها أسئلة لا تُعدّ ولا تحصى. كانت رسالة انتحار تبدأ بهذه الكلمات: «بعض الناس يموتون بشكل طبيعي، والآخرين غير القادرين على مواجهة الحياة ينهونها قبل أوانها.» وتابع معبرًا باستفاضة عن اعتذاره وأسفه طالبًا من عائلته أن تغفر له خيانتة هذه، مؤكّدًا لهم أنّه اهتم بكلّ احتياجاتهم المادية.

كنت أشعر بعبء ذلك الاختبار الرهيب الذي يفطر القلب، على الرغم من أنّ تلك المرأة كانت غريبة تمامًا عني. كانت تردّد هذه الكلمات باستمرار فيما كانت تروي قصّتها: «لا أستطيع أن أفهم. لماذا فعل هذا؟» كانت هذه صرخة يُرثى لها، صرخة زوجة تُخلّي عنها، وهي تشعر الآن بأنّها منبوذة أكثر من أي وقت مضى.

من الواضح أنني لم أكن قادرًا أن أجيّب لماذا حدث هذا، لكن دعوني أخبركم ما قلته لها. بالنسبة إلى الكثيرين في هذا العالم السريع الخطوات، اليأس ليس لحظة يمرّون بها، إنّما أصبح اليأس نمط حياة.

فالمحطات الخاطفة من الكآبة أو حتى فقدان الهدف، ليست محطات غير مألوفة، وكلنا نختبر لحظات كهذه في وقت ما من حياتنا. والمواقف المقبولة التي تعتبر الحياة خالية من أي هدف أساسي ومحرومة من المعنى، لا يمكن أن يُقال عنها إنها عقيدة مريحة ومعزية. ومع ذلك، هذه هي الخلاصة التي تطارد العقل الحديث بعناد، وليست مختلفة جداً عن حل هايدغر Heidegger، بأن «يقف على سطح السفينة ويلقي التحية» فيما تفرق.

قد تجدون أن المقاربة التي أستخدمها في تناولي هذا الصراع الأزلي لإيجاد المعنى، هي مقاربة غريبة. ومع ذلك، فقد اخترت أن أسير على هذا الدرب لكي أطرّق إلى بعض المواضيع التي لا نتطرّق إليها في الإطار الأكاديمي. إنسبوها إلى المنهجية الشرقيّة إن أردتم. أنا فقط أطلب منكم أن تصبروا وأن لا تنتقلوا إلى أي استنتاجات قبل أن أنتهي من عرض الحجّة بكلمها. أمّا إذا انتقلتم سريعاً إلى أي استنتاج في منتصف عرضي للنقطة، فلن تقدروا أن تروا الصورة التي أحاول أن أرسمها لكم.

لا أشك أبداً أن الموضوع يُلزمنا مجادلات فلسفية معقّدة، لكن في الوقت الراهن، دعونا نقاوم الإغراء الشديد لمساواة التأنق الكلامي بالحكمة. لا أستطيع أن أضمن لكم أن هذه المقاربة ستجيب عن كلّ الأسئلة التي تدور في أذهانكم، لكن سأفعل ما في وسعي لكي أصف المرصّ بشكل واضح، لكي يكون أمامنا نقاط مرجعية لا جدل حولها، يمكن على أساسها أن نمتحن الأجوبة.

أجريت بحثاً في أعمال بعض الشعراء الرومانسيين أمثال كوليرidge، وبلايك Blake، وشالي Shelley، وآخرين غيرهم في أثناء دراسة موجزة في جامعة كامبردج Cambridge University في إنكلترا. كنت مهتماً بهم لسببين: أولاً، أردت أن أفهم بشكل أفضل المنزلق التاريخي الذي أخذ الفكر الرومنسي من نشوة الحلم الخيالي الذي تخيلّه أفضل

هؤلاء الشعراء بعد الثورة الفرنسية، إلى الكآبة المظلمة واليأس في حروب نابوليون Napoleon. أنا أفكر، مثلاً، في نشوة روبرت ساوذي Robert Southey بعد الهجوم على قلعة الباستيل Bastille، وإعلانه أن «الإنسان قد وُلد من جديد.» طُرح هذا التفاؤل جانباً بوقاحة بعد سنوات قليلة. كنتُ أَسْأَل لماذا التاريخ مفعم بانحرافات دموية ودراماتيكية، من تطرّف إلى تطرّف آخر؟ هل كان مارتن لوثر Martin Luther صادقاً حين قال إنَّ التاريخ كرجل مخمور يترنّح من حائط إلى آخر، يُغْمى عليه بعد كلّ ضربة؟ هل إنَّ وصف تشارلز ديكنز Charles Dickens لأفضل الأوقات وأسوأها بديهي دائماً؟

السبب الثاني الذي جعلني أدرس الشعراء الرومنسيين، هو فهمهم للخيال، وأدراكهم لدوره في إبلاغ العقل استنتاجات الواقع. وهكذا أتحوّل الآن إلى الفنان، والشاعر، وإلى الرومنسي، لدراسة الأفكار التمهيدية في هذه الدراسة قبل أن أتحوّل إلى أفكار الفيلسوف الصارمة.

٥ سَحَبُ الستارة

دعونا نبدأ بالنظر إلى مقطع مألوف من مسرحية وليم شكسبير William Shakespeare بعنوان «كما تحبها» As You Like It:

كلّ الكون مسرح،
وكلّ الرجال والنساء مجرد ممثّلين:
يدخلون ثم يخرجون،
ورجل واحد يقوم بعدّة أدوار في وقته،
وأدواره تمرّ في سبعة مراحل. أولاً: الطفل،
يبكي ويتقيأ في أحضان الممرضة.
ثمّ تلميذ متأفّف، يحمل حقيبة،

ووجهه يشعّ نوراً، ويزحف كالحلزون
ناهباً مُكرهاً إلى المدرسة. ثمّ يصبح مُغرماً،
يتنهد كتثور، مردداً أغنية حزينة،
عن حاجبي عشيقته. ثمّ يصبح جندياً،
يقسم أقساماً غريبة، ملتجئاً كقطّ بريّ،
غيور على الشرف، سريع للخصام،
يسعى وراء الشهرة
حتى لو كانت في فوهة المدفع. ثمّ يصبح قاضياً،
بطنه كروي الشكل، سمين،
عيناه ثاقبتان، وذقنه مهذبة
مليء بالحكمة والأقوال المأثورة،
وهكذا يلعب دوره. في المرحلة السادسة ينتقل
إلى السروال الخفيف الهزيل،
نظارتان فوق أنفه، وحقيبة صغيرة في يده،
جواربه الباقية منذ شبابه لم تعد تناسبه بعد اليوم
وصوته الرجولي الكبير
يتحوّل إلى صوت طفولي، رفيع،
وهكذا تنتهي المرحلة التاريخية الغريبة،
طفولة جديدة، مجرد نسيان،
بلا أسنان، بلا بصر، بلا مذاق، بلا شيء.^٧

يقدم شكسبير هذه المراحل السبع لكي تمثل مراحل الحياة: الطفولة،
التلمذة، الغرام، متوسط العمر، الانحدار، الشيخوخة. ينتهي المشهد الأخير
بطريقة غريبة، تاريخ حافل، تُصبح الحياة بلا أسنان، بلا بصر، بلا مذاق،
بلا معنى.

قبل دخول وسائل الترفيه الإلكترونية وتحليلها للعلاقة بين الحياة والفن، تنبأ فيودور دوستويفسكي Fyodor Dostoevsky بأن الفن قلد الحياة أولاً، ثم الحياة قلدت الفن، وأخيراً، بدأت الحياة تعتبر الفن سبب وجودها. أعتقد أنه تكلم على نحو نبوي، وإن صدق شكسبير في تحليله، فقد محونا بالفعل الفرق بين مسرح الحياة والمسرح الدرامي. على الأقل سيطر المسرح على عالمنا الواقعي. يمكننا هنا أن نرى تلميحاً للأساطير الشرقية التي تعتبر أن «الآلهة» تلعب صراع الخير والشر من خلال البشر الفنانين.

دعونا نقسم الحياة إلى أربع مراحل: الطفولة، المراهقة، الشباب، النضج. ودعونا في هذا الإطار نكتشف في كل مرحلة من هذه المراحل، كيف نسعى وراء المعنى، وكيف نحصل عليه، وكيف نخسره أحياناً.

الفصل الثامن



رومانسية الإفتتان



المرحلة الأولى التي سنتأمل فيها هي عالم الطفل. أنا مدين بشدة لكتابات ج. ك. تشسترتون G. K. Chesterton، الذي أعلن من دون أي وجل أنّ ما تعلّمه عن الحياة خلال مراقبة الأطفال في الحضانة كان أكثر ممّا تعلّمه من تأملاته في كتب الفلاسفة. سنتغاضى عن مبالغته، لكن لن نتجرأ على التغاضي عن الدرس الذي نتعلّمه منها.

ماذا يُدهشنا في الطفل؟ والأهم من هذا، ما الذي يُدهش الطفل؟ الإجابة عن السؤالين هي هي. أليس هو ذلك الشعور بالدهشة الذي يعمّ الطفل حين يرى أو يختبر شيئاً؟ استمع إلى الآباء الأحداث أو الأمّهات الذين رزقوا للتوّ طفلاً بين أحضانهم وفي بيوتهم؛ فلقد أخذتهم الدهشة لمجرّد مشاهدة كتلة الحياة الجميلة هذه، والتي أغنت حياتهم بلا حدود.

دعوني أقصّ عليكم ما اختبرته وزوجتي منذ عدّة سنوات حين كنت أتكلّم في الشرق الأوسط. كانت الحالة السياسية في ذلك الوقت قد وصلت إلى نقطة الاشتعال. في الواقع، كانت الوفود الأجنبية إلى المنطقة تحاول صدّ أمواج الحقد على أمل أن تُدخل ما يُشبه السلام إلى تلك المنطقة المضطربة من العالم. كنا مسافرين في سيارة للأجرة من الأردن إلى فلسطين.

عندما وصلنا إلى أحد الجسور، خرجنا من سيارة الأجرة على الجانب الأردني، وسرنا بمساعدة الحمال الأردني إلى أن وصلنا إلى وسط الجسر، وهي النقطة الأخيرة التي يُسمح للأردنيين أن يصلوا إليها. التقانا هناك حملاً ثانياً فحمل حقائبنا ورافقنا إلى الجانب الآخر من الجسر. كانت

الخطوط مرسومة بشكل واضح. حين وطئنا الأرض الفلسطينية، أدخلنا مبنى للهجرة كان مراقباً مراقبة مشددة من أجل استجواب روتيني ودقيق قبل الحصول على تأشيرة سياحية. كنت واقفاً في أحد الخطوط مع زوجتي وابنتنا الصغيرة سارة Sarah، وكنا قد حُذِّرنا سابقاً بأن نتوقع صباحاً شاقاً ومرهقاً، وأن فترة الانتظار قد تطول.

أنا حقاً لم أعرف كيف أحضر ابنتي لهذا الاختبار، فهي لم تكن قد بلغت السنّتين من عمرها. كنا محاطين من كلّ جانب بجنود مدجّجين بالسلاح، وكانت نظراتهم إلينا توحى وكأنّنا اقتربنا ذنباً. كانت أكياس الرمل مكدّسة حول كلّ حائط في المبنى، وكان شعور بالقلق يغمر تلك القاعة.

أخيراً، وصل دورنا للاستجواب. لم أكن أعلم أن ابنتي سارة كانت تحدّق إلى أحد الجنود فيما كانت تجوب الغرفة بنظراتها، وكان ذلك الجندي يحدّق إليها وكأنه دخل معها في «معركة» عين ضد عين. فجأة وبشكل غريب، خيم صمت رهيب على القاعة، وكان صرير صوت ابنتي يحطم ذلك الصمت وهي تسأل الجندي: «عفواً، هل لديك علكة؟»

لا تستطيع الكلمات وحدها أن تعبّر لكم كيف أثر ذلك الصوت وذلك الطالب في كلّ شخص موجود في تلك القاعة، حيث الأسلحة الحربية وعالم «أفكار الراشدين البالغين» جعلت كلّ الناس تبقى على مسافة أمينة منهم. لم يستطع كلّ إنسان يعرف اللغة الإنكليزية إلّا أن يبتسم، وأدرك كلّ الذين لا يعرفون اللغة الإنكليزية أنّ قلب أحد الجنود قد تأثر، وكانت كلّ الأعين الآن شاخصة نحوه.

توقّف لحظة، ثمّ سلّم بندقيته بتؤدة وحذر إلى زميله. اقترب منا، ونظر إلى سارة ثمّ رفعها بين ذراعيه. أخذها إلى غرفة جانبية وعاد بعد دقائق قليلة يحملها بيد، وكان يحمل باليد الأخرى صينية عليها ثلاثة أكواب من عصير الليمون: كوباً لزوجتي، وكوباً لسارة وكوباً لي. دخلنا

مكتب الهجرة، ثم خرجنا منه خلال خمس وعشرين دقيقة. في الواقع، أحضر ذلك الجندي الشاب سيارة عسكرية، ونقلنا إلى موقف سيارات الأجرة، وانطلقنا من هناك إلى وجهتنا. اعذروني على هذه الكناية، لقد سقط حائط آخر. غالبًا ما كنت أقول إنَّ سارة كسبت معيشتها لعام آخر من خلال سؤال واحد بسيط طرحته في الوقت المناسب.

هذه هي قوّة الطفولة التي لا تُصدّق. لقد جمّدت الحرب للحظة عابرة في تلك القاعة. حقًا، هذه هي قوّة البراءة، أليس كذلك؟ جنديّ واحد على الأقل رأى شيئًا فيها؛ ربما رأى وجه طفله التي تنتظره في البيت، ثمَّ إنَّ المشاعر التي انتابته تخطّت عالمه الحربي المدجّج بالسلاح، والمليء بالحدق وانعدام الثقة. وجه جميل لفتاة عمرها سنتان جعلت ذلك الجندي قادرًا على أن يعلو فوق كلّ أجواء الشكّ، ولأجل حياة الطفولة والجمال الحقيقي، استطاع أن يتخلّى ولو للحظات عن كلّ مخاوفه. إنَّ قوّة تأثير تلك الطفلة كانت تكمن في حقيقة عدم إدراكها للقوة التي خرجت منها وللإنجاز الذي حقّقه.

لكن هل يكفي فقط أن ندرك قوة حياة شابة؟ أنا أرى جيّدًا الوجه الآخر لعالم الطفل الجميل، وجه السذاجة والبساطة. لكن، إن اندفعنا بسرعة لنتصارع مع هذا الجانب السلبي للطفولة، نحرم أنفسنا من أعظم الدروس التي تقدّمها الحياة لنا لكي نلاحظ القوى العظيمة الكامنة في حياة الأطفال، أي قدرتهم على توليد الدهشة والتمتّع بها. من هذا الإفتتان والشعور بالدهشة يخرج عالم من المعنى للطفل. فمن اللحظة التي ينظر فيها الطفل في عيني أمه فيما تحمله بين ذراعيها لترضعه، إلى تلك النشوة التي يختبرها حين يتسمّر أمام أضواء شجرة الميلاد المتألّئة، والطفل يلهث عشرات المرات خلال النهار مغمورًا بعطايا الحياة الجليّة. انظروا إلى وجه طفلة وهي تتذوّق المثلجات أول مرّة في حياتها، وانظروا كيف يلتمس جسدها المزيد منها. أصغوا إلى طفل يقهقه فيما يلاحقه والده في فناء البيت الأمامي. إنَّ الفرح الناتج عن تلك الألعاب البسيطة

والطريقة في آن، تُبقي ذلك القلب اليافع نابضاً بالحياة. يختبر كل شيء بالكامل، ويقاوم النوم لئلا تفوته لحظة متعة واحدة.

لا يوجد دليل أعظم لهذا الشعور بالدهشة والذهول وحبّ الطفل لعالم الخيال أكثر من محبة الأطفال للقصص الخرافية. فقد بنى «والت ديزني» Walt Disney إمبراطورية عالمية على هذه النزعة الطبيعية عند الطفل. وأعتقد أننا نحصل على الدليل الأول لمعنى الحياة في عالم القصص الخرافية. حسب تقديري، لم يقدر أي إنسان أن يفهم هذا السحر أكثر من عقل ج. ك. تشسترتون العبقرى، في ما اعتبره تحفته الفنية وربما من أعظم المقالات الأدبية التي كُتبت على الإطلاق، التي أعطاها عنواناً ذكياً وهي «أخلاقيات إلفلاند» *The Ethics of Elfland*. يكشف تشسترتون فوراً عن سرّ الأطفال وحبهم للروايات الخرافية. يكشف لنا ثلاثة عناصر أساسية موجودة دائماً في كل رواية خرافية. هذه العناصر الثلاثة تنسج طريقها إلى ضمير الطفل الصغير وخياله، لدرجة أنه حين تظهر هذه العناصر في القصة، لا يعبر الطفل عن خيبة أمل، كما أنه مستعد دائماً أن يتقبّل ما يحدث.

العنصر الأول هو العبرة أو المبدأ الأخلاقي الذي ينبثق كدرس أساسي في كل قصة. (في الواقع، كلمة الأخلاق أو العبرة ظهرت أولاً في عالم هذا النوع من الكتب الأدبية). المقصود من هذه المبادئ أن تنقل بعض فضائل الحياة التي لا يمكن المساس بها. ففي قصة «الجميلة والوحش» *Beauty and the Beast*، الفضيلة هي أنه عليك أن تحب شيئاً قبل أن يكون هذا الشيء محبوباً. وفي قصة «سندريلا» *Cinderella*، الفضيلة هي في تعظيم المتواضع وإنقاذ المظلومين. وفي قصة «الأميرة النائمة» *Sleeping Beauty*، الفضيلة هي أنه يمكن للإنسان أن يتمتع بكل ما تقدّمه الحياة له ومع هذا تبقى لعنة الموت عليه، وأن الموت نفسه يمكن تخفيفه ووصفه بالنوم، وأخيراً يُقهر الموت بالحقيقة. كل هذا السحر، وكل هذه الدهشة، ينتج عنها درس أخلاقي.

لكنّ هذه القصص لا توصل فقط هذه الحقائق، فالعنصر الثاني الموجود في قصص الجنّيات يتعلّق بحالة خاصة غير قابلة للتغيير. هذه الحالة غير قابلة للتفاوض. لا يمكن شرحها دائماً ولا يمكن حتى الدفاع عنها. فهذه الحالة تُعلن فقط أنك: «إن لم تعد في الوقت الفلاني ستحوّل إلى كذا وكذا».

العنصر الثالث أكثر بديهية. فالشخص الواقف أمام حالة ما، لا يقول أبداً: «كيف؟» يقبل بهذه الحالة من دون اعتراض. ويفترض تشسّرتون أنّ الشخص الذي تمّ تحذيره لو شكّك في تحذير الجنّية العرابية، ستجيبه قائلة: «إن أردت حقاً أن تشكّ، فقل لي، كيف تشرح لي وجود بلاد الجنّيات».

اسمحوا لي أن أقول لكم إنّ هذا تذكير هامٌّ جداً. الغموض والخوف هما تجاوبان شرعيّان في عالم بأبعاد عجيبة كهذه، وهذا يتطلب بعض المعالم السلوكية التي بدونها لن يكون هناك وعد بغد مشرق. في مرحلة ما، على طارح السؤال أن يستسلم للعقل الأكبر الذي يسنّ الشروط.

ومع هذا أقول لكم إنّ بعض ميول العقل الحديث متهوّرة بشكل واضح كافتراض أنّه يجب علينا أن نفهم الواقع بلا حدود. نحن نسعى في بحثنا عن المعرفة إلى أن نصل إلى درجة نطالب فيها أن لا يكون هناك أي غموض، حتى في أهم الأمور المتعلقة بالحياة. لا نريد أي علاقة مع إله يرفض أن يعطينا معلومات قليلة حول أي موضوع نشعر بأنّ لنا الحق في أن نعرف عنه. أنا أفكر في كلّ أسرار الحياة الكبيرة التي لنا الامتياز أن نحياها، وقد دمّرنا جوهر الكثير من هذه الأسرار حين جعلناها أسراراً مبتذلة.

أنا أفكر في سرّ النشاط الجنسي العظيم عند البشر وبركته، ذلك الأمر العجيب الذي وهبه الله للتعبير عن الحبّ ضمن قدسيّة الزواج؛ ومع ذلك، نجسّناه بلا أي ندامة. أنا أفكر في أعجوبة الولادة، أي في إمكانية تكوين حياة كاملة داخل جسم المرأة. لكنّ الطفل الآن يُحبل به في عالم محاط

برغبات بشرية أنانية قللت من شأن الطفل وجعلت منه فكرة غامضة، كأن يُقال عنه «مُنْتَجَ الحَبَل». أنا أفكر في معجزة حياة الطفل الصغير الذي يتغذى من ثدي أمه. لكن وأسفاه؛ إننا نعيش في أيام فقدنا فيها روعة الأمومة، ولو كان القرار في يدنا لألغينا الفروقات الجنسية بين الذكر والأنثى. أنا أفكر في بهاء الشروق أو الغروب الذي هو جزء من كونٍ رهيب، يدور دورانه إلى ما لا نهاية. قال أوسكار وايلد Oscar Wilde مرة، إننا لا نُقدّر قيمة مشهد الغروب، لأننا لا نضطرُّ إلى دفع شيء في مقابل ذلك. كان أوسكار وايلد على خطأ. فنحن نستطيع أن «ندفع» أجره مشاهدتنا للغروب عندما نعيش وفق قصد خالقنا وتصميمه المهيّب. حين تركنا عالم الطفولة الوافر، لم نخرج من أرض الجنياث فحسب، بل بدأنا ننتيه في صحراء قاحلة لا سحر فيها ولا معنى، كما لو أننا مرّقنا ستارة أفق محدوديتنا ولم نجد شيئاً وراءها. كان البحث منطقيّاً، والرحيل شرعيّاً، لكنّ الرحلة كانت تسير في الإتجاه الخاطئ.

٥ من البؤس إلى الغموض

ليس الكتاب المقدّس بغافل عن جوع البشرية إلى المعرفة، وإليه الكتاب المقدّس يفهم هذه الرغبة جيّداً. فسفر أيوب، مثلاً، هو من أشهر أسفار الكتاب المقدّس لأنّه يبحث عن إجابة لعشرات الآلاف من الأسئلة التي يطرحها العقل، وخاصة حول علاقة الله بالآلام البشرية. اعتقد أنّ الأسئلة المثارة في هذا السفر هي أكثر من أي سفر آخر في الكتاب المقدّس.

إلا أنّني أريد أن أناقش معكم عملية المجادلة التي يستخدمها الله لكي يوصل أيوب، من خلال بحثه، عن تفسير لما يجري إلى خضوع راضٍ وطوعي للمشيئة الإلهية. كلنا نعلم أنّ أيوب كان يمرّ بأهلك ليلة من ليالي روحه، كان لاهوته يتحطّم، لأنّه كان «صالحاً» ولكنه لم يكن «مباركاً» في الوقت نفسه. فقد كلّ شيء، ولم يكن يتوق إلى الراحة فحسب، بل إلى

الحصول على إجابة من الله كَلِّي المعرفة. يتّضح لنا عاجلاً أنّ أسئلة أيوب الكثيرة التي رماها على الأشخاص الذين أتوا لتعزيته، كانت مجرد قناة للتنفيس عن خيبة أمله بالله. «لماذا أتألم في حين أنّي عشت حياة بارّة؟... لن أستطيع الاستمرار ما لم أحصل على الإجابة هنا، والآن لكي أبدد كلّ شكوكي ومخاوفي».

وبطريقة دراماتيكية وغير متوقّعة، اقترح الله التقرّيع والتكرار الممل وقال: «حسنًا يا أيوب، سأجيبك.» لفت هذا الأمر انتباه أيوب. أخيرًا، لا تبدو السماء كلوح من النحاس، وأصبح في إمكان العقل البشري أن يلمس الأزلي في توقه إلى المعرفة؛ أحد أكثر العضلات الشائكة في الحياة. ومع هذا، كان الجزء الأول من إجابة الله عبارة عن سلسلة من أربعة وستين سؤالاً تبدأ كالتالي: «اشدّ الآن حقوقك كرجل. فإنّي أسألك فتعلّمني. أين كنت حين أسست الأرض؟» لو كانت أسئلة الله هذه على شكل مباراة، لكان أيوب ربح جائزة «لا أدري» السنوية.

ماذا كان الله يفعل في هذا الحوار الشخصي جدًّا مع رجل مُخلص وذكي؟ اسمحوا لي أن أقول لكم إنّ قصد الله مزدوج. فقد أراد أولاً من أيوب أن يعرف محدودية الإنسان. إنّنا نُخدع حين نُقنع أنفسنا بأنّ عقلنا المحدود يقدر أن يعرف، بل يجب أن يعرف كلّ شيء عن أي شيء. جواب الله هو: «أنت لا تعرف كلّ شيء، ولا تقدر أن تعرف كلّ شيء. وفوق هذا، يوجد سرٌّ غامض حقيقي يولد حسًّا بالذهول أنت في حاجة إليه.»

يوجد جزء آخر في قصد الله لأيوب، وعلينا أن نلاحظه، لأنّ الإنسان العصري أفقر نفسه في هذا الجزء، خلافاً لأسلافه، أكثر من أي مرّة أخرى في التاريخ. يناشد الله أيوب حين يجبره أن يفتح مخزون يقينيّاته المتواضع. من بين الأمور الكثيرة التي نجدها في هذا المخزون، إيمانه غير المساوم بأنّ الكون هو صنْعُ يدي الله السيّد والصالح. «إن كنت تعترف أنّي صانع هذا الكون، وإن كنت مدرك لعجائبه وأسراره، فلمماذا لا

تستطيع أن تثق بي لكي أنقذك من هذه المحنة أيضًا من دون أن تسحب الستارة بالكامل؟» على هذه الأرض المشتركة، أي إيمان أيوب بالله كخالق، استطاع أن يثق بالله كحافظ له أيضًا.

في هذا المكان يُصبح سؤال الله غير واقعي على الإطلاق بالنسبة إلى عالمنا المتمدّن والمتطوّر الذي يعتقد أنّه حلّ لغز أصل الكون بواسطة أدواته التي في المختبر. ويا لها من نظرية متهوّرة عن الزمن والمادة ممزوجة بالصدفة. فعندما تخلّوا عن إيمانهم بأنّ عجائب الكون هي من صنع الله الكلّي المعرفة، نتج عن ذلك تخلّ عن كلّ المبادئ الأخلاقية، وتوجّوا ذلك بسؤال ربّان للخالق: «كيف يُعقل؟» وقد مهّدت «أخلاقيات إلفلاند (elfland)» الطريق أمام طغيان الغرائز المظلمة.

دعوني أوضح كيف يُعبّر عن هذا الموقف في أكثر الأوساط الأكاديمية تطوّرًا. أتذكّر أنني قرأت مؤخرًا مقالاً مسهبًا للبروفيسور كينيث ميلر Kenneth Miller من جامعة براون Brown University بعنوان «تصميم الكون العظيم» Life's Grand Design. أمّا العنوان الفرعي فيقول: «على الرغم من أنّ البعض يُصرّون على أنّ الحياة كما نعرفها الآن هي من تصميم مصمّم عظيم، فإنّ علم الأحياء يقدّم أدلّة جديدة تفيد بأنّ الكائنات الحيّة، رصّفها معًا طبقة فوق طبقة عامل متعدّد الوظائف يدعى الارتقاء والتطوّر.» هذا، ويشنّ الكاتب هجمات أخرى مألوفة على الحجة الكلاسيكية التي تثبت وجود الله من خلال حجة التصميم. ويقدم إيضاحًا حول العين البشرية لإثبات وجهة نظره، مركّزًا على طريقة توصيل الشبكة العصبية في العين. فكما تعلمون، إنّ الخلايا التي تلتقط الصورة في شبكية العين ترسل نبضات إلى سلسلة من الخلايا المترابطة بعضها ببعض، وأخيرًا تعالج المعلومات وترسلها إلى الخلايا الموجودة في العصب البصري التي بدورها تنقل المعلومات إلى الدماغ. إليكم وصف ميلر «للخلل» الموجود فينا:

سيختار المصمّم الذكي الذي يقوم بتمديد وتركيب هذه الشبكة، تصميمًا يُنتج أعلى درجة في الرؤية النوعية. فعلى سبيل المثال، لن يقوم أي مصمّم بوضع الوصلات العصبية أمام الخلايا التي تستقبل الصور، لأنّه بهذا يحجب النور من الوصول إلى هذه الخلايا، بل يضعها خلف شبكة العين. لكن، ويا للعجب، مصمّم العين البشرية وضعها أمامها. وقد باتت الرؤية بالتالي متدهورة لأنّ النور يتكسّر بينما يمرّ عبر طبقات متعدّدة من الخلايا قبل أن يصل إلى شبكة العين. أنا أقرّ بأنّ تكسّر النور هو في حدّه الأدنى، لأنّ الخلايا العصبية شفافة تقريبًا، لكن، مع ذلك، لا يمكن إزالة العُطل كليًا، بسبب خلل في التصميم.

وفوق هذا، نجد أنّ الآثار الناتجة عن هذا الخلل مضاعفة لأنّ شبكة الأوعية الدموية التي نحن في حاجة إليها لكي تُزوّد الخلايا العصبية بالدم، قابضة أمام طبقة حسّاسة للنور، وهذه ميزة لن يضعها أي مهندس.^١

سأقاوم رغبتني في التطرّق إلى الضعفات الفلسفية الصارخة في مقالة ميلر. فأنا أجد ثلاثة أخطاء جوهرية حتى على المستوى الفلسفي الأساسي. بادئ ذي بدء، يقع ميلر في الخطأ الصارخ نفسه الذي يقع فيه معظم الملحدّين الذين ينادون بالتطوّر والارتقاء، فهو يرسم رسمًا ساخرًا عن طريقة التفكير الكتابي، ثم يحطّمه إلى أجزاء صغيرة. لا يوجد في أيّ تعليم كتابي عن الخلق أنّ تصميم الإنسان بصورته الحاضرة هو تصميم كامل. اسأل أي امرأة مرّت بتجربة المخاض المؤلمة خلال الولادة، إن كانت تشكّ بكمال تصميم الجسم البشري. وميلر ليس في حاجة إلى التأمّل في العين فقط، لكي يصل إلى ما يدعوه «الخلل».

ثانيًا، لنفترض أن استنتاجه صحيح، وأنه يوجد خلل رهيب في تصميم عضو البصر بسبب ضعف فيزيولوجي وبنوي، ما الذي يجعل البروفيسور ميلر يعتقد أن دماغه توصل إلى استنتاج لا خلل فيه، لأن الدماغ نفسه قد يكون مصابًا بإعاقة بسبب رداءة تصميمه؟ يعلم البروفيسور ميلر من خلال فرضيته المادية أن العين تولد البصر وأن الكبد يفرز المادة الصفراء، وبناءً على ذلك، عليه أن يقبل بأن الدماغ يفرز أفكارًا. فلماذا يعتبر فرز الأفكار بلا خلل أو عيب، متخطيًا القيود التي لا مفر منها، وهو عالم بضعف وتقصير الأعضاء البشرية الأخرى؟

أخيرًا، على البروفيسور ميلر أن يكون على دراية بعلماء آخرين ممتازين، أظهروا محدوديات العين حتى لو كان تصميمها معاكسًا للتصميم الحالي كما تخيله.

منذ سنوات قليلة، حين بلغت ابنتي الكبرى سن الثالثة عشرة، كنا جميعًا في ملعب نتسلي ونلعب لعبة الغولف. وفي لحظة معينة، وقفت وراء كتف ابن أخي فيما كان يستعد لضرب الكرة إلى مسافة بعيدة. لم يكن مدركًا كم كانت ابنتي قريبة منه، وحين رفع عصا الجولف أصاب عينها بقوة كبيرة. جثت فورًا على ركبتها، وكان الدم يتدفق من عينها عبر يديها بغزارة مرعبة.

نظرة واحدة إلى عينها، جعلتنا نتأكد أنها فقدتها. ما زالت ذكريات ذلك اليوم تחדّر جسدي. بعد دقائق وصلت سيارة الإسعاف، وفي ساعات معدودة كانت بين يدي أشهر طبيب عيون للأطفال. أجرى لها الطبيب عملية طارئة، وعندما أكد لنا الطبيب أنها كانت عملية ناجحة أخرجناها من المستشفى بعد عدة أيام، حيث استرجعت بصرها بالكامل. وحين شكرنا الطبيب على عنايته بها وبراعته المهنية، شرح لنا كيف أن مهمته كانت بسيطة بسبب بنية العين وتصميمها المدهش، والحماية التي منحت لمعظم الأعضاء الحساسة بفضل تصميمها.

لا أريد أن أضخم هذا الأمر أكثر ممّا يستحق، لكنني أتعجب من انتقادات البروفيسور ميلر حول هذا العالم والانتقادات الأخرى مثلها. إليكم النقطة الأساسية. حين رفع الستارة عن العين بهذه الجراءة ومن دون اعتبار، كما لو أنّه كان يرفع غطاء صندوق السيارة، فقدّ هذا المعلم المميّز عنصر الجمال والروعة والدهشة.

سأوافق معكم أنّ المؤمن بوجود الله يبالغ أحياناً وللأسف، في حججه المعتمدة على حجة التصميم، خاصةً في ما يتعلق بقضيّة العين. لكنني أوكد لكم أنّ حجة التصميم، حين تُقدّم مع حجج وبراهين أخرى، هي حجة منطقية.^٢ في الواقع، يُنهي البروفيسور ميلر مقالته بطريقة غريبة ومحيرة اذ يقول:

كان ويليام پالي William Paley يأمل من وراء دراسة الحياة أن يحصل المرء على بعض المعلومات عن شخصيّة الخالق. وعلى الرغم من أنّ پالي كان مخطئاً في حجته المعتمدة حول التصميم، فإنّه قد يكون محقاً في ما قاله عن نظريّة الشخصيّة. فبالنسبة إلى المتديّن بشدّة، فإنّه لا ينظر إلى الإرتقاء والتطوّر كتحدٍّ، بل كبرهان لقوّة ودقّة سُبُل الخالق. إنّ مدى ومعيّار نظرية الإرتقاء والتطوّر قد يزيد من إعجابنا بخالق قادر على تحريك عمليّة الإرتقاء والتطوّر. ربما لم يدوّن المهندس العظيم لهذا الكون البصمة الوراثية لكلّ خلية بشرية، إلّا أنّه مهندس ذكي بالفعل.^٣

خلق ميلر قبعته أمام المؤمن بوجود الله بطريقة تهكّمية، محاولةً منه تغطية مساراته التي انبثقت من اللاشيء في مخطّطه المتعلّق بأصل الكون. حين يفقد الناقد المُسيّر بالجهل إحساسه بالدهشة، يُبتلى بخسارة مُضاعفة: أولاً، لأنّه رفض الحق، وثانياً، لأنّه غير قادر أن يختبر الفرح الحقيقي. وبالنسبة إلى ميلر، فقد ذهبت تحذيرات پولانيي أدراج الرياح،

وحين حاول أن يدافع عن فلسفته كشفت ملاحظاته غير العلمية عن فلسفة رديئة خسيصة.

٩ فطنة ورفعة

من السهل على المشكك أن يقول: «آه، لا تقل لي إنك ستأخذ نظرة طفل إلى الكون وتناقشها في وجه رجل مثقف». إن الذي يبسط هذا الافتراض هو غير مدرك للهدف. أنا أجادل بأن الطفل يستنبط المعنى من تمييزه للواقع المدهش المحيط به. الواقع منصرف بالدهشة والتصميم البارع وينتج عنه هدف أو قصد. لا يُنظر إلى الكون على أنه كون غريب بلا معنى، بل على العكس، حين نحاول التخلص من هذه العوامل، تفقد الحياة معناها، فلماذا نعتبر بعد ذلك أن أي نقد ذات معنى؟ والأهم من ذلك، أن المعلومات التي يستخدمها الذين على شاكلة ميلر في هذا العالم، مأخوذة من أفراد مؤهلين مثلهم، إن لم نقل أفضل منهم، وذوي كفاءة أكاديمية بارعة، يتكلمون عن عدم إمكانية استخلاص تفسير لهذا العالم، بعيداً عن الله. هؤلاء العلماء لا يرون كوناً منسوجاً بطريقة ذكية ومحكمة فحسب، بل يكسبون منه الذهول الذي يعطي معنى للحياة لأنهم يعترفون بوجود عقل مصمم وراء كل ما هو موجود. المبادئ الأخلاقية بالنسبة إليهم مناسبة ومهمة ويعرفون متى يجب أن يتوقفوا عن طرح هذا السؤال: «كيف يُعقل؟» وجهة نظرهم تجاه العالم ثابتة ومتماسكة أكثر، بخلاف وجهة نظر ميلر، الذي يضطر أن يمرر تحذيراً في نهاية نقده.

ابتغاءً لتقديم مثال لكم، أود أن أنقلكم إلى قاعة محاضرات معقدة في جامعة كامبريدج Cambridge University، حيث جلست أستمع إلى محاضرة قدمها أستاذ في مادة «علم الفيزياء الكمّي» وهو الدكتور جون پولكينغهورن Dr. John Polkinghorne رئيس جامعة كوينز Queens College، في كامبريدج. يُعتبر كتابه «علم الفيزياء الكمّي» The Quantum

World في عالم الفيزياء، أحد أهم الكتب وأرقاها في هذا المجال. يتكلم پولكينغهورن بفصاحة بالغة في كتابه «عالم واحد» One World معتبراً أن كوننا الذكي المبرمج بمهارة متناهية، يُلْمَح إلى فكرة وجود الله بدقة لا بدّ من وجودها في كل تفصيل من تفاصيل هذا الكون، بحيث يلزم الملحنين أن يقدموا تفسيراً منطقيّاً لها.

في وقت مبكر من الزمن، حين كان العالم يتكوّن ويتوسّع، لا بدّ أنّه كان ثمة توازن بين الطاقة التوسّعية (الطاقة التي تُبعد الأمور عن بعضها) وطاقة الجاذبية (الطاقة التي تشدّ الأشياء نحو بعضها). فلو هيمنت الطاقة التوسّعية، لانفصلت المادة وتطايرت بسرعة، لكي تعود وتتكتّف في المجرّات والنجوم. ولما كان هناك أي شيء مفيد في هذا العالم الضيّق الصغير. من جهة أخرى، لو هيمنت طاقة الجاذبية، لانهار الكون على بعضه قبل أن تبدأ فيه الحياة وتستمرّ. ولكي نكون نحن البشر موجودين، يجب أن يكون ثمة توازن بين تأثيرات التوسّع والتقلّص. هذا التوازن في مرحلة مبكرة من تاريخ الكون (The Planck time) كان عليه أن يكون مختلفاً عن التوازن الكامل بنسبة لا تزيد عن ١ من ١٠^٦. المتخصّصون بالأرقام والحسابات سيذهلون لهذه الدقة المتناهية. أما لغير المتخصّصين بالأرقام والحسابات، فسأستعير إيضاحاً من پول دايفيس Paul Davies الذي يشرح ما تعنيه هذه الدقة. يقول إنّ هذه الدقة تشبه تماماً التصويب على هدف عرضه إنش واحد على الجانب الآخر من الكون المرئي، أي على بعد آلاف الملايين من السنين الضوئية، وإصابة ذلك الهدف.^٤

أتذكّر مناسبة أخرى حين جلستُ في قاعة جامعة ويتواترساند University of Witwatersrand في مدينة جوهانسبرغ Johannesburg

في جنوب أفريقيا، منتظرًا دوري لكي أتكلّم. قبل أن ألقى كلمتي، كان امتيازًا لي أن أستمع إلى عالم فلك مشهور اسمه البروفيسور دايقيد بلوك David Block (الذي أصبح عضوًا في جمعية الفلك البريطانية وهو في سنّ التاسعة عشرة) وهو يقدّم عرضًا يشرح فيه لماذا يؤمن بكون له مصمّم. كان من ضمن الصور التي عرضها صورة تحتوي على مائة مليار نجمة، ليُلفت انتباهنا إلى روعة الكون المحيرة للعقل، والذي يحتوي على هذا العدد الكبير من النجوم التي تعتمد بعضها على بعض. ذكر الدكتور بلوك الجمهور أنّهم لو عدّوا نجمة واحدة كلّ ثانية لاحتاجوا إلى ألفين وخمسمائة سنة.

سامحوني على استخدام هذا التشبيه، لكنّ أمثال الدكتور بلوك وبولكينغهورن ليسوا كأطفال جاحظة أعينهم، مشدوهين منبهرين. أنا على علم برّد دايقيد هيوم David Hume على هذا النوع من المجادلات وانتقاده لمبدأ السببية في الفلسفة، والمُستنتج من العلم. لكن هل تؤكد العامل بمبدأ التجريبية جون لوك John Locke الذي يقول: «يعلم الإنسان بيقينية غريزته أنّ اللاشيء لا يستطيع أن ينتج أي شيء حقيقي» هو ادّعاء مزيّف؟ ربما نستطيع أن نتعلّم شيئًا هنا من حدس الطفل وندعمه بفطنة الراشدين. من طفل صغير في الحضانة إلى جامعة كوينز Queens College في كامبريدج، يوجد استمتاع، وافتتان، ودهشة حين نرى أنّ يد الله وراء كلّ عجائب هذا الكون. لكن حين تُرفع الستارة لكسب المعرفة من أجل المعرفة فقط، لا يمكن إشباع جوع المعرفة، كما نفقد الحس بالذهول والدهشة.

دعوني أخص هذا مستخدمًا كلمات كريستوفر مورلي Christopher

:Morley

ذهبتُ إلى المسرح مع كاتب مسرحية ناجحة. أصرّ على أن يشرح لي كلّ شيء. أخبرني عن الأمور التي يجب أن ألاحظها،

وعن تفاصيل الإخراج المسرحي، وأخطاء التقنيّين، ونقاط ضعف بطل المسرحية. استبق كل ما سيفاجئني وأفسد لي أمسيتي. لن أذهب معه مرة أخرى! وانتبه لما سأقوله، إنّ الصانع العظيم لكل ما هو موجود لم يرتكب هذا الخطأ.

٥ حين يتلاشم الذهول

إن اختار إنسان أن يحدّد كل شيء بطريقة ميكانيكية صرف أو بطريقة عشوائية، فالنتيجة الحتمية التي سترافق هذا التحديد هي خسارة ذلك الحسّ الطفولي بالذهول، وينتج عن فقدان الإحساس بالذهول ثلاثة أمور. أولاً، لا مفرّ من أنّ كلّ الحياة ستشهد انخفاضاً ما، وكلّ شيء سيُصبح في النهاية مجردّ أمور كيميائية وجزيئية. وآثار هذا الانحدار والانخفاض في الحياة ستنتقل إلى علاقاتنا الشخصية مع الآخرين في المجتمع. في الأيام التي سادها الاضطراب خلال أعمال الشغب العرقية، ناشد الدكتور مارتن لوثر كينغ الابن Dr. Martin Luther King Jr. الأمة أن تنسى أحقاد الماضي. وحين استلم جائزة نوبل للسلام، قال الدكتور كينغ: «أنا أرفض أن أومن بالمبدأ القائل إنّ الإنسان هو كحطام سفينة أو كمقذوفات البحر المرمية على شاطئ الحياة... غير قادر أن يستجيب للمستلزمات الأبدية التي ستواجهه إلى الأبد.»

يعطي الدكتور كينغ قيمة علوية للحياة البشرية. في المقابل، ترى الإنسان المادي ملزماً بنظرية العشوائية ولا يستطيع أن يتجنّب اعتبار الإنسان كحطام سفينة أو كمقذوفات البحر. حين يُفقد الإحساس بالذهول، يُجرّ الإنسان بشكل طبيعي، نحو نظرية الحطّ من قيمة كلّ ما هو جمالي وأخلاقي. لهذا السبب، يعتبرون كلّ ما في الحياة مجردّ مادة تتفاعل كيميائياً وفيزيائياً، «والتفاعل» الأقوى هو الذي يربح في النهاية. يُصبح الإنسان نقطة ضوء أخرى على شاشة رادار الزمن.

يُحِط الأسمى إلى الأدنى، ويصبح الحب مجرد مادة تفرزها الغدة. يا لها من فلسفة مأساوية يصل إليها الملحد، لأنّه كلما ارتفع عاليًا نحو قمة الارتقاء والتطور، تذكر تفاهته المطلقة.

أدت سيطرة الدولة في النظام الماركسي إلى إنشاء مبان حكومية عملاقة لكي يبدو الإنسان قزمًا أمامها. وقد أنشأنا خلف ستار الحرية الأكاديمية وحرية المتعة، أبنية ثقافية ونقدية حطّت من قيمة الفرد وجعلته مجرد سلعة ومال. والنتيجة النهائية في الحلبتين هي نفسها؛ لا يخرج من التراب إلا التراب.

﴿كَلَّا، شُكْرًا﴾

ثانيًا، حين نفقد الإحساس بالذهول، نفقد بشكل طبيعي الشعور بالإمتنان وعرفان الجميل، لأنّه لا أحد نشعر بالإمتنان نحوه. وكما أنّ الكون «موجود حيث هو موجود» هكذا نحن أيضًا «موجودون كما نحن» في هذا الكون. ثمّة ظاهرة غريبة في الغرب تكتسب حجمًا كبيرًا باستمرار. يستيقظ مئات الملايين من الناس حول العالم كلّ صباح ليشكروا الله على هبة الحياة وعلى القوة التي منحها لهم. وأينما تسافر تجد رؤوسًا منحنيّة أمام وجبة طعام لشكر الله، أو منحنية حتى في وجه عاصفة على علو ٣٧٠٠٠ قدم فوق الأرض، معترفة بسيادته بكلّ ورع وتقوى. أما هنا في بلادنا، فقد وضعنا تقليدًا وخصّصنا يومًا في السنة لكي نقول «شكرًا»، لكن شكرًا للمشكّكين، فقد أصبح يومُ الشكر يومَ الديك الرومي.

نعيش في خطر كبير محقق بنا على هذه القارة ونتخيّل أنّه بقوّتنا وإرادتنا الصلبة وقدراتنا المبتكرة بنينا أكثر أمة متطورة عبر التاريخ. نظنُّ أننا رفعنا أنفسنا بواسطة أحيثتنا الاقتصادية والتقنية. يقول الله إنّ الأمم كنقطة في دلو، ومن السهل جدًّا لمجدنا الوطني أن يُصبح من أمجاد الماضي. كارثة واحدة كبيرة كافية لتُسقط أي أمة على ركبتيها.

فقدان الشعور بالإمتنان هو خسارة كبيرة. إن تَرَبَّى الأولاد من دون الشعور بالإمتنان نحو مَنْ أعطاهم الحياة، وَمَنْ هو مصدر رزقهم، سيصبحون أعداء بإمكانيات مرعبة.

لكي أشدّد على الربط بين الذهول والإمتنان والمعنى، سأستعير صوراً من حالتين مأساويتين حدثتا على علو آلاف الأقدام في الهواء. منذ سنوات قليلة أقلعت طائرة تابعة للخطوط الجوية الكندية من مكان ما في الولايات المتحدة الأمريكية، متّجهة نحو أوتاوا Ottawa في كندا. وبينما كانت على علو عشرة آلاف أو خمسة عشر ألف قدم، شبّ حريق في مرحاض الطائرة. كان أمام ربّان الطائرة لحظات معدودة قبل أن تُصبح الطائرة شعلة في السماء. ابتداءً فوراً بعملية هبوط اضطرارية نحو أقرب مطار، وكان ذلك في مدينة سينسيناتي Cincinnati. بدأت النار تمتدّ وخرجت عن السيطرة. كانت الطائرة مسرعة جداً حين هبطت فتحطّمت عجلاتها. بدأ عمّال الإغاثة عملهم بنشاط لإنقاذ أكبر عدد من الركاب. لكن عندما فتحوا الأبواب، ازدادت حدّة النار بسبب دخول الأوكسيجين إلى الطائرة. قضت النيران على عدد من الركاب، لكنّ فريق الإنقاذ الشجعان استطاعوا أن ينقذوا معظم الركاب. كان القبطان، كما هي العادة، آخر مَنْ يغادر الطائرة وثيابه تشتعل.

لا أشكُّ أبداً أنّه بعد انتهاء كلّ شيء، وبعد انتهاء الناس من الكلام عن الحادث، كان الجميع يمدح مهارة قبطان الطائرة واحترافه. فلو كان على متن تلك الطائرة شخص نحبه، ويدين بحياته للقبطان، لتوجّهنا إلى القبطان وأمسكنا بيده بشدّة وقلنا له: «شكراً لك». لكن اسمحو لي أن أقول لكم إنّهُ حتّى ولو فقدت شخصاً تحبّه على متن تلك الطائرة، لكنت أيضاً تتوجّه إلى القبطان لتقول له: «شكراً لأنك حاولت إنقاذه».

والآن، لننتقل إلى حادثة أخرى حصلت بعد الحادثة الأولى بفترة وجيزة. كانت طائرة تابعة لشركة خطوط جويّة مشهورة في طريقها إلى

جزر الكريبي Caribbean Islands حين تعطلّ أحد محرّكاتها وهي محلّقة فوق البحر. تعاقبت الأعطال في تلك الطائرة ثم تعطلّت كلّ محرّكاتها، فأعلن قبطان الطائرة بصوت مرتجف عبر مكبّر الصوت: «سيّداتي سادتي... علينا أن نهبط بالطائرة على المياه.» لكن فجأة، خرق صوت أحد المحرّكات الصمت السائد على الطائرة، وبدأ يعمل من جديد. استطاع القبطان بعد ذلك أن يسيطر على الطائرة ويوصلها إلى برّ الأمان. فمنّ شكر يا ترى؟

يقول ج. ك. تشسترتون G. K. Chesterton: «أعتقد أنّ الأمر كما يلي. لو استيقظ أولادي صباح يوم الميلاد ليذكروا من وضع لهم الحلويات في جواربهم، ألا يجب عليّ أيضًا أن أشكر من وضع رجليّ في جواربي؟» إنّ الشعور بالإمتنان هو نتيجة طبيعية للذهول، والذهول يعترف بوجود الله. حين يُفقد الدهول يُفقد معه الشعور بالإمتنان. تعظيم الذات يُنتج حسًا بالإستحقاق. والإستحقاق غير المُتمم يُنتج وسائل انحراف كارثية، وستكون النتائج وخيمة جدًّا.

❶ عاطفة عديمة الفائدة

أصلُ الآن إلى النتيجة الثالثة لفقدان الشعور بالذهول. فالنتيجة ليست محصورة بالإنحطاط وفقدان الشعور بالإمتنان، إنما يؤدّي ذلك إلى انزلاق لا مفرّ منه نحو الفراغ. أنا أفكّر بشكل خاص في جيلنا الحالي الذي يستمتع بالألعاب المتطوّرة أكثر من قبل، ومع هذا فإنّ فترة التشويق التي تمنحها الألعاب الحديثة هي أقل ممّا كانت تمنحه الألعاب القديمة. نشعر بالملل باستمرار بعد استخدام الاختراعات الحديثة، وعبرة «آيل إلى الزوال» أخذت منحى جديدًا، فلم تعد تطبّق على الألعاب فحسب، بل على الحياة نفسها.

قال هـ. لـ. مانكن H. L. Mencken: «ليست مشكلة الحياة أنها مأساوية، بل بكونها مملة». فالطفل المذهول يختبر أيضًا شعورًا بالافتتان، وشعورًا بالأهمية، وشعورًا بالمعنى. حين يُفقد الذهول، يبدأ الملل والفراغ يسيطران على الوجود.

٥ زوال حتميّ

الواقع التعيس هو أنه في وقت معيّن من حياة الطفل، يتناقص تدريجيًا الشعور بالاندهال لرؤيته البالغون وميض الأضواء وقصص الجنّيات. على الرغم من أنّ الأهل ينظرون إلى هذه المرحلة الإنتقالية بأعين الحنّان، فإنّهم سيصابون باضطراب شديد إن لم تنته هذه المرحلة من حياة طفلهم. بماذا يمكن استبدال الذهول لكي يستمرّ ويملاً الحياة بالمعنى؟

أريد أن ألفت انتباهكم إلى هذا الأمر فيما أوضح الأهمية القصوى لهذا الموضوع. حين أراقب هذه المرحلة الإنتقالية، لا أريد أن أركّز فقط على «لماذا»، بل أريد أن أتطرق إلى الأمور التي لا شك أنّها لفتت انتباهك وأنت في نزهتك في أرض الجنّيات. أقول مرّة أخرى إنّي مديون لتشترتون على هذه الفكرة الفطنة.

تخيّل أنّك تروي قصة لثلاثة أولاد حديثي السنّ، مستخدمًا كلّ مشاعرك وحركات جسمك. أستطيع أن أتخيّل نفسي في هذا السيناريو، لأنّ لي ولزوجتي ثلاثة أولاد: سارة Sarah ونعمي Naomi وناثان Nathan. أدخل معي إلى عالمهم في عمر السبع سنوات والأربع سنوات والسنة الواحدة، حين رويت لهم القصة نفسها كلّ واحد منهم على حدة. أدعوكم لكي تستمعوا إلى الرواية وهي تصل إلى ذروتها.

أقول لسارة: «قام طومي Tommy الصغير وتوجّه نحو الباب وفتح الباب. فجأة وثب تنين أمام طومي.» اتّسعت عينا سارة وتسمّرت في مكانها إلى أن طمأنّتها بأنّ طومي قضى أخيراً على التنين.

بعد ذلك، رويت القصة نفسها لنعمي وعمرها أربع سنوات. قلت لها: «يا نَمي Nimmi، قام طومي الصغير وتوجّه نحو الباب، و(هنا انخفض صوتي وتكلّمت ببطء شديد)... طومي... فتح... الباب...» اتّسعت عينا نعمي وارتعشت منتظرة أن تعرف مَنْ يقف وراء الباب.

والآن، أروي القصة نفسها لثلاثين ابن السنة الواحدة. يجب أن تتذكّروا أنّ نظرتي إلى العالم محصورة بكلمة واحدة: «البسكويت». قلت له: «يا نايت Nate، قام طومي الصغير... وتوجّه... نحو... الباب...» في هذه اللحظة اغرورقت عينا ثلاثين بالدموع وكادت تسيل على خديه المنتفخين.

هل تدركون ما يجري هنا؟ كانت سارة ابنة السبع سنوات في حاجة إلى التنين لكي يثير ذهولها. وانفتاح الباب ببطء كان بالنسبة إلى نعمي ابنة الأربع سنوات كافياً لإثارة ذهولها. أمّا ثلاثين ابن السنة الواحدة، فكان السير إلى ذلك الباب يشكّل مشكلة كبيرة أمامه. أوكد لكم أنّه كلّما كبرتم احتاج قلبكم أن يشعر بذهول أكبر من ذي قبل، والله وحده كبير كفاية ليملاً هذا القلب بالذهول. الله ليس كبيراً فحسب، إنّما هو قريب كفاية، كما نعبر عنه في الوسط المسيحي.

كان هذا الاكتشاف تنويجاً لذلك الشاعر الذكي والعبقري فرانسيس تومپسون Francis Thompson. كثيرون منكم يتذكّرون قصيدته المشهورة: *The Hound of Heaven*. عاش تومپسون حياة مضطربة. هجر بيته بعد نزاع بينه وبين أهله، وعاش متشرّداً في شوارع لندن بدل أن يذهب إلى المدرسة، وكان يتجول بين منطقتين في تلك المدينة. كان يتعاطى الأفيون خلال النهار مع المتشرّدين الآخرين التائهين في منطقة تشيرينغ

كروس Charing Cross. وفي الليل، كان يسير الهوينا على ضفاف نهر التيمز Thames إلى أن يجد مكاناً ينام فيه. وكان من فترة إلى أخرى يلتقط صحيفة من قمامة الطريق، ثم يبحث عن ورقة يكتب عليها رسالة ويُرسِلها إلى محرر الصحيفة معلقاً على بعض المقالات التي قرأها. أصيب المحرر بإحباط وبدأ محتاراً لأنّه رأى عبقرية شبيهة بعبقرية الشاعر الإنكليزي ميلتون Milton خلف تلك الرسائل التي كانت تصله دائماً من دون عنوان المرسل.

خلال فترة هروبه المتعمّد والمستمر من الله، بقي تومپسون يقرأ الكتاب المقدّس، وكان مقطع معيّن يلاحقه باستمرار: قصة يعقوب، الذي أمضى معظم حياته هارباً. يُخبرنا الكتاب المقدّس عن حلم راود يعقوب ذات ليلة، إذ رأى سلماً معلقاً بين السماء والأرض وكان الربُّ نفسه في أعلى السلم. حين استيقظ من الحلم قال: «حقاً إنّ الربّ في هذا المكان وأنا لم أعلم» (تكوين ٢٨: ١٦). بقي تومپسون يتأمّل في هذه القصّة إلى أن حدث معه أمر غير اعتيادي لا يمكن اعتباره إلاّ توبة دراماتيكية حصلت في حياته. أصغوا إلى هذه الكلمات العجيبة:

يا أيها الكون غير المنظور، نحن نراك،
يا أيها الكون غير الملموس، نحن نلمسك،
يا أيها الكون المجهول، نحن نعرفك،
ومع أنك فوق الإدراك، فإنّنا نتمسّك بك.

أُتُحَلّق السمكة لتجد البحر،
أُيَغطس النسر ليجد الهواء،
أنسأل النجوم التائهة

إن كان لديها إشاعة عنك هناك؟

ليس حيث دواليب الحظ موجودة
وليس حيث تحلّق عقولنا المخدرة
نسمع هدير الآلات
من خلال الأبواب الموصدة

الملائكة محافظون على أماكنهم القديمة
يتحوّلون صخرًا، يطيرون.
هؤلاء هم أنتم، هذه هي وجوهكم الغائبة،
التي لا ترى هذه الأمور العجيبة

حين تكون حزينًا إلى أقصى الحدود،
حين تبكي بألم على خسارتك،
سترى سلّم يعقوب المزدحم،

يميل بين السماء ومنطقة تشيرينغ كروس Charing Cross

نعم، في الليل، روعي، ابنتي،
نبكي متمسّكين بأهداب السماء،
وها المسيح يمشي على المياه،
ليس على مياه بحيرة جنيسارت
بلى على نهر التيمز.^٧

لقد التقى الله فرانسيس تومپسون في المكان الذي كان فيه، وأعاد
الذهول والمعنى إلى حياته. قال نيتشه Nietzsche مرّة إنه ذهب يبحث
عن الله ولم يجده، فولدت العدمية. يقول المرثم داود، الذي عُرف بمرثم
إسرائيل الحلو، في المزمور ١٣٩: ٧ و٨، «أين أذهب من روحك ومن وجهك
أين أهرب؟... [أينما ذهبت...] فما أنت.» ولد الرجاء. تخبرنا كتابات

فرانسيس تومپسون عن الذهول الذي ملأ حياته حين توقّف عن الهروب من الله، فولدت العلاقة. الله الذي تمشى في جنيسارت وعلى ضفاف نهر التيمز يتمشى أيضاً في هايت-أشبوري Haight-Ashbury أو في شارع بنسلفانيا Pennsylvania Avenue.

كيف تكتشف هذا الذهول؟ اسمح لي يا صديقي أن أقترح عليك أنك لن تجد هذا الذهول في المجادلات ولا في العقائد أو المبادئ. لن تجده حتى في الكنائس. يوجد تلميح لاكتشاف المعنى في اختباراتنا، هذا التلميح هو الله نفسه، وستجد ذهولاً لا نهاية له في علاقة تقيمها معه. يذكرنا المؤرخ ليكي Lecky بأنه لم يحدث أيّ إنسان أيّ تغيير على المستوى الأخلاقي في المجتمع، كما فعل يسوع المسيح. إن كنت تبحث عن الذهول فستجده عندما تكون في علاقة مع المسيح. لقد ذهب يسوع المسيح إلى أبعد من الخيال: لقد أشار إلى الحقيقة.

الفصل التاسع



الحقيقة عنصرٌ فيه طريق الإنقراض



فأية سني الطفولة، يمكن الحصول على الذهول عند الولوج إلى عالم الخيال. يُعتبر هذا في آن، مجد مرحلة الطفولة وهشاشتها. لكن، حين تمرّ السنون، يتعرّض الذهول إلى التآكل أمام الواقع، وأمام إدراك الإنسان أنّ الحياة ليست كالروايات التي نسمعها عن عالم الجنّيات. فمتطلبات العقل المتزايدة تفرض هذا الانتقال ليس فقط إلى عالم الخيال، بل إلى الواقع أيضًا. وهكذا يُصبح البحث عن الحقيقة متفشيًا وله آثار على جوهر ومصير الحياة نفسها. وحتى لو لم يكن هذا معترفًا به جهراً، يبقى البحث عن الحقيقة واقعًا محتومًا، مدفوعًا بالحاجة التي لا جدال حولها، للحصول على أجوبة لا مفرّ منها متعلّقة بالمنشأ والمعنى والأخلاق والمصير. لا يستطيع أي إنسان مفكّر أن يتجنّب هذا البحث الذي لا يمكن أن يتوقّف إلّا عندما يقتنع بأنّ الأجوبة التي تبناها هي أجوبة حقيقية. كان أرسطو Aristotle محقًا حين ارتأى أنّ كلّ الفلاسفات تبدأ بالذهول. لكن دعوني أوكد لكم أنّ الرحلة ستستمرّ فقط من خلال الحقيقة.

يمكن للمبادئ الثقافية أن تتغيّر وتستقرّ بطرق غير ثابتة. هذه التغييرات تحدث الآن بمساعدة انتشار المعلومات والصور والتكنولوجيا التي تهاجم العقل بمغريات مختلفة. هناك سؤال يجب أن نجيب عنه خلال هذا الانتقال الدراماتيكي الذي نشهده، إن أردنا أن نحافظ على جوهر الحياة، والسؤال هو: «ما هي الحقيقة؟»

مؤخرًا، وبعد أن ألقيت محاضرة أمام مدراء رياضيين أتوا من أماكن مختلفة من العالم، اختلطتُ بطريقة غير رسمية مع عدد كبير من هؤلاء

المندوبين. بالنسبة إلى بعضهم كانت هذه أول مرة في حياتهم يشاركون فيها بمؤتمر من هذا النوع. ما زلت أتذكر واحداً من هؤلاء المندوبين بشكل خاص، كان قد أتى من ألمانيا الشرقية سابقاً. وبشكل طبيعي، طرحتُ عليه موضوع التحوّلات الجذرية في بلاده بعد تفكيك حائط برلين Berlin، وسألته كيف يواجه المواطنون هذا التغيير التاريخي. أثارت إجابته دهشتي على الرغم من أنّه أجايني في السياق الرياضي. تكلم عن الشعور العميق بالخيانة الذي شعر به رياضيّو ألمانيا الشرقية، خيانة القيادة السياسية التي قادت بلادهم نحو الإفلاس فيما كانوا يفتخرون بتفوّقهم في الألعاب الأولمبية. كانت أغلب التعليقات التي سمعها هذا القائد على الشكل التالي: «لقد كذبوا علينا»، «لقد استغلّونا»، «لقد كذبوا علينا بخصوص الماضي، والحاضر والمستقبل. بعنا أنفسنا لخدمة الدولة، والآن نرى كيف كنا نُسْتَغَلّ. كان نظامنا مصاباً بأمراض مزمنة كالمذابح والفساد والمكائد.»

هذه الانتهاكات الفظيعة المُرتكبة في حقّ البشرية وأمثالها فرضت ثمناً غير قابل للاسترداد على حياة البشر وآلامهم. نحن الذين ننعم بامتياز الحرية، فقط نهزّ رؤوسنا أسفاً على الذين دفعوا ثمناً باهظاً من جراء هذه الانتهاكات.

لكن دعونا نتوقّف فترة. ما هي الأكاذيب التي تعرّضنا لها؟ أرى على كلّ جوانب الطريق لوحات إعلانية تعدّ بالسعادة بعد شراء سيارة جديدة أو بيت جديد. يوكّد لنا المتخصّصون بتربية الأطفال أنّه إن أخبرنا أولادنا عن الجنس فستقلّ حالات الحمل عند المراهقات وستقلّ الأمراض التي تصيب الجهاز التناسلي. والمتخصّصون في علم الاجتماع يوكّدون لنا أنّ تثقيف الناس حول مخاطر المخدرات سيرفع هذا البلاء عن قارّتنا إن قلنا فقط «لا» للمخدرات. ويوكّد السياسيّون أنّ التكنولوجيا والاتصالات ستقود إلى فهم أفضل وإلى السلام. ويوكّد واضعو التشريعات والقوانين، أنّ القوانين الجديدة ستستأصل التوتر العرقي. والآن نسمع وعوداً بأنّه

لو أَلغينا الله من التعليم والتدريس وأخرجنا الخالق من برامجنا الكبيرة فسنكون بحالة أفضل.

إلاَّ أنَّ الإزدواجية التي انبثقت من القادة السياسيين والمشتريين، وحتى من بعض تجار الدين، نتج عنها جيلٌ من الشباب اللامبالي والمتشائم والخائف. في أثناء دراسة أُجريت منذ سنوات قليلة، سُئِلَت مجموعة من الشباب الكنديين هذا السؤال: «ما هو الأمر الذي تتمنى أن تحصل عليه أكثر من أي شيء آخر في الحياة؟» فكانت الإجابة التي احتلت المرتبة الأولى والتي تكشف عن المأساة التي يحياها مجتمعنا: «شخص أثق به.»

وهكذا ننقل من الطفل الذي تبرق عيناه حين يكون في عالم الخيال، إلى عالم المعرفة والحقيقة القاسي، وقد أصبحت الحقيقة عنصراً في طريق الانقراض، وليس من ضمانة لحمايتها.

إنَّ أفضل دليل على هزال الحقيقة هو حادثة إسقاط الطيران الحربي الروسي للطائرة التابعة للخطوط الجوية الكورية ٠٠٧، منذ سنوات قليلة. وما زلنا إلى هذا اليوم نتساءل إن كانت الحقيقة حول ما جرى قد انجلت. ربما تذكرون أنَّ القادة الروس أحاطوا القصة فوراً بتصريحات واستنكارات وخرائط وقادة عسكريين، مجلجلين بأوسمة معلقة على صدورهم، ليُخبروا العالم بما حدث، حسب روايتهم. أحد أقوى الادِّعاءات التي قدّموها في دفاعهم أنَّ مصابيح الملاحة الجوية للطائرة الكورية لم تكن مُضاءة حتى حين أُمِرَ قبطان الطائرة بإضاءتها. بعد فترة من الزمن، وَجَدَت شبكة استخبارات أخرى في البلاد الشريط المسجَّل للحوار الذي جرى في قمرة القيادة. استضاف كلٌّ من الأمريكي تاد كوپل Ted Koppel، مقدّم نشرة الأخبار، ومساعدته وليم سافير William Safire، فلاديمير پوسنر Vladimir Posner الذي كان يعمل في جريدة روسية اسمها پرافدا Pravda لإجراء مقابلة معه. حين بدأ سافير وپوسنر الكلام،

ذَكَرَ سافير پوسنر أَنَّ شريط التسجيل الذي يحتوي كلَّ الحوار في قمرة القيادة أصبح موجوداً ومتيسراً. أَقرَّ پوسنر بهذا الواقع. وجرى الحوار على الشكل التالي:

«سيد پوسنر، ما زالت السلطات في بلادك تُصِرُّ على أَنَّ الطائرة الكورية ٠٠٧ لم تُضَيِّ مصابيح الملاحة.»

أجاب پوسنر: «هذا صحيح.»

«لكننا نسمع في الشريط المسجَّل قبطان طائرتكم يقول إِنَّ المصابيح كانت بالفعل مُضاءة.»

فردَّ عليه پوسنر قائلاً: «نعم، الأضواء التي قصدها هي أضواء رفيقه في الطائرة الأخرى التي كانت تحاصر الطائرة الكورية.»

تراجع وليم سافير إلى الوراء مبتسماً وقال: «لكن الشريط المسجَّل يقول حرفياً: «مصابيح الهدف مضاءة.» منذ متى يُشير رفقاؤك الطيارون إلى طائرة رفيق آخر بكلمة «الهدف»؟»

وقع صمت مفاجئ وواضح على السيد پوسنر، ثم تمتم بعض الكلمات لكي يوجِّه الحديث بذكاء لتغيير الموضوع. وبينما كنت أستمع إلى الحوار بدأتُ أفكر بسخرية في ما يحدث، لأنَّ الكلمة «براقدا» كانت تعني «الحقيقة». واسمحوا لي أن أضيف أَنَّهُ مع التغييرات التي تحدث على مسرح الجغرافيا السياسية، أصبح السيد پوسنر وبطريقة غريبة، كما عرفت، شخصية إعلامية تُستضاف بانتظام في برنامج إخباري مع فيل دوناهيو Phil Donahue. سأمتنع عن التعليق أكثر على هذا الموضوع وأكتفي بالقول، إِنَّ هذا هو الإيضاح المطلق عن سخرية الإعلام.

«الكثير»، في الأساطير اليونانية، لم يَعد وحشاً خرافياً بعد اليوم، إذ يمكن للهجين أن ينقل إلينا الأخبار. من المثير للعجب أَنَّ مالكولم

ماغريدج Malcolm Muggeridge الذي كان صحافياً أصبح الساخر النموذجي، حيث شهد على الرياء والتلاعب بالناس بواسطة الوسائل الإعلامية التي أتقنها خير إتقان. والعنوان الثانوي لسيرة حياته الذاتية هو «تاريخ سنوات مهدورة» *A Chronicle of Wasted Years*. اسمعوا كيف وضع النظام الدكتاتوري والنظام الديمقراطي وجهاً لوجه، إضافةً إلى الكذب الذي صدّقناه جميعاً.

ومع هذا، فإنّ الحقيقة جميلة جداً، حتى إنّها، برأيي، أجمل من العدالة التي نسعى إليها في عصرنا هذا، والتي بسهولة تضع وجهاً زائفاً. خلال العقود السبعة التي عشتّها، امتلأت الأرض من سفك الدماء والانفجارات التي لا يكاد الغبار الناتج عنها يهدأ حتى ينفجر آخر، وكلّ هذا يتمّ تحت شعار القضايا العادلة. فالبحث عن العدالة ما زال مستمراً، والأسلحة والبغض يتكدّسان، والحقيقة أصبحت الضحية الأولى. كَذِبٌ على أساسه خُصّنا حروبنا وأبرمنا معاهداتنا؛ كذب على أساسه أشعلنا ثورة وقمعنا ثورة أخرى؛ كَذِبٌ الإعلانات، والأخبار، والتجّار، والسياسيين؛ كذب الكهنة على المنابر، والبروفيسور على منصّته، والصحافي على الآلة الكاتبة؛ كَذِبٌ يعلق كحسك السمك في حنجرة المذيع. أخبرني إيجنازيو سيلون Ignazio Silone مرّة، حين كان عضواً في جمعية الأحزاب الشيوعية السابقة كومينترن Comintern، كيف كانوا يناقشون خدعة حربية. وكان بينهم مندوبٌ قد جاء حديثاً ويحضر معهم أول مرّة. قدّم لهم هذا الموفد ملاحظة رائعة، بأنّهم لو قالوا كذا وكذا في تصريحاتهم، فلن يكونوا صادقين. خَيّم الصمت لحظات على المكان، ثم راح الجميع يقهقهون. ضحكوا ثم ضحكوا إلى أن بدأت الدموع تنهمر من أعينهم، وبدا كأنّ جدران الكرملن تهتزّ.

يُسمع صدَى هذه الضحكات نفسها في كلّ قاعات المجالس
النيابية والوزارية حيثما يجتمع شخصان أو أكثر لممارسة
القوة والسلطان. الحقيقة، هي التي ماتت وليس الله.^١

ثم تابع موجّهاً لائحة من الاتّهامات إلى عالمنا منتقداً بشكل أعمق،
مع أنّه لمَح إلى الحل مشكوراً في الأسطر الأخيرة؛ قال:

في هذا البحر الكبير من الخيال والغشّ، كيف يمكن لي أو
لأي شخص آخر أن يسبح من دون عوائق؟ كيف يمكنني أن
أتعلّم أن أرى من خلال العين وليس بواسطتها؟ كيف أخلع
عني ألواني، وأغتسل من مساحيق التجميل، وأرفع الغطاء
الحديدي، وأطفئ أنوار الأستوديو والمؤثّرات الصوتية
والكاميرات؟ كيف أراقب شروق الشمس في شارع سانست
بولفارد Sunset Boulevard وغروبها في فورست لاون
Forest Lawn؟

كيف أجد الأثاث في زوايا الأستوديو، والصمت في المقاهي
الليلية والحبّ في رقصات التعريّ؟ كيف أقرأ الحقيقة على
ملقّن النصوص، أو ألتقطها على الشاشة، أو ألاحقها على
الذبذبات الهوائية؟ كيف أشاهدها بألوان حيّة مع الأخبار،
وأسمعها بأصوات حيّة على الطرقات السريعة؟ هي ليست
في الزوابع التي تسكن الجبال وتحطّم الصخور، وليست
في الهزّة الأرضية التي تلي الريح، وليست في النار التي
تلي الهزّة الأرضية. هي في الصوت الخافت، المنخفض.
ليست كذلك في صرير العجلات، أو أزيز الفرامل، ليست في
هدير الطائرات أو صفارات الإنذار، وليست في صوت آلة
الترومبون المنخفض، وقرع الطبول. هي في ذلك الصوت
الهادئ المنخفض، إن كنت قادراً على التقاطه.^٢

لقد لمس ماغريدج عصب المشكلة هنا، حين تطرّق إلى بحثنا عن المعنى بعيداً عن الحق. فوصفه للكذب الملتصق بحنجرّة المذيع كحسك السمك، هو وصف مؤلم ومعبر. فالنظريات السياسية المتعدّدة قد تهبنا مقاييس مختلفة للعيش، وأنا لا أقلّ أبداً من شأنها. إلا أنني أقول إنّ هذه الاختلافات تستطيع بكلّ سهولة أن تحجب بعض الأمور الأساسية المشتركة التي تتعلّق بالحالة البشرية الجوهرية. إن لم نفهم هذا، نخدع أنفسنا بشكل مضاعف. يُلفت يسوع انتباهنا بشكل واضح إلى سبب هذه العلة الشائعة.

٥ الحكم عليه أحكامنا

نقرأ في الحوار القصير والهام الذي جرى بين يسوع وبيلاطس البنطي، أنّ بيلاطس سأل يسوع: «هل أنت ملك؟» نستطيع أن نتخيّل ابتسامة تهكمية على وجه هذه الدمية التي تتلاعب بها يدا القيصر، وهو يسأل عمّا إذا كان هذا النجّار اليهودي ملكاً.

أجابه يسوع بسؤال: «هل تسأل هذا السؤال من نفسك، أم أنّ أحداً طلب منك أن تسألني؟» استخدم يسوع هذه الطريقة في الإجابة بسؤال آخر مراراً وتكراراً لأهداف واضحة، فهي تُجبر السائل أن يبدأ كلامه بفرضياته الخاصة.

غضب بيلاطس ممّا اعتبره وقاحة من يسوع. أجابه بيلاطس: «أنظر، لم أحضرك أنا إلى هنا، بل شعبك هو الذي أحضرك إليّ.»

أجابه يسوع: «مملكتي ليست من هذا العالم. لو كانت مملكتي من هذا العالم لكان خدامي يجاهدون لكي لا أُسلم. ولكن الآن ليست مملكتي من هنا.»

قال بيلاطس: «آه، إذا أنت ملك.»

كشفت إجابة يسوع التالية عن المأزق الحقيقي الذي كان يتخبط به بيلاطس: «أنت تقول إنني ملك. لهذا قد ولدت أنا، ولهذا قد أتيت إلى العالم لأشهد للحق. كل من هو من الحق يسمع صوتي.»

كانت إجابته حاذقة وجريئة في آن. فلم تكن المشكلة الأساسية التي كان يسوع يعريها أمام بيلاطس وأمام العالم في قلّة الحقيقة، بل غالبًا ما تكون هذه المشكلة في ريائنا عندما نبحث عن الحقيقة. قال يسوع إنّ الصدق في القلب يسبق الحقيقة في العالم الموضوعي. النية تسبق الفعل. العبارة الأكثر استفزازية التي نطق بها يسوع خلال ذلك الحوار هي أنّ صدق أوزيف قلب الإنسان يُعرف عند تجاوب ذلك الإنسان مع المسيح. لا يوجد مساومة فيما تضمّنته إجابة المسيح. هو كان الحق وما زال. قراكم سيكشف عن نفسك أكثر ممّا سيكشف عن المسيح.

لقد كان بيلاطس الإيضاح المثالي للنقطة التي أراد يسوع أن يوصلها. قال له بيلاطس متممًا: «ما هو الحق؟» ولم ينتظر إجابة على سؤاله. أعتقد أنّه كان يعرف الإجابة، لكنّه كان مستعبدًا للسلطان الذي كان يسعى للحصول عليه، وللطموحات السياسية التي كان يريد إنجازها. لم يكن بيلاطس يبحث عن حل، بل كان يبحث عن مخرج (أنظر يوحنا ١٨: ٢٨-١٩: ١٦).

٩ ضائم في التفسير

دعوني أتطرق إلى مسألة الحقيقة المجردة من الخارج، وإلى الصدق مع النفس في الداخل، من زاوية مختلفة. أنا من الهند، وزوجتي من كندا؛ واللغة الهندية كانت إحدى اللغات التي أتقنتها. للغة، طبعًا، قدرة فريدة لفتح عالم الخيال، وهي مصدر غنى للذاكرة. وعلى الرغم من أنني تركت الهند منذ سنوات طويلة، فإنّ اللغة الهندية ما زالت تستطيع أن توصل بعض المفاهيم إلى عقلي، في الوقت الذي لا تستطيع

اللغة الإنكليزية أن تفعل ذلك. فكثيراً ما أكون مع أصدقاء لي من الهند، فيُبدى أحدهم ملاحظة باللغة الهندية تُضحكننا نحن الذين نفهم هذه اللغة.

تسألني زوجتي دائماً: «ماذا قال؟» فأترجم لها فوراً ما قيل، وأنا أعلم كيف ستكون ردة فعلها: لن تضحك ولن تفهم حتى عمّا كنا نتكلم، ثم تقول لي: «ما المضحك في هذا؟» وتضيف: «أنا أعلم أنه لا بدّ أنّ المعنى قد فُقد خلال الترجمة.» أي واحد منكم عمل في حقل الترجمة سيفهم هذا الموضوع بشكل جيد.

هل سمعتم الرواية الشعبية عن اللصّ المحترف خوسيه ريفارا José Rivera الذي أصبح مشهوراً بسرقة مصارف ومتاجر عديدة في تكساس Texas؟ بعد أن تعب الناس من غزواته ونهبه المستمر لهم، استخدموا شرطياً متخفياً لكي يتعقب خوسيه ريفارا المختبئ في المكسيك Mexico ويسترجع الأموال. وصل الشرطي أخيراً إلى مقهى متداعٍ في منطقة مقفرة. دخل المقهى فرأى شاباً يستمتع بشرب كأس من الخمر. ثم رأى على إحدى الطاولات رجلاً جالساً وهو يشخر واضعاً يديه على بطنه الكبير، وقبعة تغطي عينيه. تقدّم الشرطي بشجاعة نحو الشاب، وقال له إنّه في مهمّة لإلقاء القبض على خوسيه ريفارا حياً أو ميتاً. ثم سأل الشاب: «هل يمكنك أن تساعدني لكي أجده؟» ابتسم الشاب، وأشار بأصبعه إلى الرجل الكبير وقال له: «هذا هو خوسيه ريفارا.»

شدّ الشرطي حقويه وتوجّه نحو اللصّ النائم. هزّه من كتفه وسأله: «هل أنت هو خوسيه ريفارا؟» تمتم الرجل قائلاً: «لا أتكلم الإنكليزية.» فطلب الشرطي من الشاب أن يأتي لكي يترجم له.

كان الحوار مُملاً. كان الشرطي يتكلم بالإنكليزية، والشاب يترجم إلى الإسبانية. أخيراً، صوّب الشرطي مسدّسه نحو رأس خوسيه ريفارا وقال له إنّه أمام خيارين: إمّا أن يعترف أين خبأ الأموال المسروقة

ويسلمها فيتركه حرّاً طليقاً، وإمّا أن يُرديه قتيلاً في الحال. وترجم الشاب هذا الإنذار.

استوى خوسيه ريفارا في جلسته، ثمّ قال للشاب: «قلّ له أن يخرج من المقهى، ويذهب يميناً مسافة ميل واحد تقريباً وسيجد بئراً. وقرب البئر شجرة ضخمة، وقرب جذع تلك الشجرة لوحة من الإسمنت، ثقيلة لدرجة حتى إنّه سيكون في حاجة إلى مَنْ يساعده على رفعها. تحت تلك اللوحة، يجد الجواهر والأموال التي سرقتها كلها.»

التفت الشاب إلى الشرطي، وفتح فاه لينقل الكلام، لكنه تلعث كثيراً وتردّد أكثر... ثم قال: «يقول لك خوسيه ريفارا... يقول لك خوسيه ريفارا... «هيا، أطلق النار.»»

لقد فقدَ شيء خلال الترجمة، أليس كذلك؟ لم يكن الجهل بسبب غياب المعرفة، بل بسبب كتمان الحقيقة. وأنا أسألكم، هل نحن فعلاً في حاجة إلى أن نقول للنخبة في هوليوود Holloywood إنّ الشاشة تُعرض كثيراً من العنف، وتعلّي من شأن الفساد والانحطاط؟ هل نحن فعلاً في حاجة إلى أن نُحذّر مجتمعنا من خطر ممارسة الجنس غير الشرعي؟ نعم ولا. نعم، علينا أن نُحذّر أولادنا من مزالق الفساد الأخلاقي الذي يتعرّضون له. ولا، لأنّ كثيرين من الناس غير مهتمّين بالحقيقة، فالمشكلة تكمن في الإرادة.

❧ مشاهد وهياكل

ينتج عن كتمان الحقيقة المتعمّد هذا، هجومٌ على ما هو مقدّس، حين يسعى الإنسان نحو النجاسة. فكّروا معي للحظات في هذا الموضوع. لماذا، من بين كلّ الخيارات التي يمكن أن نلجأ إليها في عالم الترفيه، غالباً ما يُستخدم الجنس والعنف لدغدغة المشاعر؟ لماذا لا نستخدم

الضحك الصحي؟ لماذا لا نستخدم الإثارة الأخلاقية؟ لماذا لا نستخدم الإيضاحات المعيارية لنعرّف عن البيت المثالي؟ لماذا لا نكون مبدعين وخلاقين وشرعيين في استخدام الترفيه بدلاً من أن نستخدم الترفيه المدمر والعدواني؟ هل تسمحون لي أن أقترح إجابة عن هذه الأسئلة؟

يُخبرنا الله بأنه خلقنا على صورته ومثاله. نراه في سفر التكوين يجازي بشدة على جريمة القتل، لأنّ القتل هو اعتداء مباشر على كرامة الإنسان المخلوق على صورة الله ومثاله. وعندما نتأمل أكثر في الكتاب المقدّس، نجد أنّ يسوع ذكر أتباعه بأنّ العبادة الحقيقية ليست في بناء من طين أو حجر. فالجسد البشري نفسه هو هيكل الله.

هاتان الحقيقتان: البشر المخلوقون على صورة الله ومثاله، وجسد الإنسان هو هيكل الله، يُشكّلان تعليمين أساسيين في الكتاب المقدّس. فماذا ستكون نتيجة الترفيه بواسطة النجاسة؟ لن تكون سوى هجوم على هذين المبدئين المتعلقين بجوهر البشرية. العنف يشوّه صورة الله، والنجاسة تدنّس هيكل الله. لقد انتهكت صورة الله ودنّس هيكل الله واستبدلوا بآلهة عصرنا وأوثانه. وهكذا، حين لام نائب الرئيس دان كوايل Dan Quayle هوليوود على ما تنتجه، انتقد بقسوة لأنّه تعرّض لأوثان عصرنا. وعلى الرغم من أنّ مجلة «أتلنك مونثلي» Atlantic Monthly عنونت غلافها «كان دان كوايل على حقّ»، فأى فرق سيحدث هذا الاعتراف إن لم يكن أحد مهتمّاً بالحقيقة بعد الآن؟ فقدان الحقيقة، كما هي الحال بالنسبة إلى فقدان الذهول، يدخل شيئاً فشيئاً في حياتنا اليومية ويترك آثاراً وخيمة على المجتمع.

⑤ شخصي، ليس مجرد افتراضي

الرسالة المسيحية هنا أيضاً فريدة في نوعها وتعطينا تلميحات يساعدنا في التحرّر من هذه الحالة الخائفة. فكما أنّ الذهول موجود

في الإنسان، يؤكّد لنا الكتاب المقدّس أنّ الحقيقة تجسّدت بالكامل في إنسان، وهذا الإنسان هو يسوع المسيح. لا يعطينا المسيح أجوبة عن أسئلة الحياة فحسب، بل هو الإجابة في حدّ ذاته. مرّة أخرى، لا نجد الحقيقة في الأفكار التجريدية أو في الثوابت العقائدية، بل نجدها حين نعرف المسيح. حين سأل الرسول توما يسوع أن يريه الطريق إلى الله، أجابه يسوع: «أنا هو الطريق والحق والحياة. ليس أحد يأتي إلى الآب إلاّ بي» (يوحنا ١٤: ٦).

نستطيع أن نستنتج أمرين واضحين من هذا الإعلان الذي أعلنه يسوع: أولاً، الحقيقة هي مطلقة، وثانياً، يمكن معرفة هذه الحقيقة. الإعلان بسيط، فالحقيقة بكلّ بساطة هي ما يكون. والباطل يدّعي أنّه شيء ما، لكنه ليس كذلك. في الواقع، وقبل هذه المحادثة مع توما مباشرة، تكلم يسوع عن حقيقة السماء وقال: «ولاً فإنّي كنت قد قلت لكم». كلّ ما يؤكّده يسوع عن الواقع يتوافق مع الحقيقة. وإن أنكر يسوع أي شيء عن الواقع، فإنّما ينكره لأنّ هذا النكران يتوافق مع الحقيقة.^٣

أكّرر من جديد: إنّ إعلان يسوع المطلق أنّه هو الطريق والحق والحياة يعني بشكل قاطع أنّ أي شيء يتناقض مع ما يقوله هو بحكم تعريفه باطل. أضع أمامكم تحدّياً، أن يكون عندكم الشجاعة لدراسة ما أعلنه وما علّمه يسوع، وستكتشفون رسالة تفتح أمامكم ببهاء وجمال وتشتمل على اتّساع حاجة الإنسان وعمق العقل البشري. هذا هو جمال حياة يسوع، أنّ الأطفال قادرون أن يفهموه، وفي الوقت نفسه، فإنّ أعظم المشكّكين أمثال بولس سيجثو على ركبتيه ويدعوه ربّاً.

هل تسمحون لي وبحريّة أن أعطيكم رأياً شخصياً؟ أقرّ بأنّه لن يكون أمراً مريحاً لي أن أعترف بأنّ الكنيسة تستحقّ أغلب الانتقادات التي اضطرت أن تواجهها. لقد ارتكبت أخطاء جسيمة عبر التاريخ من قبل أشخاص يُفترض أنّهم يعملون باسم المسيح. وللكنيسة صيت سيّء اليوم

في مناطق عديدة حول العالم، وغالبًا ما نكتشف، إن تأملنا جيدًا في الأحداث التي جرت، أن هناك أسبابًا وجيهة لازدراء الكنيسة. لكن يمكن أيضًا الوقوع في خطأ التعميم، لأنَّ الناس غالبًا ما يلاحظون الأمور السيئة أكثر من الأمور الجيدة. وما يُعرض من برامج تلفزيونية مسيحية في أيامنا هذه، لا يُذهل الملحد فقط، بل يجعل المؤمنين في موقف حرج. إنَّ الذين استخدموا اسم يسوع للمنفعة الشخصية سيقفون أمام الله لكي يحاسبهم. لكن لا أريد أن أشير إليهم أو إلى أي إنسان آخر، بل بالحري، أريد أن أوجهكم إلى شخص يسوع المسيح. تأملوا في شخصه وفيما يقوله عن نفسه.

في كتاب ماري تشابيان Marie Chapiان «لم يكن العالم مستحقًا لهم» *Of Whom the World Was Not Worthy* قصة رائعة. يتكلم هذا الكتاب عن آلام الكنيسة الحقيقية في يوغوسلافيا Yugoslavia، حيث ارتكب التسلسل الهرمي الكنسي المُسيَّس أخطاء جسيمة. وما حدث باسم المسيح لإثراء المسؤولين الفاسدين في الكنيسة وتقويتهم، كان وصمة عار للحشمة والآداب.

وصل في يوم من الأيام مبشِّر اسمه جاكوف Jakov إلى إحدى القرى. كان يُوَاسي رجلاً عجوزًا اسمه سيمّرمان Cimmerman على المآسي التي اختبرها وتكلّم معه عن محبة المسيح. قاطعه سيمّرمان فجأة وقال له إنه كان يتمنى لو لم يكن له أي علاقة بالمسيحية، وبدأ يذكر جاكوف بتاريخ الكنيسة المروّع في بلده، وهو تاريخ مليء بالنهب، والاستغلال، وبقتل الناس الأبرياء. قال: «قتلوا ابن أخي»، وكان يرفض بغضب أي محاولة من جاكوف للكلام عن المسيح. تابع وقال: «كانوا يرتدون معاطفهم الجميلة وقبعاتهم وصلبانهم، للدلالة على أنهم مرسلون من السماء، لكنني لا أستطيع أن أتجاهل أعمالهم وحياتهم الشريرة.»

انتظر جاكوف فرصة لكي يغيّر من مجرى تفكير سيمّرمان وقال له: «سيمّرمان، هل تسمح لي أن أسألك سؤالاً؟ افترض أنني سرقت معطفك، وارتديته، ثم ذهبت وسطوت على مصرف. تخيل أيضاً لو أنّ رجال الشرطة رأوني أهرب ولم يقدروا أن يعتقلوني. لكنهم عرفوا أنّ المعطف الذي ارتديه هو لك وبدأوا يبحثون عنك. ماذا ستقول لهم إن أتوا إلى منزلك واتّهموك بأنك الشخص الذي سطا على المصرف؟»

أجاب سيمّرمان: «سأنكر هذا الأمر.»

فقلت له: «لكنهم سيقولون لك: لقد رأينا معطفك.» انزعج سيمّرمان من هذا التشبيه وأمر جاكوف أن يخرج من منزله.

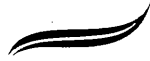
عاد جاكوف إلى القرية على نحو دوري لكي يصادق سيمّرمان ويشجّعه ويكالمه عن محبة المسيح. أخيراً سأله سيمّرمان ذات يوم: «كيف يُصبح الإنسان مسيحياً؟» وعلمّه جاكوف خطوات التوبة البسيطة عن الخطيئة وكيف يثق بيسوع المسيح ودلّه إلى راعي روحه. جثا سيمّرمان على ركبتيه وأحنى رأسه وسلّم حياته للمسيح. وحين وقف على رجليه، مسح دموعه وغمر جاكوف وقال له: «شكراً لأنك موجود في حياتي.» ثم أشار إلى السماء وهمس قائلاً: «أنت ترتدي معطف المسيح وتمثله بشكل جيّد.»

اعمل لنفسك معروفاً وارفع عينيك عن عيوب المؤسّسات والناس وعن البقع التاريخية المظلمة. اجعل تدقيقك على مستوى شخص المسيح وسترى أنّه يرتدي معطف أبيه ويمثّله بشكل جيّد. قال بيلاطس البنطي عن يسوع: «لم أجد في هذا الإنسان علّة» (لوقا ٢٣: ١٤). قال اللصّ على الصليب: «أمّا نحن فبعدل لأننا ننال استحقاق ما فعلنا، وأمّا هذا فلم يفعل شيئاً ليس في محلّه» (لوقا ٢٣: ٤١). نظر يسوع إلى الدّ أعدائه وقال: «من منكم يبكّني على خطيئة؟» لا يمكن لأيّ قائد دينيّ آخر أو مؤسّس آخر أو نبّي آخر أن يتحدّى الآخرين مثل المسيح. خطايا كلّ واحد

منهم واضحة تمامًا ولا يمكنهم إنكارها. يسوع وحده القادر أن يقف بلا ملامة وبلا عيب أخلاقي. قصص الجنّيات هي مجرد قصص خرافية رائعة، أمّا يسوع المسيح فهو حقيقي بشكل رائع.

عندما ادّعى يسوع أنّه الحق أوحى ضمناً أنّ كلّ ما يقوله هو حقّ ولا يقول إلاّ الحقّ. إن كان صحيحاً أنّ السعي الأساسي للحياة هو السعي وراء المعنى، على المعنى أن يكون ضمن حدود الحق، ولا يمكن أن تجد الحق بعيداً عن يسوع. حين نبحث عن ذواتنا، لن نعرف ذواتنا إلى أن نعرف المسيح. لقد عبّر يسوع عن حقيقة عميقة حين قال إنّّه أتى لكي يكشف قلوب البشر. هذا البحث المتّقد عن الذات سينتهي حين نجد يسوع، وحين نجد أنّه هو الحق. عندئذٍ فقط نتحرّر لكي نعمل مشيئة الخالق.

القَمَلُ العَاشِقُ



عمل المحبة قد اكتمل



حتّى الآن قدّمت لكم عنصرين أساسيين للمعنى: السعي وراء
الذهول، ومعرفة الحقّ. وشرحتُ أنّ كليهما يتحقّقان في شخص. والآن
وضّحتُ لكم أنّ المحبة هي العنصر الثالث للمعنى. فابتداءً من الذهول
الذي نختبره في الطفولة، إلى البحث عن الحقيقة في عمر المراهقة،
نصل إلى تحقيق المحبة في سن البلوغ. قال كريستوفر مورلي
Christopher Morley: «إنّ اكتشفنا جميعنا أنّ لدينا فقط خمس دقائق
لنحيائها ولنقول آخر ما نريد أن نقول، لأصبحت كلّ مراكز الهاتف العامّة
مزدحمة بأشخاص يتصلون بعضهم ببعض لكي يقولوا إنّهم يحبونهم.»^١
لن يُنكر أيّ منّا الدور الذي يُمارسه الحبّ، والذي لا غنى عنه في ملء
حياتنا بالمعنى، وهذا يفسّر لماذا نشعر بالدمار حين يُفقد الحبّ.

أبدى ج. ك. تشسترتون G. K. Chesterton هذه الملاحظة الصائبة
حول الحبّ والزواج:

لقد اخترعوا عبارة جديدة من كلمتين متناقضتين كتناقض
الأبيض والأسود، إنّها «الحبّ الحرّ». كما لو أنّ المُحبّ كان
أو سيكون حرّاً. من طبيعة الحبّ أن يربط نفسه، ومؤسسة
الزواج لا تفعل شيئاً سوى أنّها تُثني على الإنسان العادي
لأنّه التزم وعده.^٢

بالنسبة إلّي، فإنّ العبارة التي تعبّر عن مفهوم الحبّ بكلّ وضوح،
ومع هذا تبدو غريبة عن مجتمعنا الاستهلاكي، هي عبارة «طبيعة الحبّ
أن يربط نفسه». في الواقع، إنّ مفهوم الحبّ اليوم يمكن وصفه بكلّ

جدارة بأنّه إشباع الذات، أو الانغماس في اللذة. لقد كانت لي فرصة في حياتي أن أدرس المفاهيم الثقافية المتناقضة وتعايير ما نسميه نحن البشر، الحبّ.

إنّ الإخلاص والالتزام ودور العلاقات لها مكانة هامة في المجتمع الشرقيّ. أمّا في الغرب، فقد أصبحت الرومانسية هي خلاصة الحبّ وجوهره. علينا دمج الإثنين معاً، لأنّ الزواج مُتعبٌ وشاقٌّ من دون الرومانسية؛ كما أنّه من دون قوّة الإرادة والالتزام يُصبح الزواج سخرية.

لكن، سواءً في الشرق أم في الغرب، فثمّة أمرٌ يحدث إبانَ سنوات المراهقة والشباب، فيُجري تغييراً جذرياً في الخبرة البشرية. في هذا العمر، يختفي زهول الطفولة ويستمرّ البحث عن الحقيقة، فيُمتَحَن صدق القلب بواسطة الحبّ. وكلّ عواطفنا مجبرة هنا أن تواجه امتحان الشخصية والأصالة. هنا تغادر المبادئ التي كانت الشموليةً برحبها الفلسفي العاجي، لتُمتَحَن في غرف النوم وغرف الجلوس في بيوتنا.

هنا نضع كلّ العبارات المضادة لله، والتساؤلات التي نطرحها عن عدالة الله جنباً إلى جنب مع ممارستنا للحقيقة، وغالباً ما تُظهر تضارباً جلياً بين كلمائنا وأفعالنا. ولن نستطيع أن نعتبر الإنسان جدّيّاً، ما لم يكن أميناً مع التزامه نحو الحبّ، حين يدافع عن خداعه بالقول إنّّه كان نتيجة غياب مقياس موضوعي للحقيقة. فما يغيب بشكل واضح هو الاستقامة والنزاهة الموجودة ضمناً في الحبّ. نقول إنّ الحبّ سيغيّر العالم، بينما في الواقع ما سيغيّر العالم هو البحث عن حب أمين عزيز.

لقد خدعنا للأسف أنفسنا في اللغة الإنكليزية عندما استخدمنا كلمة واحدة هي الحبّ وأطلقناها على مختلف العلاقات. ففي اللغة اليونانية أربع كلمات مختلفة، تصف كلّ واحدة منها نوعاً مختلفاً من الحبّ.

فالكلمة أغابي *agape* تُشير إلى الطاهر، وهي ذات دلالة خاصة إلى الله. والكلمة فيليو *phileo* تُشير إلى الحبّ في الصداقة. والكلمة ستورجاي *storge* تصف حبّ الأهل. والكلمة إيروس *eros* تشير إلى الحبّ الرومانسي.

لاحظوا جيّدًا أنّه على الرغم من وجود نوع واحد من المحبة الجسدية، فإنّها جميعها تتضمّن الالتزام. لكن في مجتمعاتنا، حين نتكلّم عن الحبّ فغالبًا ما يُقصد به الحبّ الجسدي مجرّدًا من الالتزام. إنّهُ لمن الغرابة أن نقول إنّ العلاقة الجنسيّة هي «ممارسة الحبّ»، بينما في الواقع، لو تمّت هذه العلاقة من دون التزام حقيقي، فإنّها تعرّي الحبّ بشكل حرفي ومجازي في آن، فيُحطّ من قيمة الفرد لكي يُصبح مجرّد أداة. فحبّ اللحظة العابرة لا يُسمّى حبًّا. وحين يكون الحبّ سطحيًّا يكون القلب فارغًا، لكن حين يفهم الإنسان تضحية الحبّ، يستطيع أن يشرب من كأس الحبّ حتى الارتواء.

لننقل من مقارنة الحبّ في الزواج إلى حبّ الأهل لأولادهم، لأنّ هذا النوع من الحبّ يشترك فيه الشرق والغرب. إنّ للأطفال قيمة كبيرة، إنّ في غابات الإكوادور Ecuador، أو غينيا الجديدة New Guinea، أو في قاعات العمليات والصفقات التجارية في طوكيو Tokyo، أو نيويورك New York، أو لندن London. كلّ قطاعات المجتمع تشترك في محبة الأهل لأولادهم، من أبسط مستوى إلى أعلى مستوى.

رأيتُ تعبيرًا عن هذه العاطفة مرّات عديدة في مواقف غريبة وغير متوقّعة. فأبني شخص يقود سيارته في شارع من شوارع الهند المزدحمة بالناس، يلاحظ خدعة ذكية يمارسها شحّاذون «محترفون». فبينما يلاحق الشحّاذ سائق السيارة يرسم على وجهه تعابير تدلّ على عوزه وفقره المدقع، وهي تعابير تدربّ عليها الشحّاذ مرارًا كثيرة لكي يتقنّها. لكنّ هذه الطريقة لا تضمن دائمًا التأثير في سخاء عابري السبيل. أمّا «الحيلة» الأخيرة التي يلجأ إليها الشحّاذ، فهي حين يحمل طفلًا صغيرًا

بين يديه ويريه للمحسنين في محاولة منه لإثارة أي ذرة من شفقة المحسن الإنسانية.

إنه لإحساس طبيعي وعالمي في قلب الإنسان، ملكاً كان أم شحاذاً، أن نغدق محبتنا لأطفالنا وأن نهتم بأولادنا. هذه المحبة ما زالت الحد الأدنى للتمدن، وغالباً ما نضرب مثلاً عن محبة الأم كونها أسمى أنواع المحبة. لهذا السبب يُطلب من الأمهات المسافرات في الطائرة أن يضعن أقنعة الأوكسيجين أولاً على أفواههن قبل أن يضعنها على أطفالهن، لأن غريزة الأمومة الطبيعية تخالف هذا التدبير.

لاحظت أيرما بومباك Erma Bombeck أنها تقدمت في السن حين اضطرت ابنتها التي كانت تقود السيارة أن تدوس بقوة على الفرامل، وبشكل غرائزي وضعت الابنة يدها أمام والدتها لكي تحميها من الاصطدام. حقاً إن تضحية الحب تقلب الأدوار.

أعتقد أنه يجب أن نتوقف لحظة هنا لكي نفهم النقطة التي أحاول أن أشرحها لكم. فالمبدأ الجامع في المحبة الرومانسية ومحبة الأهل لأولادهم هو نفسه، إنه مبدأ الشرف والوفاء. يمكننا إيصال عنايتنا وحبنا إلى أولادنا إن علمناهم أن طبيعة الحب هي أن يحترم الإنسان ما التزمه، أي أن يربط نفسه. إن لم نفهم هذا الأمر، فكل ما نقوم به هو مجرد تحويل أنانيتنا المثيرة للشفقة إلى قناع الحب. حين نفهم الحب الحقيقي، يفتح العالم على الحقيقة التي تغمر القلب بالدفع. فالحب والتضحية يسيران جنباً إلى جنب، وكلما استهلكنا من الحب، أغنينا الروح. كلما أنفقنا حبنا على أنانياتنا ازداد بؤسنا وفقرنا.

٥ التسلُّق نحو القِمة الخطأ

دعوني أخبركم قصتين مأساويتين مختلفتين لكي تتأملوا فيهما. واحدة حقيقية والأخرى عبارة عن مثل. إن التأمل في الأفكار الناتجة

عن هاتين القصّتين، سوف يعطي فكرة أخرى عن مدى جوعنا العميق الذي يشير إلى أبعد من ذاته، أي إلى الإنجاز الكامل الذي نسعى لتحقيقه. وماذا نريد أكثر من هذا، فإن كنا حزينين في تحليلنا لتلك المشاعر التي تجتاحنا حين نسمع قصة كهذه، فإنّ الاستنتاجات التي سنستخلصها ستفتح أمامنا كنزاً يسدّ أعظم حاجة لدينا. كلّ قصّة منهما مأساوية بطريقتها الخاصة، لكن، لكليهما منفذ. لا شك أنّ كثيرين منكم يتذكّرون الأغنية الشعبية *Cat's in the Cradle* التي غناها هاري تشابين Harry Chapin. حين أسمع هذه الأغنية تدمع عيناى لأنّى والد، وعلى مرّ السنين اضطررت أن أسافر كثيراً. تقول كلمات الأغنية:

وُلد ابني ذات يوم،
ودخل بالطريقة الاعتيادية إلى العالم،
لكن كان عليّ أن أركب الطائرات وأدفع الفواتير،
تعلّم أن يمشي حين كنت مسافراً،
مشى قبل أن أعلم، وفيما كان يكبر،
كان يقول: «سأكون مثلك يا أبي.
نعم يا أبي، سأكون مثلك.»

الهرّ في المهد والملعقة الفضية كذلك،
الصبي الصغير ذات اللون الأزرق والرجل الكبير على القمر،
«متى ستعود يا أبي؟»
«لا أدري متى، لكننا سنلتقي،
وحين نلتقي سنفرح معاً.»

عمر ابني الآن عشر سنوات...
قال لي: «شكراً، أهديتني طابّة يا أبي، تعال العب معي.

هلاً علّمتني كيف ألتقطها؟»

أجبتّه: «لا، ليس اليوم، فأنا منشغل جداً.»

قال لي: «لا بأس عليك يا أبي.»

ذهب بعيداً وما زال مبتسماً.

وكان يقول: «سأكون مثله، نعم،

نعم، سأكون مثله...»

عاد من الجامعة ذات يوم،

أصبح رجلاً،

«يا ابني أنا فخور بك، هلاً جلست معي قليلاً؟»

هزّ رأسه وأجابني مبتسماً:

«ما أحتاج إليه، يا أبي، هو مفاتيح سيارتك.

سأراك لاحقاً، رجاءً، أعطني المفاتيح.»

تقاعدتُ من فترة طويلة، وانتقل ابني من البيت.

اتّصلت به ذات يوم،

قلت له: «أودُّ أن أراك، إن كنتَ لا تمانع.»

قال لي: «أودُّ يا أبي، إن سمح لي الوقت.

وظيفتي الجديدة متعبة، وأولادي مرضى.

لكن، بالطبع سررتُ بالكلام معك يا أبي،

حقاً، سررتُ جداً بالكلام معك.»

حين انتهى الاتصال

خطر في بالي،

كيف أنه كبر مثلي،
وكيف أنه يشبهني.

والهرُّ في المهد والملعقة الفضية كذلك،
الصبي الصغير ذات اللون الأزرق والرجل الكبير على القمر،
«متى ستعود يا أبي؟»
«لا أدري متى، لكننا سنلتقي،
وحين نلتقي سنفرح معاً.»^٢

اختبر تشاпин الأحداث المأساوية لهذه الأغنية في حياته كما لو
أنها نبوءة تتحقق فيه. وقد علمت أن زوجته التي كتبت كلمات هذه
الأغنية سألته ذات يوم، متى سيقرّر أن يقلل من أعماله ويقضي وقتاً
قليلاً مع أولادهما. كان جوابه لها: «عند نهاية هذا الصيف سأتوقّف عن
العمل وأقضي وقتاً معهم.» ومن سخريّة القدر، أن هاري تشاпин قضى
في حادث سيارة مأساوي، ذلك الصيف.

من المستحيل أن نقرأ هذه الملاحظة الأخيرة عن موت تشاпин ولا
نفهم مغزى القصة: غالباً ما يعلم الإنسان أمراً ويؤمن به ويكرز به، لكنه
قلماً يحياه. حين نسعى للحصول على تيجان من صنع البشر ونضحي
بعلاقاتنا الثمينة التي من أجلها خلقنا الله، تفقد الحياة معناها. لا شك
أن هذه القصة تُثير عاطفتنا، إلا أننا نشعر في داخلنا أن الحب قد تلاشى
حين خسرت الروح معركتها مع الجسد.

سأخبركم الآن بقصة مأساوية أخرى، وهي عبارة عن مثل سمعته
أول مرّة حين كنت صبيّاً صغيراً في نيودلهي New Delhi، حيث تنتقل
معلومات كثيرة بطريق الأمثال والعبر. هذه القصة ليست مختلفة عن
غيرها بأحداثها الغنيّة المأساوية وبالمبالغة التي يشتهر بها الشرق.

لكنها توافينا بحقيقة هامة وثابتة. أعذروني على فظاظة التفاصيل المذكورة في هذا المثل، لكن، لهذه التفاصيل قيمة ثقافية وحضارية في الشرق.

هي قصة عن شاب كان يعيش في قرية ووقع في غرام فتاة من قرية أخرى قريبة منهم. كان حبه لها حقيقياً وصادقاً، فطلب يدها للزواج. أمّا هي فلم تبادله مشاعر الحب نفسها، لكنها استغلّت مشاعره لمصالحها الشخصية. كانت تتلاعب به وتطالبه دائماً بأن يُثبت لها حبه.

أخيراً، بعد أن استنفدت كل خطتها، طلبت منه شيئاً لا يمكن تصوّره. قالت له: «إن كنت تحبني فعلاً، أريد أن تُثبت لي أنّه لا ينافسني على حبك أحد. ولكي تُثبت لي ذلك، عليك أن تقتل أمك وتُحضر لي قلبها كبرهان لانتصاري على حبك لها.» بقي الشاب مرتبكاً بشدة لأسابيع عدّة، وكئيّباً أمام خياراته. لم يقدر أن يتحمّل «خسارته» للفتاة التي أحبها، فذهب وقتل أمّه حين كانت وحدها واقتلع قلبها من جسدها. ذهب بأقصى سرعته لكي يُقدّم برهان حبه للفتاة التي أحبها، وكان شعوره بالذنب يُعذّبه بشدة. بينما كان يركض في منطقة مليئة بالأشجار تعثر وسقط وأوقع القلب من يديه. أخذ يبحث بلهفة عن قلب أمّه بين الأشجار المتشابكة. أخيراً، وجد القلب ورفعته عن الأرض وبينما كان يمسح الغبار عن ركبتيه، سمع صوتاً خارجاً من القلب يقول له: «يا ابني، هل تأذيت؟... يا ابني، هل تأذيت؟»

لم أكن في حاجة إلى أي شخص لكي يشرح لي العبرة من هذه القصة، أول ما سمعتها. حب الأم الذي لا يموت، كان واضحاً في جميع التفاصيل الدموية الأخرى. لكن اسمحو لي أن أطرح عليكم هذا السؤال: ما هو سرّ هذا الحب الذي يستحوذ على أعماق مشاعرنا؟ أليس السرّ بأنّ الأعظم غلب الأدنى، وبأنّ الروح انتصر على الجسد؟ في الواقع، دعونا ندخل إلى أعماق من ذلك؛ من أين أتى مفهوم هذا الحب أصلاً؟ اسمحو لي أن أقول لكم إنّ

حبًا مضحيًا نبيلًا مثل هذا الحب لا يمكن أن يكون نتيجة مادة غير عاقلة، لكن الخالق وضع هذا النوع من الحب فينا، وهذا الخالق هو الله نفسه. عبّر أوغسطينوس Augustine عن هذا الأمر بشكل رائع حين قال: «لقد خلقتنا لذاتك، ولن تستريح قلوبنا قبل أن تجد راحتها فيك.» فقدرتنا على معرفة الحب هي من الله. لهذا السبب، لا بد أن تكون شروط الحب والتضحية التي نجدها في الحب هي من الله. لا يخبرنا الكتاب المقدس بأن الله محبة فحسب، بل أن الله بيّن محبته هذه بشكل مطلق.

إن الدكتور إي. ستانلي جونز Dr. E. Stanley Jones، وهو مرسل مشهور ومعروف في الهند، وكان الجميع يحترمه حتى المهاتما غاندي Mahatma Gandhi، اعتاد أن يُخبر قصة عن مسؤول رسمي هندوسي متدين، حاول جونز أن يشرح له مفهوم الصليب. بقي هذا الرجل الهندوسي يكرّر له أنه لا يجد أي منطق في الصليب وفي محبة الله. كانت محادثتهما حول هذا الموضوع تدور في حلقة مفرغة، ولم يقدر جونز أن يجد حلاً مرضياً.

وذات يوم، ومن خلال سلسلة من الأحداث والظروف، تورط هذا الشخص في علاقة جنسية خارج إطار الزواج وكان ضميره يؤنبه. لم يعد قادراً أن يعيش مع نفسه، وأخيراً، تطلع في عيني زوجته المخلصة، وأخبرها قصة خيانتة المؤلمة. عاشت ساعات وأياماً طويلة تتألم، واستمرت على هذه الحال عدة أسابيع. وبينما كانت تُصارع صدمتها، اعترفت له ليس فقط بجرحها العميق، بل أيضاً بأنها ملتزمة حباً له حتى الموت.

فجأة، وبسرعة البرق الذي يضيء السماء المظلمة والأرض الواسعة، وجد نفسه يتمتم هذه الكلمات: «الآن عرفتُ ما معنى أن تصلب الخطيئة الحب.» جثا على ركبتيه عابداً مخلصه وغمر زوجته ووعدها من جديد بأنه سيلتزم حبه لها مدى الحياة. إن الشعور بمحبة الله الغامرة كان سبب كتابة المرنم هذه الكلمات:

يا أيها الحبّ الذي لا يتخلّى عني،

ألقي بروحي المثقلة عليك،

أعطيك الحياة التي أدين بها لك

لكي تفيض حياتي بغنى في أعماق محيط الحياة.

للحبّ متطلّباته. إنّه يتطلّب التضحية، لكنّ أولوياتنا في هذه الحياة السريعة الخطى، تنقلب رأساً على عقب، فنُدسّ المقدّس لنحمي المُدنّس. محبة المسيح هي التي تحدّد أولوياتنا وتسدّ حاجة القلب البشري ليُحبّ ويُحبّ. يسوع هو التعبير المُطلق عن الحبّ، وعندما نتعرّف به، نكتشف الحبّ الذي يُعطي معنى للحياة.

لكن ثمة مشكلة تعترضنا. فقد علّقت سابقاً على تأكيد د. هـ لورنس D. H. Lawrence القوي أنّه يجب أن يكون هناك أمرٌ ما، هو أكثر من الحبّ لكي يملأ فراغ القلب البشري، وهنا أودّ أن أعرض هذه الحقيقة المحورية التي يقدّمها لنا المسيح والتي تحملنا إلى أبعد من مجرد مفهوم العلاقة في الحبّ.

لو أردت أن تحاور بجدية أي فيلسوف ديني، حول مفهوم الحبّ في الديانات الأخرى، فإنّك ستُفاجأ بالنتائج التي ستطفو جرّاء هذا الحوار. ففي البوذية مثلاً، مؤسس البوذية نفسه، غوتاما بوذا Gautama Buddha، هجر زوجته وعائلته لكي يبحث عن سلام داخلي. ومفهوم الحبّ في الهندوسية، هو الشفقة. أمّا في الإسلام، فالخضوع لله الرحيم واجب. فقط في الإيمان المسيحي، تتّصف الحياة مع الله دائماً بعلاقة محبة، غير أنّ المحبة في التعبير المسيحي ليست مجرد شعور أو تعبير، إذ إنّ المحبة في العلاقة مع الله تنمو فتحوّل إلى عبادة. ستنتهي كلّ العلاقات الأرضية كما نعرفها حالياً. وفي العبادة فقط، يتلاحم الذهول مع الحقيقة وتفيض قلوبنا بمحبته. هذا الفيض الناتج عن العبادة يُغذي

كلّ العلاقات ويساعدنا أن نقدّس التزاماتنا ونحترمها. إنّ هذا المفهوم عميق جدًّا لدرجة أنّنا لا نستطيع تجاهله وسنوليّه اهتمامًا خاصًّا في الجزء الثالث من هذا الكتاب.

كان د. هـ لورانس محقًّا حين قال إنّ جوع القلب البشري الأعماق يذهب إلى ما هو أبعد من الحبّ. قال يسوع عن هذا «البُعد» إنه بُعد العبادة. وكان وولف Wolfe محقًّا حين قال إنّ الإنسان سيشعر بالوحدة الشاملة، حين يكون بعيدًا عن الله. قال يسوع: «وأما أنا فقد أتيت لكي تكون لهم (لك) حياة وليكون لهم (لك) أفضل» (يوحنا ١٠: ١٠). في المسيح، ننتصر على هذه الوحدة، لأنّه يُشبع جوع القلب البشري، ويجيب عن كلّ ما يصارع معه العقل البشري.

في الختام، إنّ الالتزام في الحبّ هو أمر أساسي لإيجاد معنى للحياة. وهذا يعني أنّ غياب الحبّ يُساهم في غياب المعنى. قال جون پول سارتر Jean-Paul Sartre مرّة إنّ الآخرين هم نار الجحيم. والحياة، بالنسبة إلى سارتر، كانت مقبولة إلى أن دخل فيها أناس آخرون. يصف دوستويفسكي Dostoevsky في كتاب من كتبه حوارًا جرى بين شخصين حول الجحيم. قال واحد منهما: «لا بدّ أنّ الجحيم هو عدم القدرة على الحبّ». وأنا أوافقه الرأي. وفي هذا المعنى، لقد فتح الجحيم أبوابه على ثقافتنا، فعلى الرغم من كلّ ما قلناه عن المحبة، نشهد اليوم خيانات أكثر، وتفكّك العائلات يطغى على مجتمعاتنا. وما لم يتبدّل هذا الميل ستتفكّك حضارتنا، لأنّ عدم وجود المعنى، سيُطلق العنان للعنف، حتى بين أولئك الذين يدّعون المحبة. لا غنى عن محبة الله لإيجاد معنى للحياة، هذه المحبة ظهرت في المسيح، ويمكن أن تختبرها على صعيد شخصي.

الفصل الحادي عشر



العبور إلى الضفة



وصلنا الآن إلى العامل الأخير الذي نحتاج إليه لإيجاد معنى للحياة، أي الأمان. يسعى الإنسان جدًّا للأمان في مراحل الحياة الأخيرة، وهي ما يُعرَف في مراحل شكسبير Shakespear السبعة. ابتدأنا بعامل الذهول في الطفولة مرورًا بالسعي وراء الحقيقة في مرحلة المراهقة وتحقيق الحب في مرحلة النضوج، وأخيرًا نواجه مرحلة الشيخوخة التي تتوق إلى الحصول على الأمان. ويعود السبب في هذا، إلى أنَّ الذهول قد تلاشى مع انهيار الجسد. فالحقيقة تواجهنا بواقع انتهاء وجودنا على الأرض. وقريبًا سيكون الحب شيئًا من الماضي إن كان الموت هو نهاية الإدراك والوعي. أين نجد إذا الضمانة التي تعيد لنا الذهول وتعرفنا بالحق وتجعلنا نستمتع بالحب؟

لو لم يكن ثمّة حياة بعد القبر، لأصبحت الحياة محدّدة حول: «ماذا يُسعدني؟» أو «افعل أيّ شيء تعتبره صوابًا»، لأنّه لا يوجد إجابة للسؤال «لماذا» عن الحياة نفسها. من جهة أخرى، إذا كان ثمّة حياة بعد القبر، فعلى الحياة أن تكون محدّدة بدءًا من هذه النقطة، ويُصبح السؤال المركزي: «ما هو الأمر الذي أشعر بأنّه صحيح وصائب؟» وعلى أساس هذه المعرفة يرتبط الفعل.

كلّ الأديان الرئيسية تؤمن بالحياة بعد الموت، بشكل أو بآخر، لكن، لا يوجد أيّ ديانة غير الديانة المسيحيّة التي زوّدت هذا الإيمان بأدلة تاريخية. فعلى الرغم من أنّ الإيمان المسيحيّ يشكّل نظامًا في حدّ ذاته، فإنّه يمكن تفويضه بالكامل إن استطاع أيّ إنسان أن يثبت من دون أدنى شك، أنّ يسوع لم يقم من الأموات. حاول الكثيرون أن يفعلوا ذلك، لكنهم

إمّا آمنوا بالمسيح بعد محاولتهم هذه، وإمّا أوقفوا البحث لأنهم فشلوا في مهمتهم. لم يكن أحد في التاريخ مهتمًا بأن يدحض القيامة أكثر من السلطات الدينية اليهودية والقادة الرومان. في السنوات اللاحقة، اهتّمت ديانات أخرى بسلب المسيحية ادّعاءها هذا، ومع ذلك بقيت الحقيقة راسخة وصامدة.

وجدت أنا شخصيًا أنّ الجدل الدائر حول كفن المسيح Shroud of Turin مذهل. فأنا لا أؤمن لحظة واحدة بأنّه يجب استخدام هذا الكفن كدليل قاطع على قيامة المسيح، لأنّ هذا الجدل سيبقى موضع نقاش حتى لو كان الكفن يعود إلى تلك الحقبة من التاريخ. والمذهل في الأمر أنّ هذا الكفن يقضّ مضجع المشكّكين ويثير أسئلة عميقة.

وعلى الرغم من إعجابنا بالإنجازات العالمية والشهرة، توقظنا أحيانًا بعض القصص ذات المغزى الإنساني، ونكتشف أنّ الأشخاص الذين كنا ننظر إليهم نظرة إعجاب، يختبرون الأشواق نفسها التي نشعر بها نحن أيضًا. فحين عُثر على جثة ألقيس پرسلي Elvis Presley في الصباح الذي تلا وفاته، شهد أخوه غير الشقيق بأنّه كان ممدّدًا على الأرض وبقربه الكتاب المقدّس وكتاب آخر عن كفن المسيح. دعوني أكرّر هنا أنّ الشوق في داخلنا، والأمل بحياة بعد الموت، ليس وحده كافيًا للدلالة على أنّ هناك حياة بعد الموت. هذا الجوع في داخلنا هو دلالة إلى حاجتنا إلى معرفة الحقيقة حول الموت، لأنّ هذه الحقيقة ستحدّد معنى الحياة، وتعطي أمانًا وطمأنينة. قال يسوع: «أنا هو القيامة والحياة. مَنْ آمَنَ بي ولو مات فسيحيا» (يوحنا ١١: ٢٥).

إنّ الوعد بهذا الرجاء قد ألهب قلوب الملايين من البشر. وأحد أهمّ الذين بَشَرُوا بهذه الرسالة هو شاول الطرسوسي. فبينما كان زاهبًا على طريق دمشق ينفث تهديدًا وقتلًا بهدف تدمير الكنيسة الأولى، سقط إلى الأرض بسبب نور ساطع، وصوت المسيح المقام. أخذَ إلى بيت في شارع

يُدعى المستقيم. ويا له من مشهد رائع أن يذهب الإنسان إلى دمشق، كما ذهبْتُ أنا، ويمشي في ذلك الشارع الذي يُدعى المستقيم. ففي ذلك الشارع منزلٌ قديم وصغير، يُقال إنه كان منزل حنانيا، الرجل الذي ساعد بولس خلال مرحلة تجديده. لا يمكن أن نتأكد إن كان هذا المنزل هو بالفعل منزله، لكن اسم ذلك الشارع لم يتغير بعد مرور ألفي سنة على هذه الحادثة، مذكراً كل من يمر من هناك بما حدث مع بولس.

هنا أخذ شاول الطرسوسي دعوته الإلهية، ليقف أمام القادة والولاة بالنيابة عن المسيح المُقام. منذ تلك اللحظة، لم يَعْتَرِه أي خوف وكان يقول: «في ما بعد لا يجلب أحد عليّ أتعاباً لأنّي حامل في جسدي سمات الرب يسوع» (غلاطية ٦: ١٧). كان إرهابياً ومضطهداً لأتباع المسيح، لكن هذا الشاب اليهودي الحامل الجنسية الرومانية، والساكن في مدينة يونانية، لمس العالم برسالة المسيح المنتصر على القبر. هذه الرسالة نفسها هي التي قدّمت له الأمان والمعرفة بأن الحياة هي أكثر من سبعين سنة نحيائها على الأرض.

وبينما أَقْتَرَبُ إلى نهاية هذا الجزء من الكتاب، سأذكركم بالعناصر الأربعة الأساسية لمعنى الحياة: الذهول، الحقيقة، المحبة، الشعور بالأمان. عندما يدّعي إنسان أنه وجد معنى الحياة، فلا بدُّ لهذا المعنى الذي وجده أن يحتوي على هذه العناصر الأربعة مجتمعة. هذه العناصر الأربعة نجدها كلها في شخص يسوع المسيح، الذي وحده يعطي معنى للحياة في كل مرحلة من مراحل الحياة. لن تجد معنى الحياة في عنصر واحد مستقل عن الآخر، بل حين تجتمع هذه العناصر جميعها، سيكون المعنى واضحاً وكاملاً.

منذ سنوات عدّة، كان لي امتياز التجوال والكراسة في فيتنام Vietnam، بطول البلاد وعرضها. كان ذلك في عام ١٩٧١، وكنت ما زلتُ طالباً في الجامعة حين وُجّهت إليّ دعوة لكي أزور القواعد والمستشفيات

العسكرية التابعة للجيش الأمريكي، وأتكلّم فيها. لقد غيّر هذا الاختبار حياتي. وما زلتُ أتذكّر عددًا كبيرًا من الحوارات التي أجريتها مع الجنود، وغالبًا ما كان الحوار يميل باتجاه الله والموت. لقد انحفرت هذه الحوارات في ذاكرتي.

تدور إحدى ذكريات تلك السنوات حول قصيدة كتبها جندي أمريكي وسلمها إليّ. احتفظت بها منذ ذلك الوقت كما لو أنني أحتفظ بكنز نفيس، وسألخص الكلام الذي قاله بألم وبطريقة شعرية جميلة. يتكلّم عن ليلة مصيرية، حيث كان عالقًا بين نارين، نار إحدى المعارك الحامية الوطيس، ونار معركة أخرى تجري داخله لم يكن قادرًا على إخمادها. حصلت الحرب الأولى بسبب اختلاف في الإيديولوجيات، فكانت قنابل الحرب تُلعلع فيها. أمّا المعركة الثانية، فكانت صراعًا بين قلبه وعقله في مسائل تتعلق بالروح. إلى هذه المعركة الداخلية بالذات، كان مُوجّها كل انتباهه.

إنّ أصوات القنابل المدوّية، والأوامر الصادرة لإطلاق النار في تلك المعركة التي كان من الممكن أن تكون معركته الأخيرة، لم تكن قادرة على إخماد ذلك الصراع الداخلي. كان يسمع في داخله أصوات أترابه منذ أيام الشباب الذين أقنعوه بأنّه لا يوجد عقل مدبّر لهذا الكون. لكنّه الآن وهو مختبئ في حفرته ينظر إلى النجوم المتألّئة في السماء، شعر بأنّ الفكر الإلحادي لم يكن صريحًا وواضحًا. بصمت، استسلم للرّب الذي لم يقدر أن يقاوم محبته بعد اليوم، وصرخ من أعماق روحه صرخة الانتصار وقال: «الآن وقد تعرّفتُ بك، لم أعد خائفًا من الموت.»

بعد سنوات عديدة، حين كنتُ في سوريا، سمعتُ اختبارًا من جندي جاز في صراع مشابه لهذا الصراع، وانتصر عليه من خلال المسيح في ليلة مصيرية وهو يحارب على هضبة الجولان. من الغرابة بمكان أنّ هذه الأحداث الحربية كانت سببًا في تغيير مسار حياة عدد

كبير من الجنود. إنّ النصره على الموت تضع كلّ المعارك الأخرى في إطارها الصحيح.

دعوني أخبركم بتلك الكلمات المجيدة التي كتبها مالكولم ماغريدج Malcolm Muggeridge، حين اختبر علاقة شخصية بيسوع المسيح.

أعتبر نفسي أنّي إنسان ناجح نسبياً. يحدّق بي الناس أحياناً في الطرقات، وهذا ما أدعوه شهرة. أستطيع بكل سهولة أن أكسب مالاً كافياً يؤهّلني أن أدفع ضريبة عالية لدائرة الإيرادات الداخلية، وهذا ما أدعوه نجاحاً. يمكن حتى لكبار السنّ، مع بعض المال والشهرة، أن يشاركوا في تسليات ممتعة، وهذا ما أدعوه متعة. ومن حين إلى آخر، ألتقي أناساً، يشجعونني على أمرٍ قلته أو كتبتّه، لدرجة أنني أقنع نفسي بأنّه أحدث وقعاً مهماً في أيامنا، وهذا ما أدعوه إنجازاً. ومع هذا، أقول لكم، متوسّلاً أن تصدّقوني، إن ضاعفتم هذه الإنجازات كلّها ملايين المرّات، وجمعتموها، لن تساوي شيئاً. إنّها في الواقع، مجرد قطرة صغيرة إذا ما قيست بالماء الحيّ الذي يقدّمه المسيح للعطشان روحياً بغضّ النظر عن هويته أو حالته.^١

لقد انتقلنا من عالم الطفل إلى سنوات العمر الأخيرة من حياتنا، ونحن نسعى لكي نجد معنى للحياة. ورأينا كيف يفشل هذا البحث عن المعنى إن عشنا من دون الله. اسمحوا لي الآن أن أربط كلّ ما قلته بهذا الاختبار الشخصي.

عندما كان ابننا ناثان Nathan صغيراً، رأيته ذات يوم منبهراً وهو يلعب لعبة بسيطة، إذ كان يترك بالوناً معبّئاً بغاز الهيليوم يصعد في الهواء إلى أن يصل إلى السقف، ثم يقفز على الأريكة ويسحبه مجدداً إليه. بقي يلعب على هذا المنوال فترة طويلة. إنّ علامات الذهول التي كانت

بادية على وجهه، كانت جديرة بأن يكتب ميلتون Milton عنها. كان يترك البالون يصعد، ثم يقفز فرحاً، وبعد ذلك يقفز على الصوفا ويُنزل البالون.

قال ج. ك. تشسترتون G. K. Chesterton إننا نستطيع اكتشاف قدرة الله التي لا حدود لها من خلال نزعة الطفل الطبيعية إلى الابتهاج الشديد بما هو رتيب. هذه الصورة مألوفة لدينا جميعاً، صورة طفل يُحمل على الأكف ويُرْمى في الجو، وبعد أن يُلْتَقَطَ نسمعه يقول مردداً: «مرّة أخرى، مرّة أخرى.» هذا، وإنّ الشخص الذي يعيش مع الله يشاهد هذا التكرار المذهل كل يوم وهو يستمتع بما خلقه الله؛ فالله يقول للشمس: «أشريقي مرّة أخرى. أشريقي من جديد.» ويقول للقمر: «اسطع مرّة أخرى، اسطع من جديد.» وللفضول يقول: «ارجعي مرّة أخرى، ارجعي من جديد.»

لكن للأسف، بدأت علامات الملل تظهر عند الطفل وهو يغادر مرحلة الطفولة. ذات يوم، خرج ابني إلى ساحة البيت الأمامية وأفلت البالون في الفضاء الواسع. تأخرت للحظات عنه ولم أستطع أن ألتقط البالون، وشاهدنا معاً البالون يعلو ويعلو ثم يختفي. اعتراه خوف شديد إذ لم يجد أريكة كبيرة تكفي ليقف عليها ويُنزل البالون، فراح يبكي. وفجأة ومضت عيناه وتوقّف عن البكاء وقال لي: «عندي فكرة يا أبي، عندما تسافر في الطائرة وتعود، أحضر معك البالون.» لكن سرعان ما خاب أمله حين سمعني أقول له: «أنا متأسّف يا ابني، لا أستطيع أن أفعل لك هذا.»

ذات يوم، وفي مكان ما، سيصطدم الذهول البشري بحاجز، كما هي الحال بالنسبة إلى القدرة البشرية. الله وحده هو المجدّد الدائم، فهو يعطينا الدهول والحقيقة والمحبة والأمان.

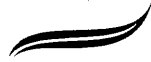
من أنا؟... كائنًا من أكون، فأنت تعلم يا الله، أني ملكٌ لك.^٢



القسم الثالث

مَن هو يسوع، وهل لمعرفته من تأثير؟

الفصل الثاني عشر



الوصول إلى الحقيقة



إنَّ استخلاص النتيجة بأنَّ الله وحده هو المُجدِّ الدائم، لهو إعلان لما هو جليّ وواضح. لا شكَّ أنَّه لو أمكننا أن نعلم يقيناً أن الله موجود وأنَّه تكلم، فالاستنتاج الحتمي سيكون أنَّ الله هو وحده المُجدِّ الدائم. من المنطقي الاستنتاج أنَّ معرفة هذا الإله، والعيش معه، هو هدف الحياة ومتعتها المطلقة. ولكن هذا يجعلنا نواجه الكلمة «لو» الشرطية. فكيف نعرف إن كان المسيح حقاً هو الطريق والحق والحياة كما ادَّعى؟ في بحثنا لهذا الموضوع الأهم، لنَمْتَحِن أولاً أكثر التأكيدات إثارة للجدل في الإيمان المسيحي، أي ادِّعاء المسيحية بأنَّ لديها الحقيقة المطلقة.

غالباً ما يُزدرى بالمسيحية، ويُنظر إليها كديانة منبوذة بين ديانات العالم الأخرى، ويعتبرها الذين يذُمونها أنَّها ديانة مثيرة للجدل، لأنَّ العلم الحديث يَسْخَر من نظرية الحقيقة المطلقة. وغالباً ما يُنتقد الإيمان المسيحي لأنَّ العقلية المعاصرة تستشيط غيظاً عند أي ادِّعاء بوجود نخبة فكرية في مجتمع تعدُّدي. كيف تتجرأ فكرة ما أن تدَّعي أنَّها أسمى من فكرة أخرى؟ على كلِّ حال، من المفترض أن نكون مجتمعاً متعدِّد الثقافات: أفلا يجب بالتالي أن تكون الحقيقة متعدِّدة الألوان والأشكال؟

إنَّ أحد العناصر التي تتكرَّر في الكتاب المقدَّس، خاصة في المشاهد التي يكون المسيح فيها حاضراً، هو عنصر المفاجأة. وهو ليس فقط موجوداً في الأمور التي قالها يسوع، لكنه غالباً ما يكون عند الشخص الذي وجَّه إليه يسوع تلك الكلمات. فكروا في هذا الإدِّعاء الذي قاله يسوع: «أنا هو الطريق والحق والحياة» (يوحنا ١٤: ٦). قال يسوع هذه الكلمات للرسول توما، وهو الرسول الذي يرتبط اسمه بالشكِّ حتى بعد ألفي سنة.

كان توما آخر مَنْ آمَن من الرسل بقيامة يسوع من الأموات لأنّه لم يشأ أن يثق بهذا الادّعاء المذهل من أي مصدر ثانوي. كان في حاجة إلى أن يرى وأن يشعر قبل أن يحني ركبتيه أمام المسيح الذي رآه مصلوبًا.

توما هذا نفسه، وبعد أن رأى ولمس المسيح المُقام، سافر إلى الهند وكرز بالإنجيل، حيث كان المسرح الديني هناك يفتخر بوجود ٣٣٠ مليون إله في هيكل متعدّد الأوجه والاستخدامات، وكان عدد الآلهة في تزايد مستمر. وسط هذه المعمعة التي مزجت تعدّد الآلهة وتطوّر الوحدانية، كرز توما بيسوع الطريق والحق والحياة. هناك دفع توما حياته ثمناً لهذه العقيدة، وإن صحّ التقليد، (يوجد براهين كافية على ذلك) فقد استشهد في مدارس Madras، المدينة التي وُلدت فيها.

نحن الآن أمام مهمّة وهي إثبات هذا الإدّعاء غير العادي، أي تميّز يسوع المسيح وفرادته. من هو؟ وهل هذا مهمّ حتى بعد مضي ألفي سنة على مجيئه وسيره على هذا الكوكب؟ من الواضح أنّه بعد الإجابة عن الجزء الأول من السؤال، سيكون استنتاج الجزء الأخير أمرًا حتميًا. دعوني أضع مثالاً أمامكم لتحديد الحقيقة، بعد ذلك سنمتحن خمس فئات متميّزة، تدعم ادّعاء يسوع أنّه هو الحقّ، وهذه الفئات جديرة بأن نتأمّلها وندقق فيها.

❶ إزلال الحقيقة

إنّ الكارثة الخطيرة في عصرنا التي تتحدّى الفهم هي موت الحقيقة. عندما تُنكر حضارتنا الحقائق المطلقة وتقضي على كلّ المراجع التي بها نمتحن الحقيقة، فإنّها تدخل أرضاً مجهولة، في أمور بالغة الأهمية تتعلّق حتى في البقاء. إنّنا نعمل في حلبة القيم كما لو أنّها كانت أرضاً عذراء لم تدهسها من قبل أرجل أي مستكشف للمعرفة. فالشكّ والسخرية أصبحا فجأة سمة التطوّر، وبقيت مسألة معرفة الذات مقتصرة على غير

المثقفين وغير المتعلمين (لأنهم الوحيدون السذج بما فيه الكفاية ليؤمنوا بأن الحقيقة مطلقة). والتصريحات المتعلقة بجوهر الحياة انحدرت إلى قاعات المآتم أو إلى العيادات النفسية، لكن في عالم الواقع وفي العالم الأكاديمي، أصبحت الحقيقة كلمة فارغة وملجأ لمن يدعي أن الذات هي الأمر الوحيد الذي يمكن أن نعرفه وأن نتحقق منه. على الأقل، هذا هو الموقف الذي يعتمده بعض ما يُسمى بأذكي العقول في عصرنا الحالي.

ترثي المؤرخة جارتروود هيمالفارب Gertrude Himmelfarb فقدان الحقيقة في تحليلها العلمي القاطع للإنحطاط الأكاديمي الذي أصابنا، ويُعتبر هذا الأمر مأساة دُنست الحياة. فقد اقتبست أحد أهم فلاسفة أمريكا، وهو الفيلسوف ريتشارد رورتي Richard Rorty، وفضحت بكل فخر فلسفته الخاصة، إذ اعتبرتها فلسفة أسطورية، وأصرت على أن أي فيلسوف يؤمن بأنه قادر على تحديد الواقع هو «ما ورائي منافق، إنما حيٌّ وحقيقي». يقول رورتي بتحسّر: «علينا أن نتأكد إن كان قوم كهؤلاء ما زالوا موجودين.»

ما زلت قادرًا على إيجاد أساتذة فلسفة يقولون لك بكل نزاهة إنهم يبحثون عن الحقيقة. هم صادقون وحقيقيون، بل ويمثلون حالة العالم. قليلون منهم يدعون أنهم يكتبون بطريقة واضحة ودقيقة وشفافة، مفتخرين باستقامتهم الرجولية، بنبذهم الاستعارات والتشابهة وغيرها من الوسائل الأدبية التي يمكن أن تفهم.^١

من المثير للشفقة أن نسمع هذا الكلام المخالف للمنطق، بل هذا الهراء الصارخ بكل ما في الكلمة من معنى، النابع من قلم شخص يُفترض أن يكون مفكرًا. كل ما علينا أن نطلبه من رورتي هو أن يخبرنا إن كان استنتاجه هذا، بأن الحقيقة غير موجودة، هو استنتاج حقيقي أو أنه مجرد فكرة مجازية. الحقيقة هي أن كل واحد منّا، ضمناً أو صراحة،

يعيش بموجب مبادئ وُضِعَتْ مسبقًا، يؤمن بأنّها غير قابلة للتفاوض. نحن لا نؤمن اعتباطيًا بكلّ شيء نسمعه، بل نمتحن ما نسمع، عن وعي أو من دون وعي، لكي نحدّد صحّته أو بهتانها. فحين تُمتحن أي مسألة وتثبتّ صحتها، نستطيع تجاهل النتائج المترتبة عنها، لكننا لا نستطيع أن نشكّك بصحّتها.

❶ حقيقة الحقيقة

الخطوة الأولى قبل الدخول في صميم الدفاع المسيحيّ هي أن نجتاز عقبتين أساسيتين: العقبة الأولى لها علاقة بالطريقة التي نصل بها إلى حقيقة أيّ ديانة، والثانية تمتحن إن كان في وسع الحقيقة أن تكون حقًا حصرية. قد يبدو لنا أنّ هذه المهمة ممّلة، إلّا أنّها إجراء ضروري إن أردنا أن نعطي الموضوع حقّه.

أقترح إجراء ثلاثة امتحانات أولية على أي نظام أو تصريح يدّعي الحقيقة، على أن تكون هذه الإجراءات إلزامية إن أردنا اعتبار هذا التصريح تصريحًا جدّيًا لكي تتم مناقشته والنظر فيه. هذه الامتحانات هي التالية: (١) اتّساق منطقي (٢) كفاية تجريبية (٣) كفاءة اختبارية.

توفّر هذه الامتحانات الثلاثة درجة عالية من الثقة نستطيع من خلال تطبيقها على أي نظام أو معتقد، أن نعرف مدى صحّته أو زيفه. فادّعاء الحقيقة لدى كلّ من المسيحيّة والهندوسية والإسلام والإلحاد، ينبغي أن تخضع جميعها لامتحان الحقيقة الوارد أعلاه. هل هناك اتّساق منطقي في ما تعلنه؟ وهل هناك كفاية تجريبية يمكن على أساسها امتحان ادّعاءها للحقيقة؟ وهل هناك كفاءة اختبارية، وبالتالي هل هي ذات معنى أو هدف تطبيقي أو عملي على حياتي؟

إلا أنّ ثمة موطن ضعف مُحتمَل في هذا الامتحان المُثلث الأوجه ناقشه الفيلسوف نورمن جيسلر Norman Geisler في كتاباته حول نظرية المعرفة. يشير الدكتور جيسلر بفطنة إلى أنّه في إمكان بعض الأنظمة الفلسفية أن تنجح في هذه الامتحانات الثلاثة وتكون باطلة في جوهرها. مثلاً، إن قَبِلَ أحدهم ببعض فرضيات الهندوسية، فالهندوسية ستنجح في الامتحانات الثلاثة المذكورة. لكن حين يتمّ التدقيق في هذه الفرضيات لامتحان حقيقتها بوسائل أخرى تقع خارج المنطق المحض، سنكتشف أنّه لا يمكن الدفاع عن تلك الفرضيات نفسها أو تبريرها. فعلى سبيل المثال، تقول إحدى الفرضيات الهندوسية إنّ العالم الماديّ كما نعرفه الآن غير متميّز عن الواقع المطلق غير الشخصي الذي هو البراهما. ستنجح الهندوسية في الامتحانات الثلاثة إن قبلنا بهذه الفرضية. من جهة أخرى، إن استطعنا أن نثبت زيف هذه الفرضية فسينهار صرح فلسفة الكلّ هو الله.

كيف يمكن أن نثبت زيف هذه الفرضية؟ مع أنّني لا أستطيع الولوج باستفاضة في هذا الموضوع، إلا أنّني أستطيع تسليط الضوء على خلل واحد على الأقل، والبقاء في سياق موضوع هذا الكتاب. لقد ساعدنا الدكتور جيسلر حين لفت انتباهنا إلى امتحانين يلغيان في الواقع فلسفة الكلّ هو الله. الإمتحان الأول هو امتحان اللاربيّة، وهو امتحان لاكتشاف الحقيقة. الإمتحان الآخر هو امتحان اللاجزمية، وهو امتحان لاكتشاف الزيف.

خذ على سبيل المثال مسألة وجودي. فعلى الرغم من أنّه ليس في الإمكان إثبات وجودي منطقياً، فإنّ وجودي لا ريب فيه وجودياً. هذا يعني أنّني لا أستطيع أن أرتاب في مسألة وجودي من دون أن أجزم بأنّني موجود في الوقت نفسه. ما زلت أتذكر الحوار الذي جرى بين تلميذ ومعلّمه. سأل التلميذ معلّمه في محاضرة فلسفية: «كيف أعلم أنني موجود؟» فأجابه المعلّم: «ومن هذا الذي

أفترض أنّه يطرح السؤال؟، إذاً، من الواضح أنّ اللاربيّة هي امتحان لاكتشاف الحقيقة.

من جهة أخرى، امتحان اللاجزميّة هو امتحان لاكتشاف الزيف. هذا يعني بشكل أساسي، أنّه لا يمكن الاستنتاج بأنّ تصريحاً ما هو تصريح حقيقي لمجرد إمكانية التصريح به. يمكن أن أصرّح بحماس وأقول: «أنا لا أستطيع أن أتكلّم كلمة عربية واحدة»، إلّا أنّ هذا التصريح لا يمكن الجزم به. لأنني حين صرّحت قائلاً: «أنا لا أستطيع أن أتكلّم كلمة عربية واحدة»، فأنا في الواقع تفوّحت بعدّة كلمات عربية، وبالتالي ما صرّحت به هو تصريح زائف. يقول أحد الأشخاص في الهندوسية: «الله موجود، لكنني غير موجود». هذا موقف لا يمكن الجزم به. اللاجزمية إذاً هي امتحان لاكتشاف الزيف.

إن أضفنا هذين الامتحانين إلى الامتحانات الثلاثة الأولى: الاتساق المنطقي، والكفاية التجريبية، والكفاءة الاختبارية، فإنّنا بالتالي ننتج نظاماً خماسي الأوجه وهو فعّال جداً لتحديد الحقيقة. ولكي لا أذهب بعيداً في هذا الحقل أقترح عليكم أن تقرأوا شخصياً عن هذا الموضوع المهمّ.

فعلى الرغم من كلّ كلمات الغضب والإنكار الصادرة منّهم على شاكلة رورتي في هذا العالم، ما زالت هذه الامتحانات مناسبة وقائمة. فكلّ من يأخذ على محمل الجدّ العبارة القائلة إنّّه لا يوجد حقيقة تتناسب مع الواقع، يُنكر بالتالي ما صرّح به للتوّ، لأنّ ما يقوله يتضمّن أنّ الحقيقة لا تُظهر واقع ما يقوله. وإن كانت العبارة لا تُظهر الواقع فلماذا نأخذها على محمل الجدّ؟ فالحقيقة كفئة في حدّ ذاتها، ينبغي أن تكون موجودة، حتى حين يُنكر أحدهم وجودها. كما ينبغي لها أن تُقدّم إمكانيةً أن تكون معروفة.

هذا يُثبت الجزء الأول مما اعتبرته إجراءً ضرورياً. ثمّة جزء ثانٍ ينبغي معالجته.

٥ الحقيقة المخفية بخصوص الحقّ الحصري

ثُمَّ وَهُمْ يَعِيشُهُ الناقِد الحديث للمسيحية، وهو الاعتقاد أنّ المسيحية هي النظام الإيماني الوحيد الذي يدّعي الحصرية. يوحى هذا الافتراض جهلاً كبيراً بكلّ وجهات النظر العالمية الأساسية الموجودة اليوم. في الواقع، كلّ نظام موجود هو نظام حصري ضمناً. فقد ولدت البوذية من جرّاء رفض عقيدتين هندوسيتين أساسيتين. رفض جوتاما بوذا Gautama Buddha أن تكون نصوص الفيدا Vedas حقيقة مطلقة، وشجب النظام الطبقي قطعياً. كان النظام الطبقي منسوجاً بشدة في عقيدة التقمّص، ومن هنا، ظهر الفارق البسيط في عقيدة تناسخ الأرواح البوذية.

أمّا الديانة السيخية، فقد رفضت الهندوسية والبوذية. وفي محاولة جريئة لِمَ الشمل، ظهرت البهائية، وهي محاولة للوصول إلى ديانة عالمية، تخلّصت من كلّ الأديان الأخرى واستبعدت الحصرية. أمّا بالنسبة إلى الإلحاد، فهو يرفض كلّ وجهات نظر الإيمان بالله، ويعتبر أن لا منطوق في المعتقدات الدينية. دعونا إذاً نكون صريحين، دعونا ننزع هذه الندبة التي وضعها الملحدون على المسيحية التي تشوّه جمال التسامح الديني والعلماني.

ليس الموضوع إذاً، إن كان المعتقد الذي تتبعه، أي الإيمان بالله واحد، أو الإلحاد، أو الوجودية، أو أي معتقد آخر، هو معتقد حصري. فالموضوع المطروح هو إن كانت هذه المعتقدات ستصمد أمام امتحان الحقيقة في إجابتها عن الأسئلة الأربعة الأساسية المتعلقة بالحياة من جهة أصل ومعنى وأخلاقية ومصير الحياة. هل يوجد فيها اتّساق منطقي، وكفاية تجريبية، وكفاءة اختبارية؟ هل ستصمد أمام امتحان اللاربيية واللاجزمية؟ يجب أن تكون الإجابة عن الأسئلة الأربعة المتعلقة بالحياة متّفكة ومنسجمة مع الواقع، وعلى الإجابات مجتمعة، أن تشكّل نظاماً.

يتحتم علينا أن نفهم أنه حين يطرح شخصٌ مُعاد للإيمان المسيحي سؤالاً، على ذلك الشخص في المقابل أن يكون مستعداً أولاً لتبرير السؤال وفقاً لفرضياته. ثانياً، عليه أيضاً أن يجيب عن سؤاله على أساس تلك الفرضيات. بكلمة أخرى، إن الشخص الذي يطرح السؤال ملزم أن يجيب عن السؤال نفسه. والموقف الذي يقول: «لا تستطيع أن تجيب عن سؤالي، لذلك أستطيع أن أومن بأي شيء أريد»، هو رياءٌ على الصعيد الفكري.

دعوني إذاً أكرّر أن الحقيقة، بحكم تعريفها، هي دائماً حصرية. ويسوع، في الواقع، ادّعى هذه الحصرية. ولو لم يؤكّد ذلك، لأوحى ضمناً وبطريقة غير معقولة أن الحقيقة شاملة، وهذا ما لا يمكن أن يكون. السؤال الحقيقي المطروح أمامنا هو ما إذا كان ادّعاء يسوع عن الحقيقة سيصمد أمام امتحانات الحقيقة، وما إذا كان شخص يسوع سيصمد أمام الامتحانات نفسها. دعوني أقدم لكم إيضاحاً مهماً لكي أثبت حجّتي بأن الحقيقة ليست شاملة إنما حصرية.

٢ منطق إماما/ وإماما، ومنطق كلاهما/ مع

منذ فترة، حين كنت في كاليفورنيا California ألقى سلسلة من المحاضرات حول الإيمان المسيحي، واجهني بروفيسور في الفلسفة كان موجوداً بين الحضور بتحدّي قوي. كان الموقف ساخراً بعض الشيء، وكان سيميل ربما إلى الفكاهة لو لم تظهر علامات واضحة تشير إلى أنه مغتاط قليلاً. رمانني بتحدّي وأجبرني أن أتكلّم في الليلة التالية عن موضوع «لماذا لستُ هندوسياً». يجب أن أعترف لكم أنني ذهلت لأنني أمام رجل أمريكي تبنّى وجهة نظر شرقيّة صوفية وكان محتدّاً لأنني هنديّ وسلّمت حياتي للمسيح. تفاعلتُ معه للحظات قليلة لكي أعرف كيف سيكون مستوى حوارنا، ثم قلت له إنني أفضل ألاّ أواجه هجوماً مباشراً حول أي موضوع حساس ثقافياً في مكان كهذا. ثم قلت له: «علاوةً على ذلك، سمعتُ أنه

قيل إذا أردت أن ترمي وحلاً على الآخرين، فأنت بهذا لا تخسر تراباً كثيراً من أرضك فحسب، بل ستتسخ يداك به أيضاً.» لم يقتنع، ولم يرقه ما قلته.

ألحّ وتابع تحدّيه لي قائلاً: «هيا، تابع، أكمل الموضوع وسأحضر كلّ صفّ الفلسفة معي. وبعد أن تنتهي سيمزقونك إرباً إرباً.» لا شكّ أنّه بموقفه الجدلي العنيف هذا، إنّما أراد أن يشنّ حرباً نفسية عليّ.

عند هذه المرحلة كان قد تجمّع جمهور غفير ليُصغي بذهول إلى هذه المعركة الكلامية الحامية. لم أقدر أن أتخلّص من هذا الرجل العاقد العزم، فقدّمت له أخيراً عرضاً مضاداً. قلت له إنّي خطّطت مسبقاً أن أتكلّم ذات ليلة عن موضوع «لماذا أنا مسيحيّ»، وإنّ هذا الموضوع سيوفّر له مادة فلسفية كافية لكي ينقضّ بها عليّ. قلت له: «سأكون مسروراً أن أجيب عن أي تحدّ حول هذا الموضوع. أضف إلى ذلك أنّ تلك المحاضرة ستشرح ضمناً لماذا أنا لست من أتباع أي نظرية أخرى.» فوافق على ذلك.

شعرت بينما كنت ألقى محاضرتي، أنّه لم يكن مرتاحاً لأنّي كنت ألمس عصباً حساساً في وجهة نظره العالمية، أي قوانين المنطق الأساسية وكيفية تطبيقها على الواقع. بدأت بترسيخ قانون اللاتناقض الذي يؤكّد أنّ العبارة المتناقضة تماماً لا يمكن أن تكون صحيحة (من دون قيد أو شرط). تابعت وأوضح أنّ في ادّعاءات الهندوسية التي لا تُعدّ ولا تحصى، العديد من التناقضات، وهذا واقع يُقرّ به حتى بعض أنصارها وقياديينها. إن كان قانون اللاتناقض ينطبق على الواقع، والهندوسية موبوءة بالتناقضات، أستنتج بالتالي أنّ الهندوسية كنظام هي نظام زائف. إلى هذا اليوم، تحيا الهندوسية بصراع هائل بين قطبي الإيمان بالله (الإيمان بآله شخصي) والوحدوية (الإيمان بحقيقة لا شخصية ومطلقة). لذلك يميل الهندوسي، في الواقع، إلى عرض الهندوسية ليس كديانة بل كحضارة بسبب خليطها من التناقضات.

استطرداً، أقول للغرباء عن هذا النوع من التفكير، وللذين ليست الفلسفة جزءاً من حياتهم اليومية، إنَّ قانون اللاتناقض يعمل على الشكل التالي: افترض أنك رأيتني أتمشى مع زوجتي، فتقدّمت نحونا وقلت: «مرحباً يا سيّد ويا سيّدة زكارايوس. سمعت أنكما تتوقّعان إنجاب طفل.» فإنَّ أجابتك زوجتي بـ«نعم»، وفي الوقت نفسه أجبتك أنا بـ«لا»، ففي ماذا ستفكر؟ قد تستنتج أننا كنا نمازحك، أو أنّ المرأة التي ترافقني ليست السيدة زكارايوس، أو أنها لم تخبرني بعد بأنّها حامل. يحدث هذا لأن السؤال نفسه لا يمكن أن يكون له في الوقت نفسه إجابتان متناقضتان. فقانون اللاتناقض هذا هو الدليل البسيط على الحقيقة، والذي نستخدمه في قاعات المحاكم وفي أماكن عملنا. لقد كان هذا الموضوع الأساسي الذي سيناقشه ذلك البروفيسور في مناقشتنا.

في نهاية المحاضرة، هجم إلى الأمام ومعه فريقه الذي كان يسجّل له الملاحظات وانفجر صارخاً: «لقد أوقعت أكبر ضرر بالفلسفة الشرقيّة، أكثر من أي شخص آخر، والسبب في ذلك هو أنك لا تفهم العقليّة الشرقيّة.» حتى طلابه لاحظوا سخرية الموقف، إذ كيف يُعقل أنّ رجلاً غربياً يقول لرجل شرقيّ إنّه لا يفهم العقليّة الشرقيّة. لقد كان هذا بالفعل موقفاً هزلياً.

قرّرت أنّه حان الوقت لأنقذ هذه المناقشة من السخرية، فطلبت منه أن نلتقي في اليوم التالي على وجبة غداء لكي نحاول أن نتكلّم في خلافاتنا. وافق معي، وحين التقينا لم يهدر وقتاً، بل للحال بدأ كلامه قائلاً: «مشكلتك الكبيرة أنك لا تفهم المنطق الشرقيّ.» ارتأيت أنّ أفضل شيء هو أن يشرح لي المنطق الشرقيّ. كانت حجّته تستند إلى نوعين من المنطق، الأول هو منطق إمّا/ وإمّا؛ والثاني منطق كلاهما/ مع. ثمّ قال: «إنّ منطق إمّا/ وإمّا مبنيّ على قانون اللاتناقض، أي إن كانت عبارة ما صحيحة، فنقيضها يجب أن يكون خطأ.» وافقت معه إلى هذا الحدّ.

وبينما كان البروفيسور يستفيض ببلاغة ويتوسّع في قانون اللاتناقض، استخلص أخيراً النتيجة التالية: «هذه هي الطريقة الغربية في النظر إلى الواقع.» لم أوافق على خلاصته هذه وطلبت منه أن يحذفها من قياساته المنطقية، لكنه رفض ذلك. سمحت له أن يتابع كلامه عالماً أنّه عاجلاً أم آجلاً سيرفض خلاصته بنفسه.

كان شرحه الأساسي التالي حول الطريقة الجدلية. هذا ليس إمّا/ وإمّا، بل كلاهما مع. لقد استخدم ج. و. ف. هيغل G. W. F. Hegel في جديّته بين الفكرة (الفرضيّة) وعكسها (النقيض) لكي يصل إلى التوليف (إيجاد أرضيّة وسطية). وقد استخدمها أيضاً كارل ماركس Karl Marx لكي يوضح الانتقال التاريخي من المُستخدَم من جهة والمُستخدَم من جهة أخرى إلى مجتمع لا طبقي. (والغريب في الأمر أن لا أحد منهما يُظهر لنا مجتمعاً لا طبقيّاً). تعمّق صديقي الفيلسوف لكي يؤسّس منطق إمّا/ وإمّا كطريقة أسمى لإيجاد الحقيقة.

قال لي: «إذًا، يا دكتور زكارايوس، عندما تجد هندوسياً يؤكّد لك أنّ الله هو إله شخصي، وهندوسي آخر يؤكّد لك أنّ الله إله غير شخصي، يجب ألاّ تعتبر نفسك واقفاً أمام مشكلة لمجرّد تناقضهما أحدهما مع الآخر، بل إنّ حقيقة المشكلة هي أنك ترى التناقض كشخص غربيّ، بينما يجب أن ننظر إلى هذا التناقض كشخص شرقيّ. الطريقة الشرقيّة تنظر إلى الواقع نظرة إمّا/ وإمّا.» طلبت منه مجدّداً أن يتراجع عن عبارته الأخيرة حول نظام إمّا/ وإمّا، لكنّه طبعاً رفض ذلك.

بعد أن استفاض كلاماً حول هاتين الفكرتين إمّا/ وإمّا، وكلاهما/ مع، لفترة من الوقت، أخبرني بأنّه لا يجب علينا أن نقترّب من الحقيقة من وجهة نظر شخص غربيّ، إنّما من وجهة نظر شخص شرقيّ. سألته إن كان يسمح لي أن أقاطع قطاره الفكري غير الدقيق في مواعيده وأطرح عليه سؤالاً. وافق على طلبي ووضع قلمه على الطاولة.

قلت له: «سيدي، هل تقصد أنه حين أدرس الهندوسية عليّ إمّا أن أستخدم منطق كلاهما/ مع، وإمّا لا أستخدم أي منطق آخر؟»

فجأة حدث صمت رهيب بدا وكأنّه دام فترة طويلة. طرحت سؤالاً عليه من جديد: «هل تقصد أنه حين أدرس الهندوسية عليّ إمّا أن أستخدم منطق كلاهما/ مع، وإمّا لا أستخدم أي منطق آخر؟ ألم تقصد ذلك؟»

رجع برأسه إلى الوراء وقال لي: «يبدو أنّ منطق إمّا/ وإمّا، قد برن، أليس كذلك؟»

أجبت: «لقد برز بالفعل، والواقع أننا حتى في الهند ننظر يميناً ويسرة قبل أن نعبر الشارع، فإمّا أن يمرّ الباص أولاً، وإمّا أن أمرّ أنا، وليس كلانا في آن واحد.»

هل رأيتم الخطأ الذي وقع فيه؟ كان يستخدم منطق إمّا/ وإمّا، ليثبت مبدأ كلاهما/ مع، أيضاً. كلّما حاولت أن تدقّ قانون اللاتناقض، ارتدتّ الضربة عليك. (طريقة أخرى للنظر إلى هذه المناقشة هي أن نقول إن كان منطق كلاهما/ مع، أيضاً، هو كلّ ما تركّز عليه، فلماذا لا أستطيع أن أستخدم كلاً من منطق كلاهما/ مع، ومنطق إمّا/ وإمّا؟ لماذا يجب أن أستخدم أحدهما فقط؟

دعوني الآن أقدم لكم نقطتين حيويّتين. لقد كان هذا الفيلسوف محقّقاً بشكل جزئي. يوجد في الشرق ميلٌ شائع لإظهار قبول كلّ الأديان، كما لو أنّها أوجه متعدّدة للحقيقة نفسها. كتب الدكتور رادهاكريشام Radhakrishnam تعليقاً مذهلاً في كتابه *The Hindi View of Life* (الدكتور رادهاكريشام هو فيلسوف هندي ذائع الصيت علّم في جامعة أوكسفورد Oxford خلفاً للدكتور زاهنر Zaehner الذائع الصيت. أصبح رادهاكريشام لاحقاً رئيساً للهند). قال إنّهُ يمكن للإنسان أن يكون مسلماً ومسيحياً وبوذاً وحتى يمكن أن يكون ملحدًا في آن واحد، ومع هذا يبقى هندوسياً.

لكن رادهاكريشام كان يراوغ بشكل واضح. فقد اعترف هو نفسه في مكان آخر أنّ الهندوسية فتحت ذراعها لتحتضن الكثير لدرجة أنّها حين أغلقت يديها أخيراً، خنقت الهندوسية بسبب هذا الاحتضان.

لكنّ الهندوسية الشعبية ليست هي نفسها الهندوسية الكلاسيكية، وطريقة التعليم التي استخدمها الفيلسوف الهندوسي الأعظم شانكارا Shankara كانت طريقة سقراطية، فيما كان يناقش الأفكار ليس بأسلوب جدلي (كلاهما/ مع) بل بأسلوب غير متناقض (إمّا/ وإمّا). وكان يتحدّى خصومَه لكي يثبتوا خطأه، وإن فشلوا عليهم أن يستسلموا لوجهة نظره. النقطة المحورية إذاً، ليست في ما إذا كنا نستخدم المنطق الشرقي أو المنطق الغربي، بل في أن نستخدم المنطق الذي يُظهر الواقع بشكل أفضل، وقانون اللاتناقض موجود بشكل ضمني أو بشكل صريح وجلي في الشرق والغرب.

يجب توضيح نقطة أخرى حول قانون اللاتناقض. هذه النقطة ليست امتحاناً للحقيقة، بل هي امتحان للزيف. فقد تبرز عبارة ما غير متناقضة، ومع هذا تبقى خاطئة أو زائفة. مثلاً، لا يوجد أي تناقض في القول بأنّه يوجد سيارة حمراء في الخارج، ومع هذا قد تكون هذه العبارة خاطئة. من جهة أخرى، إذا كانت العبارة انتقائياً متناقضة، مثلاً، حين نتكلّم عن دوائر مربعة، لا يمكن أن تكون صحيحة. لهذا السبب أرى بشكل واضح أنّ الإلحاد خاطئ. فعقيدة الإلحاد وتعاليمه تعجّ بالتناقضات.

والآن، إن كان قانون اللاتناقض ينطبق على الواقع، وإن كان من غير الممكن أن يكون للسؤال نفسه، وفي الوقت نفسه، إجابتان متناقضتان وكلاهما يدعيان الصواب، عليك أن تخضع لخلاصة واحدة: لقد صرّح يسوع تصريحاً منطقيّاً حين ادّعى الحصرية. إن اخترت أن تتحدّى ما أقوله فلن تقدر أن تتهرّب من هذا الواقع. في اللحظة التي تحاول أن تنقض ما أقوله، فأنت توظّف قانون اللاتناقض، معتبراً ضمناً أنك على

حقّ وأني مخطئ. لهذا السبب قال أرسطو: «أستطيع أن أبرهن هذا القانون لك. كلّ ما عليك أن تفعله هو أن تفتح فمك وتقول شيئاً». حتى المتصوّف الشرقيّ كان يعلم أنّه لا يستطيع الهروب من قانون اللاتناقض الشامل. لهذا السبب اختار الصمت وقال: «إنّ الذي يعلم لا يتكلّم. وإنّ الذي يتكلّم لا يعلم». لكنه تكلم لكي يقول لنا ما قاله للتوّ! قال حكيم آخر: «حين يُفتح الفم، الكلّ أغبياء». واحسرتاه، لقد فتح فمه لكي يُثبت لنا ما يقوله.

قد تحاول أن تصف لنا عصا بطرف واحد لكي تنكر قانون اللاتناقض. في الواقع، أنت مُجبر ألاّ تقول شيئاً، وقد عرّف أرسطو اللاشيء بأنّه «ما تحلم به الصخور».

لقد بقي أمامنا إما أحلام الصخور وإما قبول قانون اللاتناقض. لقد ادّعى يسوع بأنّه «الحقّ». دعونا نمتحن ادّعاءه هذا وتعاليمه. فإن كانت صحيحة، فما يقوله سيكون أهم من أي أمرٍ آخر في هذه الحياة.

الفصل الثالث عشر



معضلة البشرية



أرجو في الصفحات التالية أن أمتحن بعض تعاليم المسيح الرئيسية التي يتوقف عليها صرحُ المسيحية كُله. دعونا بادئ ذي بدء نتأمل في وصف المسيح الدقيق للطبيعة البشرية. هذا بلا شك أحد أكثر الخصائص الشائكة والتميّزة بين المسيحية وكل الأديان الأخرى، أو كل وجهات النظر العالمية الأخرى. فالاختلافات تجد طريقها في نظرياتنا السياسية والثقافية. انظر، على سبيل المثال، إلى وجهتي النظر التالية حول طبيعة الإنسان، وشاهد التباين في نتائجهما. ألفت انتباهكم إلى أفكار روسو Rousseau وپاسكال Pascal حول طبيعة الإنسان الأصلية. فتفكيرهما بعيد الواحد عن الآخر كبعد المشرق عن المغرب.

ففي الفصل الأول من الكتاب «العقد الاجتماعي» *The Social Contract*، مؤلف جان جاك روسو Jean-Jacque Rousseau، يميل الكاتب إلى استخدام عبارات مُبهمة وساخرة، مبتدئاً بهذه الكلمات: «وُلد الإنسان حراً، وهو مقيد في كل مكان.» تعتبر عقيدة روسو أن الإنسان كان في الأصل صالحاً، لكن هذا الصلاح لم يستمر. وقد جاء تطويره للنظرية السياسية الاجتماعية جنباً إلى جنب مع خطة للهندسة البيئية وعقود واتفاقات اجتماعية ركزت على هذا الصلاح الفطري مظهرًا حالة مثالية للإنسان. لم يتحقق حلمه لأن فرضيته الأساسية حول طبيعة الإنسان كانت فرضية خاطئة. لكن، سقطت مفاهيمه سريعاً، كما تلاشت الأحلام الخيالية لولادة الإنسان الجديدة التي تكلم عنها الشعراء الرومنسيون في بداية القرن التاسع عشر بسبب حروب نابليون Napoleon. كل فلسفة بنت بنيتها الاجتماعية على فرضية أن الإنسان صالح في أصله، ستجد تفاؤلها هذا مخيباً للآمل. فالتاريخ يُكذب هذا المعتقد.

خلافًا لهذه الافتراضات الخاطئة حول طبيعة الإنسان، وحول الآمال الإنسانية الاشتراكية المعقودة على هذا الإنسان، وبهذا الإنسان، ولأجله، عرض بليز پاسكال Blaise Pascal المشكلة الأساسية بالتفاؤل التالي:

باطلاً، أيها البشر، تبحثون في دواخلكم عن علاج لبؤسكم. قادكم كل تبصركم إلى المعرفة بأنكم لن تكتشفوا في أنفسكم ما هو حق وما هو صالح. لقد وعدكم بها الفلاسفة، إلا أنهم لم يقدرُوا أن يفوا بوعدهم. لا يعرفون ما هو الخير الحقيقي لكم، ولا يعرفون ما هي طبيعتكم. كيف يمكنهم أن يقدموا لكم علاجاً لأمراض لم يقدرُوا أن يفهموها؟ آفاتكم الأساسية هي الكبرياء التي تفصلكم تماماً عن الله، وشهوانيتكم التي تربطكم بالأرض. ولم يقدموا لكم شيئاً سوى تعزيز آفة واحدة على الأقل من آفاتكم تلك. وإن وجهوا أنظاركم إلى الله، فإنما يفعلون ذلك لكي يساهموا في كبريائكم. لقد جعلوكم تظنون أنكم مثله وأنكم تشبهونه في طبيعتكم. والذين انخدعوا بهذا الادعاء رموا بكم في الهاوية حين جعلوكم تؤمنون بأن طبيعتكم هي كطبيعة حيوان البرية، وقادوكم لتبحثوا عن خيركم في الشهوات التي هي من نصيب الحيوانات.^١

هل كان پاسكال محقاً؟ كيف ندرك حقاً واقع الطبيعة البشرية وأساسها؟ لقد علم يسوع بشكل لا لبس فيه أن المشيئة الذاتية في كل إنسان، والتي تسعى إلى الإستقلالية المطلقة ولا تنحني أمام أي قانون غير القانون الذي وضعته، هي مشيئة متمردة على أعلى المستويات، ولا مناص من انحدارها إلى أدنى مستويات الكرامة والحشمة.

لا يمكن أن يخرج شيء صالح، ما دامت الإرادة فاسدة. غالباً ما يرفض تعليم المسيح هذا كعقيدة وكعائق أمام الإبداع الإنساني. ومع

هذا، نجد الأمثال الحكيمة في أي ثقافة تدعم هذه الفكرة وتثبتها مرةً تلو الأخرى، حتى لو كانت في شكل مأساةٍ فكاھية. دعوني أخبركم بحكايتين طريفتين لأوضح ما قلته للتو.

أستراليا بلاد جميلة جداً بمناطقها ومساحاتها الجغرافية الخلابة، لكن في كل مرة أسافر إلى هناك، كان أحدهم يذكرني دائماً بأنّ عصابة من المجرمين الفارين من بريطانيا العظمى استعمرت تلك البلاد. يعقب هذا التذكير عادة شرح ساخر للحالة الثقافيّة الحاضرة في ضوء ماضي البلاد الإجرامي. بناء على ذلك، أخبركم هذه القصة كما سمعتها من أحد المتكلمين الأستراليين في مؤتمر شاركت فيه في مدينة سيدني Sidney.

شخصان أستراليان وصلا فجأةً إلى بوابة السماء اللؤلؤية. فوجئ حارس البوابة لأنّه لم يكن يعتقد أنّه يمكن لأي أسترالي أن يدخل السماء. طلب منهما أن ينتظرا قليلاً ريثما يتأكد من ملفهما الموجود مع القديس بطرس (لسبب ما أعطينا بطرس سلطاناً في السماء في قصصنا الفكاھية). حين علم بطرس عن أمر هذين الشخصين الواصلين للتو من «الأراضي السفلية»، فوجئ هو الآخر وقرّر أن يذهب شخصياً مع الحارس إلى البوابة لكي يتكلّم مع الوافدين. حين وصلا، وجدا أنّ الأستراليين قد اختفيا، ومعهما اختفت البوابة اللؤلؤية!

أليس هذا إلهاً ما لأعمق ما نوّمن به، ما نعتقد أنّه صحيح، والذي يتصدّر أفكارنا الأكاديمية المسبقة، حين نقارنها بعضها ببعض، ونظهر ازدواجيّتها، مدركين أنّها مجرد صورة عن الموت أو عن فشلها الذاتي؟

نستطيع أن نسخر من عقيدة فساد الإنسان ونعتبرها عقيدة هرمة في تطوّرنا الثقافي ووقاحتنا الفلسفية، لكن لا تلبث هذه العقيدة أن تظهر كل يوم، وفي كل إنسان، وفي كل ثقافة مدمّرة خلال سيرها كل حضارة.

أحب دائماً أن أروي القصة الثانية لأنها تحتوي على حلقة كونية في صحتها. القصة عن أخوين مشهورين جداً في المدينة باستخدامهما طرقاً ملتوية في تجارتهم. وعلى الرغم من ذلك، كانت ثروتهما تزداد يوماً بعد يوم إلى أن مات أحدهما. بدأ أخوه يبحث عن كاهن لتتيميم مراسم الدفن. أخيراً وجد كاهناً لم يقدر أن يرفض عرضه. قال له: «سأدفع لك مبلغاً كبيراً من المال إن عملت معي معروفاً واحداً. فحين تتكلم خلال مراسم التأبين، أريد أن تقول عن أخي إنه قديس، وإن فعلت هذا، سأكافئك بمبلغ كبير من المال.» وافق الكاهن على العرض السخي. لقد كان ذلك الكاهن داهية كبيراً، فلم لا يقبل؟ يستطيع أن يستخدم هذه المكافأة المالية لبناء سقف جديد للكنيسة.

في اللحظة المنتظرة تكلم الكاهن وقال: «كان هذا الرجل الذي ترونه في التابوت خسيساً وفاسقاً. كان كذاباً، ولصاً، ومخادعاً، ومناوراً، وشريراً، ومنحرفاً. لقد قضى على أموال ووظائف وحياة الكثيرين من سكان هذه المدينة. وبعضهم موجود بيننا اليوم. لقد ارتكب هذا الإنسان كل ما يمكن أن تتخيلوه من أفعال خسيسة ومنحطة وقذرة. لكن بالمقارنة مع أخيه، فهو قديس.»

رويت هذه القصة أول مرة في مؤتمر في أمستردام Amsterdam أمام عشرات الآلاف من المندوبين من كل أنحاء العالم. شاهدت لاحقاً ردود فعل الجمهور على شريط فيديو مسجل ولاحظت أن الضحكات والابتسامات علت كل الوجوه. لقد فهم القصة كل شخص كان موجوداً هناك، لأنه لا يهم من أي جزء من العالم نأتي، ولا إلى أية طبقة إجتماعية ننتمي، علينا جميعاً أن نعترف بعيوبنا، نشعر بأننا أبرياء حين نقيس مستوى قداستنا على شخص أدنى منا.

النقطة التي أريد الوصول إليها، هي أن أي خلاصة نصل إليها حول طبيعة الإنسان، وفق الشروط الإنسانية، ستبقى خلاصة دائرية حين

نستخدم كلمات مثل كلمة صالح أو شرير. فالكتاب المقدس واضح في وصفه لطبيعة الإنسان. توحى الكلمة اليونانية المستخدمة للخطية في التعليم المسيحي ليس فقط فكرة التعدي أو الخرق، وهذا ما تشير إليه الكلمة في اللغة الإنكليزية، إنما تتضمن مفهوم عدم إصابة الهدف، أو عدم الوصول إلى الهدف. ما هو ذلك الهدف؟ يقول الكتاب المقدس إنه مقياس الله نفسه.

لقد حاربنا هذا المفهوم سنوات طويلة، وقلنا عنه إنه مفهوم منحط، وفيه إدانة للآخرين، ومغرور أخلاقياً، ونتبرأ منه كونه من مخلفات أفكار نعتبرها اليوم أفكاراً عفا عليها الزمن. نتساءل كيف يمكن للرجال والنساء في المجتمع الحديث أن يقتنعوا بهذه النظرية الهرمة التي تروجها الكنيسة لكي تبقى الناس داخل أبوابها. (قال تيد تورنر Ted Turner بشكل قاطع في الدور الذي أعطاه لنفسه كمتحدث عن نظرية التفاؤل الإنسانية، إنه «لا يجب أن نقول للناس في هذا العصر أن يفعلوا شيئاً»^٢) لكن ألا تدعم هذه الوقاحة نفسها تعليم المسيح حول طبيعة الإنسان، أي أن الإنسان يتمنى أن لا يكون عرضة للمحاسبة من أي إنسان؟

إن إحدى أكثر القصص التي سمعتها تأثيراً في موضوع طبيعة قلب الإنسان هي القصة التي يخبرها مالكولم ماغريدج Malcolm Muggeridge. كان يعمل صحافياً في الهند، وذات مساء، خرج من بيته لكي يسبح في نهر مجاور. حين دخل المياه، رأى امرأة هندية من قرية مجاورة أتت إلى النهر لكي تستحم. شعر ماغريدج بالإغراء، وبدأت التجربة تعصف في عقله. فقد تعايش مع هذا النوع من الصراع سنوات طويلة، وكان شرف التزامه لزوجته، كيتي Kitty، يقاوم التجربة. لكن هذه المرة، بدأ يتساءل إن كان في استطاعته أن يخترق خط الإخلاص الأحمر في حياته الزوجية. صارع الفكرة لحظة، وبعد ذلك سبح بسرعة نحو المرأة، محاولاً عملياً أن يتخطى ضميره. كان عقله يغذيه بوهم خادع، وهو أن المياه المسروقة ستكون عذبة، فأخذ يسبح بسرعة أكثر ليصل إليها. أصبح على

بعد أمتار قليلة منها، وحين خرج من الماء، اعترته مشاعر جعلته شاحب الوجه، وكانت هذه المشاعر ثانوية مقارنة بالشعور المُهْلِك الذي حطّمه فيما كان ينظر إليها. «كانت عجوزًا وقبيحة... ابتسمت ابتسامة كَشَفَتْ عن لثَّتَيْنِ بلا أسنان». جعل هذا الاختبار ماغريدج يرتجف ويتمتم وهو يلث، «يا لها من امرأة وسخة فاسقة!» لكن الصدمة ارتدت عليه، إذ ليست المرأة هي الفاسقة، بل قلبه هو الفاسق.^٢

هذا هو بالضبط تعليم رسالة المسيح. فعندما نتأمل القلب البشري نرى فيه الشهوة، والطمع، والحقد، والكبرياء، والغضب، والغيرة وكلّها أمور مدمّرة. هذا هو مأزق القلب البشري، والكتاب المقدّس يدعو هذه الحالة حالة الخطيئة.

لقد تعلّمنا بسهولة أن نُقلّل من شأن حالتنا. في آخر مقال عميق كتبه أحد أكثر المؤرّخين علمًا بموضوع المحرقة، حاول فيه أن يقدّم كلّ الإجابات الممكنة عن السؤال: «لماذا؟» هل كان السبب اقتصاد ألمانيا، أم ظلم أتفاقيّة فرساي Versailles، أم بزوغ الديماغوجية، تكلم عن كلّ هذه الاحتمالات واحتمالات كثيرة غيرها إجابة عن السؤال لماذا حصلت المحرقة. الأمر الوحيد الذي لم يذكره الكاتب هو نفسه الذي تكلم عنه يسوع، وهو أنّ قلب الإنسان شرير. من يستطيع أن يعرفه؟

قال ج. ك. تشسترتون G. K. Chesterton، ثمة زوايا لا تُعدّ ولا تُحصى يمكن للمرء أن يقع فيها، ولكن لا يوجد سوى زاوية واحدة فقط يستطيع أن يقف عليها مستقيمًا. فإن لم نفهم الخطيئة، ستظلّ البشرية إلى الأبد تفحص الزوايا. إنّ أسوأ تأثير للخطيئة، بالنسبة إلى المسيح، لا يظهر في الألم، أو الفقر، أو التشويه الخلقي، إنّما في الملكات العقلية المجرّدة من تيجانها، والمحبة غير المُستحقة، والمُثل الدنيا، والروح المحطّمة والمستعبدة.

إن رفضت هذا المفهوم عن الخطيئة، كقيد مسيحي على حريتنا، غير المدعومة بنظرية نفسية حديثة، فاقراً الآن هذه الكلمات المدهشة من البروفيسور هوبار مورير Hobart Mowrer الذي كان رئيساً للرابطة الأمريكية لعلم النفس، والذي علّم في جامعة هارفرد Harvard وجامعة ييل Yale. قال في مقالة له نشرتها المجلة *American Psychologist* في العام ١٩٦٠ ما يلي:

لقد اعتبرنا، نحن علماء النفس، على مدى عقود عدّة أنّ الخطيئة والمساءلة الأخلاقية هما كابوسان عظيمان، وتهللنا بتحرّرنَا منهما كما لو أنّنا بدأنا بداية عظيمة ومهمّة. لكنّنا اكتشفنا مع مرور الزمن أنّ التحرّر بهذا المعنى، أي الشعور بأنّنا مرضى لا خطاة، هو اقتراب من خطر الضياع. هذا الخطر، على ما أعتقد، يدلّ على الاهتمام الواسع بالوجودية والذي نشهده حالياً. وعندما أصبحنا غير أخلاقيين، ومحايدين وتحرّرنَا من الأخلاق، قطعنا بذلك جذور كياننا، وفقدنا شعورنا العميق بالذات والهوية، ووجدنا أنفسنا نسأل مع المصابين بالأمراض العصبية، «من أنا، وما هو قدرى الأعظم، وما معنى الحياة؟»

وكرّدة فعل على الانجراف تقريباً نحو الهاوية، أصبحنا فجأة، ومن جديد، مدركين لمشكلة القيم ومحوريّتها في الحياة البشرية. هذه النزعة ظاهرة بشكل واضح في برامج اجتماعاتنا المهنية الأخيرة، وفي مقالات المجلات، وإلى حدّ ما في الكتب المدرسيّة الابتدائية. هناك أمر ما يحدث بشكل واضح مع علماء النفس ونظرتهم إلى الذات.^٤

يقتبس مورير من أغنية أنا راسل Anna Russell الشعبية ما يلي:

حين كنت في الثالثة كنت أشعر

بمشاعر متناقضة تجاه إخوتي،

فكان من الطبيعي

أن أسمم كل من يحبني.

لكني الآن سعيدة إذ تعلمت

درساً من كل هذا،

تعلمت أن كل خطأ أرتكبه

هو خطأ شخص آخر.

هل يمكن أن يكون هناك عبارة أوضح من هذه العبارة تصف حالة القلب البشري؟ أراد مورير بكل تأكيد ألا يظن الناس أنه يتبنّى عقيدة كتابية عن الخطيئة. (لسوء الحظ، وكما يعرف أكثركم، انتهت حياة مورير بالانتحار). لكنه يعترف بشكل قاطع أن نظرة الفلسفة الإنسانية إلى الخطأ بطريقة تافهة هي عمل مفلس وغير قادر على وصف المأزق البشري. فاعتراف كهذا من شخص لا يتعاطف مع المسيحية يعني بأن محاولة وصف البشرية من دون مساءلة علوية تساهم لا محالة في شعورنا الفردي بالخسارة والغربة. وحين يحفر هذا الشعور بالبعد وبالانفصال في ضمائرنا، لا نصبح غرباء عن الله فقط، بل عن أنفسنا أيضاً وعن البشر أجمعين.

❸ إجحاف عالمي

كثيرة هي نتائج تعليم يسوع عن الخطيئة. اسمحوا لي أن ألفت انتباهكم إلى مشكلة واحدة منها لأنها تؤلم حضارتنا، وما لم ندرك جذور هذه المشكلة فلا أمل لنا بالمستقبل.

شخص مثلي أمضى نصف حياته في الشرق، والنصف الآخر في الغرب، يعرف شخصياً المعاناة التي يشعر بها الإنسان المضطهد عرقياً. من المهم أن أضيف أنه لسبب من الأسباب، يُتهم الغرب بأنه مذنّب وحده في هذا المجال، لكنّ هذا المفهوم عن الغرب هو مفهوم خاطئ. حتى في الهند، حيث كلمة التسامح هي كلمة أساسية، فالكراهية بين الشمال والجنوب عميقة جداً، ولون البشرة هو عامل أساسي في هذا الإجحاف. وحين نتأمل العالم اليوم، نجد بعض الأمور المُقلقة والمتقلّبة، أعني مأساة التمييز العنصري والعنقي وجحيمهما. والألم الناتج عن رفض الإنسان بسبب مكان ولادته فقط، هو من أشدّ الآلام التي يمكن للإنسان أن يختبرها على الإطلاق.

لا أدري كم واحد منكم سمع المقابلة التي أُجريت مع لاعب كرة المضرب العظيم آرثر آش Arthur Ashe حيث أعلن أمام الجميع أنه أصيب بمرض فقدان المناعة المكتسبة (AIDS) عبر نقل للدم خلال عملية جراحية للقلب. نظر هذا الإنسان الشهم والمحبوب جداً، في أعين جيش من الصحفيين الذين يجرون معه المقابلة وقال لهم: «من المؤلم أن أعرف أنني مصاب بهذا المرض المخيف، لكن لا شيء يؤلمني أكثر من الرفض الذي عانيت به كل حياتي بسبب لون بشرتي.»

فكّروا في المعاناة الكامنة وراء هذه الكلمات. فكّروا فيها ملياً. كان هذا رجلاً محترماً، وموهوباً جداً، وقد اعتبر بكلّ شهامة أنّ الألم الناتج عن تفكّك جسده كان ثانوياً بالمقارنة مع الألم النفسي العميق الذي تحمّله كلّ حياته بسبب الرفض الناتج عن لون بشرته.

لكن هذا الأمر ليس معضلة خاصة بعصرنا الحديث. انتبهوا معي إلى الحوار الذي جرى بين يسوع والمرأة السامرية عند بئر يعقوب منذ ألفي سنة. أركّز على هذا الحوار بين يسوع والمرأة السامرية لأنّ لقاءه هذا معها، لم يكن غير اعتيادي، فغالباً ما كان يتكلّم مع المرفوضين

في مجتمعه. في هذه الحالة، كانت المرأة سامرية، وكان هذا اللقب يُعتبر احتقارًا في ذلك المجتمع لسبط هجين. وفوق هذا، كانت متزوجة، وخائنة، وهجرها خمسة من أزواجها. كل شيء في حياتها يدل على أنها كانت مرفوضة. وبحكم عرقها، وجنسها، وخبرتها على الصعيد الأخلاقي، كانت منبوذة من مجتمعها. نستطيع أن نفهم بكل سهولة، لماذا صُغت حين أراد هذا الرجل المعلم، أن يتحاور معها. فما فعله يسوع أعاد إليها اعتبارها وكرامتها بشكل ضمني. والعواطف التي عصفت في فكرها جعلتها تسأل: «كيف تطلب مني لتشرب؟» (يوحنا ٤: ٩). كانت دهشتها بسبب تكلمه معها واضحة، فقد كانت «غير طاهرة» عرقياً، لقد كانت ضحية الإجحاف. لكن يسوع غيّر حياتها بشكل عجيب، ولم تعد تنظر إلى نفسها كما لم تعد أي امرأة أخرى تنظر إليها بالطريقة نفسها، فقد عمل الله عملاً عجيباً في قلبها. تغيّرت نظرتها إلى داخلها وإلى خارجها حين تغيّرت نظرتها إلى أعلى. هذا التسلسل هو الطريقة الوحيدة لإحداث تغيير حقيقي في العلاقات البشرية. علاقتنا مع الله تملئ علينا علاقاتنا مع الآخرين.

لكننا حاولنا في أيامنا هذه أن نتخلّص من الإجحاف بعيداً عن الله، لنبحث عن حلول من خلال سنّ قوانين جديدة وإعادة صياغة قوانين قديمة، ومن خلال تثقيف أنفسنا وتثقيف أولادنا. ومع هذا، من منا يستطيع أن يقول إنه نجح في إلغاء أذية الناس؟ إن مجتمعنا واقف باستمرار على حافة الدمار فيما العنف يتصاعد بين المجموعات المتنافسة فجأة وبلا رحمة إن كان هناك تلميح للإدانة العرقية. آه، لقد أعدنا صياغة الكتب القانونية في الهند أيضاً، ومع هذا، ما زال هناك نظرية تقول إن الهندوس الذين اغتالوا مهاتما غاندي Mahatma Gandhi، إنما فعلوا ذلك للقضاء على مثال غاندي الأعلى الذي سعى للقضاء على النظام الطبقي. سواء كانت هذه النظرية صحيحة أم لا، فما زالت الهند تتصارع مع التمييز العنصري.

إني لعلّى قناعة بأنّ كلّ محاولاتنا في تغيير كلمات القانون وإعادة تثقيف الناس كانت وما زالت مجرد محاولات شبيهة باستخدام ضمادات الجروح الصغيرة لوقف نزيف كبير. لن يتغيّر النظام أبداً لأنّ نقطة البداية التي انطلقنا منها معيبة. لا تستطيع وجهة النظر العلمانية عن الإنسان، أن ترى العظمة التي يستطيع الله أن يعطيها للإنسان، ولا أن ترى الشرّ القابع في قلب الإنسان والذي لا يستطيع إلاّ الله وحده أن يكشفه ويشفيه، لأنّ الإلحاد يجرد الإنسان من صورة الله العظيمة التي طبعها الله في خليقته.

ثمّة عالمان كونيّان معاصران، يعطيان تعليّقاً مخيفاً، يقولان: «في نهاية المطاف، ليست الكائنات البشرية مهمّة، بل الحمض النووي.» يمكن لأيّ شخص أن يستنتج من هذه الكلمات أنّ الإجحاف ليس شخصياً، بل هو مجرد نفور للحمض النووي. أليس هذا هو المنزلق الذي لا مفرّ منه، والذي يقع فيه كلّ من يتبع وجهة النظر الإلحادية عن الإنسان الذي يعتبر حاجات الفرد ومتطلباته أهم من أيّ أمر آخر؟

سُئل مؤخّراً تيد تورنر Ted Turner الذي لا يخاف أن يعالج أيّ موضوع صعب في برنامج مع ديفيد فروست David Frost إن كان نادماً على أيّ شيء خلال حياته المرصّعة بالكؤوس والجوائز. فجأة، بدت على وجهه علامات الحزن والكآبة، وتبدّلت هيئته، وقال تورنر بتجهم: «نعم، أنا نادم على الطريقة التي عاملتُ بها زوجتي الأولى.» كان الجواب مبالغاً لمحاوّرته، الذي قال: «أنا معجب بصراحتك.» لكن علينا أن نسأل لماذا يشعر بهذا الندم لو كان هذا الندم مجرد رفض للحمض النووي؟ لا تُطاق الحياة ولا يمكن تفسير مشاعرنا إن لم نعطِ للشخصية قيمة أبعد من القيمة المادية.

٥ كرامة مستثمرة

إذاً، من أين تأتي الكرامة البشرية؟ ليس ثمّة أية طريقة لاستنباطها أو لفرضها بالقوة. يجب أن تكون الكرامة البشرية أساسية. والتعليم

المسيحي في هذا المجال هو تعليم فريد. أشار البروفيسور بيتر كريفت Peter Kreeft من كلية بوستون Boston College بشكل باهر إلى هذا التمييز بين المسيحية والفكر العلماني. ففي تدبير الله للخلق، قصد أن يكون هناك مساواة بين الكائنات البشرية، أي إن كل إنسان هو مساو للآخر في الجوهر والكرامة. من جهة أخرى، قصد أن يكون هناك نخبة في الأفكار، أي إن الأفكار ليست متساوية، فبعض الأفكار متفوقة بشكل واضح على أفكار أخرى.

لقد عكس التفكير الإلحادي هذا التدبير، وهو في الواقع مجبراً على ذلك، لأن نقطة بدايته تقود إلى الخلاصة المعاكسة. فقد حولوا البشر إلى نخبة، وجعلوا الأفكار متساوية. نتيجة لهذا، نعظم أفراداً أو عرقاً بشرياً ما ونرفض غيرهم، وفي الوقت نفسه نناقش بغباوة بأن كل الأفكار متساوية. لو قدر لبلاء التمييز العنصري أن يختفي يوماً، فسيختفي فقط على الأساس أن الكتاب يعلمنا عن حقيقة أصلنا ومن أين أتينا كبشر، وأننا ينبغي أن نحترم كل إنسان لما أعطاه إياه الله من بهاء الخلق. من السخرية بمكان أننا حين نرفض أي فئة من البشرية، فإننا نرفض أنفسنا بشكل أساسي.

يقول التعليم الكتابي إن الله خلق الإنسان على صورته ومثاله. والترجمة الحرفية لما قاله داود في مزمور ٨: ٤ هي التالي: «لقد صنعت الإنسان وينقصه شيء قليل من الله فيه.» لا يمكن لهذه الكرامة أن تستحضر إلى الذهن أو أن تصبح قانونية بموجب مرسوم ما. الكرامة هي عزنا الأساسي، وهي عز كل الشعوب من مختلف الأعراق والألوان. كلنا نتشارك بهذا المجد المتساوي، لكن لأننا رفضنا الله، نجد أن هذا المجد مشوه بالخطيئة التي تنتج حقداً وكراهية. يمكن استرداد هذا المجد فقط حين نعالج الخطيئة. نحن في حاجة إلى عملية لزرع قلب جديد، لكن كلما رفضنا أن نعترف بحالتنا المزرية، هرب الحل منا، وسيستمر البشر في العيش بلا كرامة. لقد أشار يسوع إلى صميم المشكلة حين قال: «ولا

تريدون أن تأتوا إليّ لتكون لكم حياة» (يوحنا ٥: ٤٠). ما أتعس القلب البشري (راجع مرقس ٧: ٢١)! مشكلتنا لا تكمن في التعليم غير الكافي. المشكلة هي في القلب المتمرد.

٣ امرأة بلا وجه

قال ج. ك. تشسترتون G. K. Chesterton مرّة إن عدم الإيمان بالله هو كالأستيفاظ صباحًا والنظر في المرأة وعدم رؤية شيء فيها. لن ترى فيها شيئًا يعكس مظهرك.

هذا ما يقوله الكتاب المقدّس عن نتائج الخطيئة. تسلبنا طبيعتنا الحقيقية، وتحجب عنا رؤية حقيقة أنفسنا. دعوني أشرح ذلك قليلاً، لأنّ هذا المفهوم المسيحيّ الحيوي كثيراً ما يُساء فهمه ويُحرّف. جون دولورين John DeLorean هو شخصيّة مشهورة كان عرضة للفحص الشعبي الدقيق في الآونة الأخيرة. هذا الإنسان، دولورين، ذو الشعر الأشقر الجميل والذي ينتمي إلى عالم صناعة السيارات، وجد نفسه ذات يوم في قاعة المحكمة بتهمة الاتجار بالمخدرات، وراح يدافع عمّا تبقى من امبراطوريته. تناول في كتابه اللحظة الحاسمة في محاكمته، والتي كانت بالنسبة إليه كبزوغ فجر في ظلامه القاتم. وصف دولورين مشاعره فيما كان شاهد أساسي من الحكومة، وواش دُفع له مال، يشهدان ضده، مزيفين الوقائع ومخترعين سلسلة ملفقة من الحوارات التي لم تحدث. لماذا يفعلان ذلك؟ إلى أين يريدان أن يصلا بهذه الأخبار العارية من الصحة؟ كانت هذه الأسئلة تحير دولورين الذي كان يفقد أعصابه ويستشيط غيظاً.

أدرك فجأة أنّ ما يحدث في قاعة المحكمة هو صورة معكوسة عمّا حدث في حياته. «لقد شعرتُ أنّي سبق أن شاهدت هذا الأمر. كنت واقفاً وجهاً لوجه مع جون دولورين القديم في سعيه المتكابر للشهرة والقوة

والمجد.» وبينما كان دولورين يراقب حماسة ذلك الشاهد الكذاب وهو يدوس كل ما هو لائق وشريف، رأى أنه لم يكن مختلفاً عن طموحه الأعمى الذي اقتاده إلى تحقيق حلمه الشخصي ببناء شركة للسيارات. لأنه هو نفسه، يوم كان يسعى لتحقيق حلمه، كان يدوس على كل ما هو عزيز عليه. قاداته هذه النظرة الداخلية إلى نفسه لكي يتّضع أمام الله، ومهدّت الطريق أمام تغيير دراماتيكي في حياته لطلب الغفران من الله الرحيم. كانت خطوة صعبة بالنسبة إليه، لأنّ التوبة هي دائماً صعبة.^٧

تكلم يسوع عن الربح العظيم الذي يناله كل واحد منّا حين ندرك فقرنا الروحي، وفسق قلوبنا، ونلتفت إلى الله لكي يُنقذنا من أنفسنا. الاتّضاع والإذلال ليسا الشيء نفسه. الله وحده هو الذي يجعلنا مُتّضعين من دون أن يذلّنا، ويرفعنا من دون أن ينفخنا. قال پاسكال Pascal: «كلّ مآسي الإنسان هي انعكاس لعظمته.»

أيقظت لحظة الوعي والإدراك روح الصحافي النائمة تيري أندرسون Terry Anderson، الذي أسره إرهابيون في لبنان. قال أندرسون إنه رأى خلال فترة أسره أموراً في خاطفيه، كان يكرها ويمقتها. وكلّما لاحظ هذه الأمور وتكلّم معهم، كان اشمئزازه منهم يزداد. وأضاف قائلاً: «ومع هذا، وبطريقة غريبة، لم يكن فيهم شيء لم يكن موجوداً فيّ.»

ستكون عبوديّتنا أعظم من عبودية القيود الجسدية إلى أن نصل إلى نقطة الإدراك هذه لفقرنا الروحي المدقع. إن أردنا، في عالمنا هذا، أن يُنقذنا أحدهم من جحيم عدم التسامح والإجحاف، علينا أن نعرف سبب هذا الجحيم وعلاجه. فلقد خُلّقنا على صورة الله، لكنّ خطيئتنا هي التي تقودنا إلى الظلم والحقد. وإصلاح هذه الآفة البشرية يتمّ فقط عندما نعود بتواضع إلى الواحد الذي خلقنا. لا نستطيع أن نتّضع في عالم نحيا فيه من دون الله.

٥ منحدر ابتغاء للعظمة

في العهد القديم فقرة مألوفة، وردت في سفر التكوين الأصحاح ٣٢، وفي هذه الفقرة نقطة غالباً ما لا يلاحظها حتى القارئ الفطن. إنها القصة التي تصف عودة يعقوب إلى دياره بعد غياب طويل. لقد هرب يعقوب من بيته منذ سنوات لأنّه سلب البركة التي كانت من نصيب أخيه الأكبر، عيسو. وبينما كان عيسو يصطاد الحيوانات، انتحل يعقوب شخصيّة عيسو بطريقة مأكرة، وجثا أمام أبيه الأعمى، إسحق، وطلب منه أن يباركه بالبكورية التي كانت من نصيب عيسو. دُهِش الأب، لأنّ الصوت كان صوت يعقوب، وقال: «أنت لست عيسو، فكيف أباركك؟» قدّم له يعقوب طعاماً طازجاً، مدّعياً أنّه اصطاده. وبارك إسحق يعقوب بتردد، ظاناً أنّه عيسو، وأعطاه حقّ البكورية التي لم تكن من نصيبه. وبسبب غضب أخيه الناتج عن هذا الأمر، اضطر يعقوب إلى الهرب، وبقي هارباً كلّ هذه السنوات. في هذه الأثناء، توفيت والدته التي تأمرت معه، وقرّر يعقوب أخيراً أن يعود إلى دياره على أمل أن يكون غضب أخيه قد هدأ.

وصل يعقوب إلى اللحظة الحاسمة، إذ بدأ يقترب من أخيه، وسيلتقيه صباح اليوم التالي. خاف يعقوب على حياته، ولم يبقَ أمامه سوى أمر واحد لم يفعله؛ ارتدى أمام الله. يخبرنا الكتاب المقدس بأنّ يعقوب صارع الله الليل كلّهُ، وصرخ قائلاً: «لن أطلقك إن لم تباركني.» كانت صرخة رجل فقدّ الأمل وهو لا يعلم المصير المشؤوم الذي ينتظره في اليوم التالي.

أجابه الله بتحدٍّ غير عادي وسأله: «ما اسمك؟» هذا سؤال عجيب من إله كلّ المعرفة. لماذا يسأل الله يعقوب عن اسمه؟ فكروا في ما كان سيقوله الله لو وبّخ يعقوب. لكنّ الله لم يقل شيئاً، بل فقط سأل يعقوب عن اسمه. ثمّة درس لكلّ واحد منّا في طرح الله لذلك السؤال، وهو درس عميق جدّاً لا يمكن أن نتجاهله. لقد غيّر هذا السؤال، في الواقع،

تاريخ العهد القديم بأكمله. فحين طلب يعقوب من الله أن يباركه، اضطر يعقوب من خلال هذا السؤال أن يسترجع ذكرى المرة الأخيرة التي طلب فيها البركة، تلك البركة التي سلبها من أخيه.

آخر مرة سُئل فيها عن اسمه، كان السؤال صادرًا عن أبيه الأروسي. كذب حينها وقال: «أنا عيسو»، وسلب البركة. والآن، وبعد إضاعة سنوات طويلة من الهرب والوجل، يجد نفسه أمام أب كَلِّي المعرفة، فيطلب البركة من جديد. فهم يعقوب قصد الله من طرح هذا السؤال، وأجابه: «اسمي يعقوب». أجابه الله: «بالصدق أجبت، وأنت تعلم بالضبط ماذا يعنيه اسمك. لقد كنت رجلاً مأكراً، خدعت الجميع أينما ذهبت. لكن بما أنك الآن تعترف بحقيقتك سأغيرك، وأخرج منك أمة عظيمة».

لكي تكون عظيمًا في عيني الله، لا بدّ للتواضع أن يأتي أولاً. لا يوجد أي طريقة أمامك أو أمامي لكي نصل إلى العظمة قبل أن نأتي إلى الله. فتبرئة الذات وتعظيمها يحدثان بسهولة حين نقيس أنفسنا بمقاييس شخص أدنى من مقاييسنا، إلا أن النتيجة ستكون حتمًا البعد عن الذات وعن بعضنا. أمّا حين نقيس أنفسنا أمام الله، فإننا نشعر بوزر خطيئنا. من هنا، فإن وعي الإنسان لحاجته هو بداية للوصول نحو الهدف وبداية تشكيل للشخصية. إن وصف يسوع لقلوبنا الشريرة يتلازم بشكل واضح مع ما نختبره، ونكران هذا الوصف هو صفة على وجه الواقع، يعقبها ازدراء بعضنا لبعض. إن الله هو الوحيد القادر أن يحدث فينا هذا التغيير الذي نحتاج إليه. قال ج. ك. تشسترتون G.K. Chesterton ذات مرة بحق: «ليست مشكلة المسيحية أنها جُرِّت فوجدت ناقصة، بل اعتبرت ديانة صعبة ولم يحاول أحد أن يجربها». وفي ردّ تشسترتون على مقالة نُشرت في مجلة *The Times* في لندن بعنوان «ما مشكلة هذا العالم؟» *What's wrong with the World?*، يجيب تشسترتون بالقول: «أنا هو المشكلة. المُخلص لكم، ج. ك. تشسترتون». هذه هي النقطة التي أراد أن يوصلها يسوع بالضبط: نحن المشكلة في هذا العالم.

الفصل الرابع عشر



سعي الفيلسوف



الدفاع الثاني لتعاليم المسيح هو أنّه وحده من يجيب عن البحث الفلسفي الحازم حول الوحدة في التنوّع. فمنذ فجر الفلسفة اليونانية، ومن أيام الفيلسوف اليوناني ثيليز Thales، وسؤال الوحدة والتنوّع يطارد الفلسفة. ففي بداية التعليم الفلسفي، غالباً ما يُطرح هذا السؤال على الطلاب: ما الذي كان موجوداً بعد العام ٥٨٥ ق.م. ولم يكن موجوداً قبل ذلك، وبدأ عند الساعة ٦،١٣ من بعد الظهر. وكان جزء من الإجابة أنّ ما حدث هو كسوف للشمس. لكنّ الجميع يعلم أنّ كسوف الشمس حدث مراراً وتكراراً قبل العام ٥٨٥ ق.م. أمّا الظاهرة الفريدة التي يُشير إليها هذا السؤال، فهو أنّ ثيليز تنبأ بهذا الكسوف. إنّ تكهنات ثيليز وحبّه للمعرفة النظاميّة أنجبا الفلسفة.

لكنّ ثيليز سعى بشكل حثيث لكي يجد إجابة عن سؤال آخر. كان يعلم أنّ العالم مصنوع من أشياء متنوّعة لا تُحصى: النباتات، والحيوانات، والغيوم، وغيرها. كان يتساءل ما هو العنصر الأساسي الذي جمع كلّ هذه الأشياء بعضها مع بعض، ومِمّ خرج كلّ هذا التنوّع؟ ظنّ ثيليز أنّه لا بدّ أن يكون الماء هو ذلك العنصر الذي يبحث عنه، لكن طلابه توسّعوا في هذا الأمر ليشمل أربعة عناصر أخرى: التراب والهواء والماء والنار. ومنذ ذلك الحين إلى الآن كان سعي الفلاسفة لأن يجدوا الوحدة في التنوّع. ربما لا يُدرك كثيرون ممّا كلّ آثار هذا السعي، لكنّها وبطرق بسيطة، وصلت إلى لغتنا وحضارتنا.

فالكلمة *quintessence* مثلاً، تعني «العنصر الخامس». فماذا كان هذا العنصر الخامس، أو العنصر المطلق الذي قد يوحد العناصر الأربعة

الأخرى ويشرح الوحدة في التنوع؟ نقرأ على كل قطعة نقد معدنية أمريكية هذه الكلمات *E Pluribus Unun*، من الكثير، واحد، ومن التنوع وحدة. والكلمة *University* في حد ذاتها تعني إيجاد الوحدة في التنوع.

عند نقطة معيّنة من التاريخ، كان علم اللاهوت يُعتبر قِمة الاختصاصات، لأنه كان يعطي وجهة نظر عالمية موحدة لتنوع السعي الفكري. عندما تخلينا عن الله، تخلينا بالتالي عن الوحدة، فنتج عن ذلك التفكك. ولم يبقَ أي تماسك في التعليم. فخرّجوا الجامعات في هذه الأيام، يتخرجون من *Pluriversity* (تعدد التنوع)، حيث الاختصاصات المتنوعة غير مرتبطة بعضها ببعض. من هنا، فإن الجامعات *Universities* لا تطبّق الدعوة التي من أجلها تأسست.

إنّ البحث عن الوحدة في التنوع ترك أثراً، بدءاً من اللغة، إلى العملات، إلى التعليم. واليوم، هذا البحث عن الوحدة يزداد أهمية، لأنه مع ازدياد الاختصاصات يزداد تفكك المعرفة. ومن دون الوحدة في الجوهر، سيُبعدنا تنوع الجوهر والمعرفة بعضنا عن بعض. يتفق الملحدون والمؤمنون على أمر واحد، وهو أنّ في عالم السبب والنتيجة هذا، فإنّ التنوع قائم، لكنّ الوحدة هي التي نسعى للحصول عليها. أمّا السؤال المطروح، فهو كيف حصلنا على التنوع، وكيف نحدد مكان الوحدة أو كيف نعرفها؟

ثمّة ضغط على نظرية الارتقاء والتطور عند الملحد، لشرح كيفية ظهور التنوع الموجود في وحدة لعاب بدائية. لا تستطيع الهندوسية ولا البوذية ولا ديانات أخرى أن تشرح هذا الأمر أيضاً. بعيداً عن كلّ التنوعات المادية الموجودة في عالمنا، فإنّ في العلاقات البشرية ثلاث حقائق حيوية مهمّة وثابتة: الشخصية، والتواصل، والحب. ولهذه الأمور أيضاً علاقة بالتنوع، ولا سيما في نطاق الشخصية. ففي الإيمان المسيحيّ وحده يمكن شرح هذه التنوعات، لأنّ الإيمان المسيحيّ وحده يتضمّن وحدة وتنوعاً في آثار الوجود، لأنه يوجد وحدة وتنوع في العلة الأولى

لوجودنا. هذه الوحدة وهذا التنوع موجودان في الثالث. ففي الثالث، وقبل خلق الإنسان، كانت الشخصية والمحبة والتواصل موجودة في الله. ثمة استدلال مهم هنا وهو أنه يوجد ضمناً في الثالث تسلسل هرمي بين الأدوار في الله، لا يبطل المساواة في الجوهر. والفهم الصحيح للثالث لا يعطينا مفتاحاً لفهم الوحدة في التنوع فحسب، بل يعطينا أيضاً إجابة فريدة للصراع العظيم الذي نشاهده بين الأعراق، والثقافات وحتى بين الجنسين.

يقدم لنا الثالث مثالاً على الجمع بين المحبة والكرامة الأساسية من دون التقليل من الشخصية والفرادة والتنوع. ولا شك أن الثالث يستتبعه سر، لكن، كما قال أحد أعظم الفلاسفة والعلماء في القانون، مورتيمر أدلر Mortimer Adler، يمكن التوقع أن أية معرفة عن الله ستعطينا وضوحاً بدائياً وسراً قانونياً. تجدر الإشارة إلى أن تدقيق أدلر وعقله القانوني، قاده إلى إيمانه بالمسيح.

ثمة سؤال شرعي جداً يمكن طرحه، وهو كيف يمكن أن يكون هناك «ثلاثة» في «الواحد» من دون التباس. يجب أن نبقي في أذهاننا أنه حين نُشير إلى الله كشخص، يجب أن يكون هناك بعد، حيث نفهم، قياسياً، أنه قادر في ذلك البعد أن يتجاوز المحدود ومع هذا يبقى شخصاً. قال سي إس لويس C. S. Lewis عن الثالث إنه إما أن يكون العقيدة الأكثر سُخفاً التي اخترعها التلاميذ الأوائل، وإما أن يكون أعمق سرٍّ أوحاه لنا الخالق بنفسه، معطياً إيانا إحياءً عظيماً عن الواقع. ساعدنا لويس بشكل عظيم أن نقرب من سرّ الشخصية الإلهية باستخدام القياس.

كثيرون من الناس يقولون اليوم: «أنا أومن بالله، ولكن ليس بإله شخصي». فهم يشعرون بأن هذا السرّ الموجود وراءه كل سرٍّ آخر، يشير إلى أنه أكثر من مجرد شخص. والآن يوافق المسيحيون على ذلك. لكن المسيحيين هم الوحيدون

الذين يقدّمون فكرة عن كيف يمكن لكائن أن يكون، وهو أبعد من أن يكون شخصياً. كلّ الآخرين، مع أنّهم يقولون إنّ الله هو أبعد من أن يكون شخصياً، يفكّرون به كإله غير شخصي: أي يفكّرون به كونه أقلّ من شخص. إن كنت تبحث عن شيء أبعد من أن يكون شخصياً، فالسؤال ليس أن تختار بين الفكرة المسيحية والأفكار الأخرى. فالفكرة المسيحية هي الفكرة الوحيدة الموجودة والمتاحة.

أنتم تعلمون أنّه يمكن التحرك في الفضاء بثلاثة طرق: إلى اليسار أو إلى اليمين، إلى الخلف أو إلى الأمام، صعوداً أو نزولاً. وأي اتجاه ستذهب فيه سيكون واحداً من هذه الاتجاهات الثلاث، أو خليطاً منها. نسمي هذه الاتجاهات الأبعاد الثلاثة. والآن لاحظوا التالي. إن كنت تستخدم بعداً واحداً، تستطيع أن ترسم خطاً واحداً مستقيماً. وإن كنت تستخدم بعدين، ستقدر أن ترسم صورة، كصورة المربع مثلاً. والمربع مصنوع من أربعة خطوط متساوية. والآن فلنخطُ خطوة أبعد من ذلك. إن كنت تستخدم ثلاثة أبعاد، تستطيع أن تبني ما نسمّيه بالجسم الصلب، كالمكعب مثلاً، شيئاً يشبه النرد أو قطعة السكر المتحجرة. والمكعب مصنوع من ستة مربعات.

هل ترون وجهة نظري؟ فإن كنت تستخدم بعداً واحداً، فأنت ترسم خطاً واحداً مستقيماً، وإن كنت تستخدم بعدين، فأنت ترسم مربعاً من أربعة خطوط مستقيمة. وعالم بثلاثة أبعاد هو عالم يحتوي على صور، لكنّ هذه الصور تشكّل جسماً واحداً صلباً. بكلمات أخرى، كلّما تقدّمت إلى مستويات أكثر واقعية وتعقيداً، ستبقى الأشياء التي ظهرت في المستويات الأولى موجودة، لكنّها ستكون مركّبة بطرق

جديدة، بطرق لا يمكن أن تتخيلها إن كنت لا تدرك سوى
المستويات البسيطة.^١

سيساعدنا هذا للحصول على فهم أعمق، ولو كان فهمًا هزيلًا، حول
كيف يستطيع مفهوم الشخصية حين يتخطى محدوديتنا، أن يحتوي على
تعقيد وفي الوقت نفسه يحافظ على بساطة هادفة. (يستطيع أحدهم أن
يستخدم إيضاح النور في موجاته وخصائص جسيماته، التي مع أنها في
تنازع وتوتر متصاعد، فإنها تبقى متماسكة ضمن مجموعات. بعبارة
صارمة وعملية، إنَّ لمفهوم الوحدة والتنوع آثارًا مدهشة في الحياة.
قد يكون الثالث أهم تعاليم المسيح في سياق الوحدة في التنوع هذا.
الثالث هو كمخطط للمحبة والتواصل الذي يمكننا أن نشاركه مع أخوتنا
في البشرية، محافظين على تنوع مذهل وعلى وحدة روحية.

بما أنَّ الوحدة في التنوع هي السعي المهم لكل واحد منا في هذه
الحياة، عليها أن تعالج بعض المواضيع الأساسية حول كيفية عيشنا
كأفراد بيننا وبين أنفسنا. لأننا ونحن أفراد، نعيش مع تنوع من الرغبات
التي تبحث عن الوحدة في الهدف. مرة أخرى، تجيب الرسالة المسيحية
عن هذا السؤال الفلسفي. دعوني أشرح هذا الأمر بتوسع أكثر.

٥ اندماج العبادة

أحد أعظم أشواق القلب البشري هو أن يعبد. ومع ذلك، فإنَّ في هذه
النزعة بالذات، ما يشدُّنا في كل الاتجاهات التي تعارض بكل وضوح
جوهر العبادة. ويمكن أن نشعر بهذا التجزؤ الذي يؤدي إلى تحطيم الوحدة
في كل الحياة. لكن يوجد أمر آخر أكثر تعقيدًا. فكرة العبادة نفسها ليست
فكرة متألّفة أو موحدة، خاصة حين تنظر إلى أنواع العبادات المختلفة
التي يمارسها الناس.

إنَّ العطش للعبادة أو لما هو مقدّس في كلّ الحضارات وفي كلّ الأزمنة، متأصل بين المثقّفين وغير المثقّفين، وبين الصغار والكبار. ما زلت أذكر جيّدًا عندما كنت طالبًا في جامعة نيو دلهي New Delhi، وكان الطلاب جالسين من حولي وعلى جباههم رماد ملوّن حصلوا عليه بعد أن زاروا المعبد في طريقهم إلى الجامعة. تكثر حول العالم الكنائس والهيكل والجوامع ودور العبادة. وما زالت الكتب المقدّسة تملأ رفوف الباحثين عن الحقيقة، مثل كتاب Gita والقرآن و Grant Sahib و Tri-Pitakas والكتاب المقدّس وغيرها من الكتب. ما زالت الاحتفالات الدينيّة تُمارَس، والصلوات والابتهاالات تُرفع في لحظات الحياة الصعبة. نظرة خاطفة واحدة إلى تاريخ البشرية كافية لكشف سعي الإنسان الوطيد وراء الأمور الروحيّة.

كان المسيح يعرف جيّدًا هذا الميل الموجود داخل الروح البشرية. لهذا السبب قال إنَّ العبادة لا يجب أن تكون فقط بالروح، لكن بالحق أيضًا. فإن لم تحرس الحقيقة العبادة، فلا حدود أمام الخرافات والخداع الذي يمكن أن يصل إليه عقل البشر، بمن فيهم أولئك المنتمون إلى الديانة نفسها. العبادة وحدها لا تقدر أن تبرّر نفسها. هي في حاجة إلى زمام الحقيقة، وهذه الحقيقة هي في شخصيّة الله وصفاته. وحين يكرّس الفرد نفسه لله، لا تتحد حياته لمجد الله فقط، إنّما يُعطى زخمًا أخلاقيًا ومحددًا لنشاطاته وعلاقاته الأخرى.

بكلمة أخرى، لا يجب أن تكون العبادة متعمّدة فقط، بل يجب أن تكون أيضًا محدّدة. لقد حدّد الله العبادة بأنّها عمل يجب أن يتوجّه نحو الله فقط. ولا يجب أن تُصبح العبادة مجرد احتفال. حين خلقنا الله، خلقنا لكي نعبد، ولا يوجد أية شهادة جامعيّة قادرة أن تحلّ مكان هذه الحاجة.

أعتقد أنّ العبادة مهمّة لأنّها تجعل حياة المرء متماسكة في ذاتها، وفي انسجام مع الآخرين في المجتمع. وقد عرّف رئيس الأساقفة المشهور وليم تمپل William Temple العبادة بهذه الكلمات:

العبادة هي خضوع كل طبيعتنا لله. إنها تنشيط الضمير بقداسته، وغذاء العقل بحقه، وتطهير الخيال بجماله، وفتح القلب لمحبه، وخضوع الإرادة لمشيئته. كل هذا يجتمع في العبادة وهي أعظم تعبير يمكننا القيام به.^٢

من الجدير هنا أن نمتحن كل عبارة بدقة. نحن البشر لسنا مجموعة من الحواس المنعزلة وغير المرتبطة. وللتعبير عن ذلك بطريقة أخرى، نقول إننا حين نعطي متنفّساً للحوافز المتناقضة، فإنّ الاغتراب الداخلي الناتج عن ذلك هو مدمر. ففي كل الأوضاع التي تبسطها هذه الحياة، يجب أن يكون للفرد التزام مع رؤية موحّدة لهدف واحد. وحين لا يكون الواقع كذلك، ستجد الجفاء والتنافر في المرصاد. العبادة الحقيقية والروحية تلتحم بالضمير والعقل والخيال والقلب والإرادة من اتجاه واحد، خالقة نسيجاً يعبر عن الجمال والحياة المنسجمين مع الصلاح المطلق. فالعبادة تتخلل كل نواحي الحياة، وتعطي وحدة في التنوع داخل حياة الفرد. هذه الوحدة الداخلية تعبر عن ذاتها في كل مساعي الحياة، وتعطي معنى للحياة نفسها، وإلا كان في الحياة تنوع فقط مخفف بكلمة أطف، هي التناقض.

٥ مسار ومذبح

حين نحصل على الوحدة في الداخل سيؤثر ذلك في كل نواحي الحياة. نجد أيضاً عظيماً عن الزخم الغامر للعبادة الحقيقية في فيلم *Chariots of Fire*، الذي وصف حياة عدائين شاحذي العزيمة في أولمبياد العام ١٩٢٤ في فرنسا. ركض كل واحد منهما بشغف متساو للآخر، لكن بهدفين مختلفين تماماً. ركض هارولد إبراهيمز Harold Abrahams لأجل المجد والتقدير الذاتيين، «وبإرادة للوصول إلى السلطة». أمّا إريك ليدل Eric Liddell، من سكوتلاندا Scotland، فركض بالتزام مسيحي للوصول إلى التفوق والتميز لأجل الله.

كان إبراهيم يُناقش صديقاً له قبل المشاركة بالسباق حول موضوع الربح والخسارة، فسأله صديقه كيف يتعامل مع الخسارة. أجابه إبراهيم: «لا أدري، لأنني لم أخسر أبداً.» هذه قصة شخص واثق بنفسه ومهووس بشغف الربح. لم يهتم أي أمر آخر إلا أن يكون أولاً. الآن، وقبل لحظات من الجري في الأولمبياد الذي استعد له إبراهيم لسنوات طويلة، واجهته لحظة الحقيقة، فبينما كان يتكلم مع صديقه، اعترف إبراهيم اعترافاً متبصراً. قال: «اعتدت أن أخاف من الخسارة، لكنني الآن أخاف من الربح. أمامي عشر ثوان لكي أثبت سبب وجودي، وحتى حين أفعل هذا، لن أكون متأكداً أنني فعلت.» توحى هذه الكلمات تبصراً غير عادي، لأنه هكذا يتم السعي وراء المجد الذاتي، وحين يحصل الإنسان عليه، يبقى كل هذا المجد فارغاً.

على النقيض من ذلك، تظهر أخت إريك ليدل في الفيلم وهي توبّخه لأنه حاول بكثير من الجهد أن يربح الميدالية الذهبية، مهملًا بذلك أموراً أكثر أهمية. لكن إجابته لها تظهر ارتباطه العميق بكل ما يسعى إليه في حياته. قال لها: «يا جنّي Jenny، لقد خلقتني الله لهدف معين، هو لأجل الصين. لكنه أيضاً خلقتني سريعاً. وحين أركض، أشعر بمتعة الاقتراب إليه.»

إن استطعنا إدراك الفرق بين هذين الاعترافين، فأنا واثق بأن هذا الإدراك سيفتح عالمين مختلفين أمامنا. عالم المجد الذاتي الذي ينتقل من نشوة الانتصار إلى الفراغ، لأنه لا يمكنه أبداً أن يعطي الروح شعوراً بالإنجاز أو التحقيق. هو فقط يحدّد هدفاً أعظم للمرة التالية. على الرغم من التقارير المثيرة للشفقة عن إدمان العقاقير والمنشطات من قبل الذين يسعون وراء المجد الذاتي، نحن في الغرب نرفض الاعتراف بأن الانتصار المحض والأوسمة لا تستطيع أن تقدّم ما نقول إنها تقدّمه. في الواقع، عوامل بيولوجية تعطينا تلميحات قوية للجانب السلبي الموجود في نمط حياتنا الذي يسعى وراء الإثارة. تشير الدراسات الطبية إلى أنه

في أثناء النشوة الجسدية أو العاطفية، يفرز الجسد بشكل اصطناعي مادة كيميائية شبيهة بالأدرينالين أقوى من المورفين تعطي شعوراً «بالعلاء» أو النشوة، لا يشعر بها الجسد حين يعود إلى حالته الطبيعية. وحين تعود الحياة إلى حالتها الطبيعية، فإنّ انعدام هذا الشعور يسبّب اكتئاباً عميقاً. ونتيجة لذلك، يجد الشخص الذي يعيش حياة السرعة أنّ الحياة العادية حياة لا يمكنه إدارتها، فيسعى وراء حالة وعي مغايرة. سيستفيد المرفّهون العصريون ذات الطاقات العالية إن انتبهوا لهذا الأمر.

وهكذا مرّ إبراهيمز وسط تصفيق كبير، بعد أن فاز بالميدالية الذهبية في سباق المئة متر، وفي داخله صمت كئيب. لقد بدأ قطار العدّ التنازلي يشدّه إلى أسفل. ليس المقصود من هذا الشرح التقليل من نشوة الانتصار، إنّما فقط لكي نقول إنّّه على الرغم من كلّ هذه الإنجازات ستبقى الحياة مفكّكة وغير قابلة للإدارة، وستبدو الانتصارات على شكل انحدارات.

في المقابل، ركض إريك ليدل في سباق الأربع مئة متر وربح هو الآخر. لكنّه وضّب أمتعته وذهب إلى الصين كمرسل من أجل قضية أعظم منه—أخذ الميدالية الذهبية ووضعها في مكانها المناسب، وكان قلبه في سلام كامل.

٥ عبور الحدود

تأخذنا الوحدة في التنوّع الموجودة في العبادة المسيحية خطوة أبعد من ذلك. هي خطوة صعبة لأنّها تعالج متطلّبات العيش ضمن مجتمع. كيف يمكن لما هو مقدّس في الداخل أن يُترجم تنوعاً من الخارج؟ نسمع دائماً من محيطنا نصائح حول السلوك، مثلاً: «المقاييس الاجتماعية»، وهي بلا أي معنى إذا ما أخذت بمدلولها السطحي. نظن أنّنا لو حدّدنا هذه المصطلحات فسنجد حلاً للمعضلة الموجودة في كلّ مكان، معضلة الصواب والخطأ. المشكلة هي أنّه لا يوجد أي واحد منا يعيش في مجتمع

واحد، ناهيك عن القيم المتغيرة أبداً في المجتمع الواحد. أنا أعبرُ عدة خطوط إجتماعية من الوقت الذي أقوم فيه من الفراش إلى الوقت الذي أعود إليه. كيف يمكن للإنسان أن يختار خيارات شخصية حين تكون القيم في تغيير مستمر في المجتمعات؟ إن الالتزام في العبادة وحده يعطي وحدة في تحديات الحياة المتنوعة والتي لا مفرّ منها. لا يمكن أن نحيا هذه الحياة بشكل معقول حين تعصف بها رياح المجتمع المتقلّبة.

أشار يسوع المسيح بشكل واضح إلى أن العبادة تتعايش مع الحياة. أتباع المسيح لا يذهبون إلى الهيكل في يوم الرب، بل يأخذون الهيكل معهم. الجسد هو الهيكل. قال فيكتور هوغو Victor Hugo: «خلق العالم لأجل الجسد، والجسد لأجل الروح، والروح لأجل الله». وقد عبّر الراهب طوماس ميرتون Thomas Merton، أحد الرهبان المؤثرين الصمت عن هذا الأمر بطريقة مختلفة حين قال: «الإنسان لا يعيش بسلام مع أخيه الإنسان لأنه لا يعيش بسلام مع نفسه. وهو لا يعيش بسلام مع نفسه لأنه لا يعيش بسلام مع الله».

العبادة وحدها هي التي تعطي ذلك السلام، وتلك الوحدة في التنوع. التطبيق واضح. حين تلعب كرة المضرب، وحين تمثل في مسرحية، وحين تكون موهوباً في الفنون، ومجتهداً في تحصيل العلم، وفي علاقتك بعائلتك، وابتهاجك بالنجاح، يمكن لكل هذه الأمور أن تكون تعبيراً عن عبادتك حين تحيا حياتك مع الله. هذا الالتحام هو الالتحام الذي لفت يسوع نظرنا إليه حين قال: «الساجدون الحقيقيون يسجدون للآب بالروح والحق. لأنّ الآب طالب مثل هؤلاء الساجدين له» (يوحنا ٤: ٢٣) وقال بولس الرسول: «فافعلوا كلّ شيء لمجد الله» (١ كورنثوس ١٠: ٣١).

بالمناسبة، مفهوم العبادة هذا يختلف اختلافاً جذرياً عن مفهوم الهندوسية والبوذية أو عن أي دين آخر.

وكملاحظة على الهامش، أودّ أن أقول إنّ نظرية الارتقاء والتطوّر الإلحادية هي أكثر النظريات إفلاسًا بين كلّ النظريات الأخرى حين تحاول أن تعطي إجابة عن الوحدة في التنوّع. وسيبقى الملحد دومًا تحت رحمة الإدمان على الإثارة في نمط حياته، وفيما يعيش عبر مجتمعات مختلفة، سيصبح مشابهاً للحرباء، يُغيّر نفسه لكي ينسجم مع محيطه.

وخلاصة الكلام، إنّ العبادة تؤمّن لنا الوحدة في تنوّعات الحياة. تؤمّن لنا الزخم الأخلاقي في كلّ مستوى من مستويات العلاقات وعبر كلّ المجتمعات. هي متوازنة مع الحياة، وتعطي الحياة الأساس الروحيّ الذي تحتاجه للإنجاز المطلق. وهي تربط التنوّع الموجود في ثقافتنا عبر تأمين الكرامة لكلّ فرد والحقيقة لممارسة العبادة والسلوك. الثالوث هو نموذج هذه الوحدة في التنوّع. ومن دون أدنى شك، فإنّ بحث الفلسفة والدين عن الجواب للوحدة والتنوّع، سوف يجدانه في المسيح.

القُصْل الخامس عشر



محور المؤرّخ



نصل الآن إلى النقطة الثالثة والمميّزة في تعليم يسوع. رأينا لمحة عن تعليمه حول طبيعة الإنسان وطبيعة الواقع. والآن نصل إلى طبيعة التاريخ.

أصغوا جيّدًا إلى التباين العظيم الزاخر حول هذه المسألة. الزخم الأساسي للحياة من وجهة نظر الوجوديين، هو أن تحيا في شغف الحاضر، وأن تأخذ قرارًا في وجه اليأس. الحقيقة هي ذاتيّة. الوجود يسبق الجوهر. ما تفعله يحدّد من أنت. لقد دُفعت دفعا إلى هذا الوجود، فعليك أن تحيا حياتك وأن تثبت نفسك. الآن، وبشغف، استغلّ الحاضر!

من جهة أخرى، فإنّ الشخص المتفائل أو المستقبلي، يحيا من أجل المستقبل. فقد أوجد الكلمة *Utopia* أي المدينة الفاضلة، «رجل النهضة»، السير توماس مور Sir Thomas More، ذلك الرجل المناسب لكلّ الفصول. على أنّ الفلسفة الماركسية، في تحولاتها التاريخية، تنظر إلى المستقبل، إلى تلك المدينة الفاضلة، حيث لا يكون صاحب العمل كأسد زائر، ولا يكون الموظف كنعجة، فالكلّ متساوون.

أمّا الشخص الكلاسيكي، فمتميّز عنهما معًا، إنّهُ يحيا لأجل الماضي. والذهنيّة العبرانية هي ذهنيّة كلاسيكيّة. تُعيد مسرحية «عازف المزمارة الواقف على السطح» *Fiddler On the Roof* صدى هذه النزعة بشكل هزلي، عبر ظهور تيفي Tevye المنفرد على المسرح في بداية المسرحية وهو يناجي نفسه ويتكلّم عن وجوده الذي لم يُحسم بعد. والطريقة الوحيدة لكي تواجه عائلته ضغوط ومتطلبات وجودهم الفاني هي عبر إيجاد نقطة مرجعيّة تعطيهم انسجامًا وتوازنًا. وهكذا لم يجدوا مرساتهم إلّا في

«التقليد». ومن دون هذا التقليد، ستكون الحياة غير ثابتة، تمامًا كعازف المزممار الواقف على السطح.

إذًا، الوجودي يحيا للحاضر، والمتفائل للمستقبل، والتقليدي للماضي.

قبل ساعات من موته، رأى يسوع هذه العوالم تتحطم وتنهار في ملامح وجوه تلاميذه. لقد عاشوا حسب تقاليدهم، وكان لهم أمل كبير فيه للمستقبل. لكن بدأ كل شيء ينهار في الحاضر، وقريبًا سينظرون إلى الصليب كما لو أنهم فقدوا أحلامهم بالمدينة الفاضلة. يسوع «كسر الخبز»، وأعطاهم قائلًا: «فإنكم كلما أكلتم هذا الخبز وشربتم هذه الكأس (الحاضر) تخبرون بموت الرب (الماضي) إلى أن يجيء (المستقبل)» (أنظر ١ كورنثوس ١١: ٢٦). لقد أكسب التاريخ معنى. وهكذا كان لتجسد المسيح مفعولٌ على مدى الأزمان.

مرةً أخرى نجد أن هذا كان وما زال متميزًا عن كل الأديان ووجهات النظر العلمانية. تتكلم رسالة الإنجيل ضدّ تجربة تسييس الدين، أو محاولة الوصول إلى المدينة الفاضلة بقوة السيف. فرسالة الإنجيل لا تقطع الصلة مع الماضي، لكنها تخلص الإنسان من غلبة الحاضر.

بالنسبة إلى المسيحي، ثمة ارتباط وثيق بكل التاريخ المتغلغل في الكتاب المقدس. لهذا السبب، كان الكتاب الملهمون مهتمين بتفسير الأزمنة. فقد تنبأوا قبل مئات السنين من ولادة المسيح، عن طريقة ومكان ولادته. والأهم من ذلك أنهم لم يتكلموا عن تاريخ قريب يتفتّح أمامهم، بل كانوا يتكلمون عن مستقبل بعيد جدًا.

إحدى أعظم النبوءات التي كتبت منذ أكثر من خمسمئة عام قبل المسيح، وردت في سفر دانيال. تكلم دانيال بشكل نبوي عن حاكم مهيمن، سيأتي ويكون طموحه أن يحتل العالم بأسره. وسيكون دخوله المسرح التاريخي، وخروجه منه مفاجئًا. وقال دانيال إنه بعد زواله ستنقسم

مملكته إلى أربعة أقسام. ولاحقاً ستتحد الأقسام الأربعة لتصبح قسمين ثم قسمًا واحدًا. لقد كانت نبوءة دانيال هذه دقيقة جدًا، حتى إنّها أربكت النقاد لسنوات طويلة بسبب دقّتها المتناهية.

حين تدرس حياة الإسكندر الكبير، تراه بكلّ وضوح يناسب هذه النبوءة بعد قرنين على وفاة دانيال. فقد انتهت حياته فجأة، وبعد موته، انقسمت مملكته إلى أربعة أجزاء. هذه الأجزاء الأربعة عادت واتّحدت، فنشأت الأمبراطورية البطلمية والأمبراطورية السلوقية. بعد ذلك، اتّحدت الأمبراطوريتان وأصبحتا قوّة واحدة، فنشأت الأمبراطورية الرومانية. من الصعب تجاهل هذه النبوءة الدقيقة واعتبار ما جرى صدفة، مع أنّها قد تُعتبر قليلة الأهميّة وحصلت صدفة، إذا ما أُخذت بمعزلٍ عن غيرها. لكن أضف إلى هذه النبوءة مئات من النبوءات الأخرى، وادرس هذه الظاهرة مع الجوانب الفلسفيّة والتاريخيّة للإيمان المسيحيّ، وستجد دفاعًا ملزمًا لا نظير له.

لقد ذهب كتّاب الكتاب المقدّس إلى أبعد من مستقبلهم القريب، وجادلوا مفصّلاً بأمور ستحدث في التاريخ البعيد. لقد تكلموا عن «الأيام الأخيرة»، حين ستقع الحروب وأخبار الحروب، وحيث ستتكاثر الأحداث الكارثية. لقد وصفوا الحرب حيث ستذوب العناصر محترقة. هذا النوع من التشبيه كان غريبًا عن القدرات العسكرية الموجودة قبل ألفي سنة. لقد قادت كلّ هذه النبوءات إلى المسيح كونه محور التاريخ.

وقبل ثمانماية عام من وقوع الحدث، قال النبي إشعياء عن ميلاد المسيح: «لأنّه يولد لنا ولد ونعطى ابنًا» (إشعياء ٩: ٦). تحمل هذه الآية مشاعر في كلمات رقيقة، لكنّها قيلت أيضًا بدقة متناهية. الولد يولد، لكنّ الابن يُعطى. فالابن موجود منذ الأزل، أمّا الولد فيولد، وهذه صورة حيّة للتجسّد.

دعوني أضع هذا في سياق أدق، لأنّه يجب أن نفهم أهمية المنصب النبويّ وكيف كان يُمتحن. نقرأ في سفر التثنية أنّه إن لم تتمّ نبوءة واحدة، فالنبي الذي تنبأ بها لن يكون من الله، وبالتالي يجب أن يُقصى. ولم يكن المنصب النبويّ منصباً يسعى إليه غريبو الأطوار بين شعب ساذج لا يفكر.

من بين كلّ التنبؤات، فكر في إجابة المسيح المدهشة التي تعمل كمدافع صامت من الجانب المعاكس للنبوءة. حين سُئل المسيح عن موعد عودته، قال: «وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد ولا ملائكة السماوات إلّا أبي وحده» (متّى ٢٤: ٣٦). لا يبدو أنّ هذا الكلام صادر عن شخص براغماتي يسعى للشهرة والقوّة، لأنّه كان قادراً أن يتنبأ بتاريخ بعيد سوف يعود فيه، حيث لن يكون موجوداً لكي يواجه الإحراج. تعظيم الذات هو تجربة طبيعية تعرّض لها المسيح عند خضوع إرادته حتى للموت. لكنّه لم يرضخ لهذه التجربة أبداً.

الكتاب المقدّس زاخر ببراهين عن عناصر خارقة يمكن امتحانها، وكذلك بتدخّل الله في التاريخ الماضي والحاضر والمستقبل.

التاريخ، وفقاً لتعاليم المسيح، ليس مجرد حدث بعد الآخر. الحاضر والماضي والمستقبل كلّها أوقات مهمّة بالنسبة إلى الله. لهذا السبب أيضاً لا يطلب المؤمن المسيحيّ الحقيقي أن ينتقم من أمر حدث في الماضي، ولهذا السبب لا يستخدم المؤمن المسيحيّ الحقيقي السيف لامتداد ملكوت الله على الأرض، ولهذا السبب يتخطّى المؤمن المسيحيّ الحقيقي المصائب التي تحلّ به في الحاضر وكذلك النجاحات التي يحقّقها. التاريخ، بالنسبة إليه، هو الحلبة التي يُظهر فيها الله مخططاته، والفرد هو صورة مصغّرة حيث يحقّق به الله عمله.

أقترح أنكم لو قابلتم هذا مع أي دين آخر، لاكتشفتكم كم أنّ المسيحيّة تختلف اختلافاً شاسعاً عن تلك الأديان. يا لها من ثقة في حياة كلّ فرد، حياتك وحياتي، حين ندرك أنّ الله يتعامل معنا بطريقة شخصيّة.

التماسك المطلق الذي يُحدثه الله لا يحدثه في التاريخ الذي نراه خلال
أيامنا المعدودة على الأرض، بل حتى في سني ما بعد القبر. والآن
سننتقل إلى هذه الفكرة عينها.

٥ شوق الفرد

قال ألبيرت كامو Albert Camus مرّة إنّ الموت هو مشكلة الفلسفة
الوحيدة، وأي شخص شاهد موت شخص يحبه يفهم هذه المعضلة
الفلسفية بشكل جيّد. أشير إلى الإجابة التي قدّمها يسوع المسيح حين
تكلم عن الموت وربط ذلك بطبيعة مصيرنا. لقد نظرنا بإيجاز إليه كونه
الإجابة عن صراع البشرية، وعن سعي الفيلسوف، وعن محور المؤرخ.
والآن سنرى أنّه الإجابة عن أشواق الفرد.

قال الرسول بولس الذي أصبح من أهمّ أصوات تاريخ الكنيسة
الأولى: «وإن لم يكن المسيح قد قام... إن كان لنا في هذه الحياة فقط
رجاء في المسيح فإنّنا أشقى جميع الناس» (١ كورنثوس ١٥: ١٧، ١٩).
لم يكن الرسول بولس متحمّساً للأفكار الجديدة المحبّبة، لم يكن واحداً من
أولئك الذين يتجاهلون الولاءات أو الحقيقة، بل كان مستعداً لأن يضحي
بحياته في سبيل ما آمن به، وكّرّس نفسه لتدمير ما اعتبره آنذاك «خرافة»
الإنجيل. لكنّ لقاءه الربّ في طريقه إلى دمشق أصبح اليوم مثلاً يضرب
عن التغيير الجذري. إنّ الطريق الأسهل أمام المتهمّكين والمشكّكين هو
التعميم المطلق، وبحركة لا مبالية بيدهم يرفضون الحقائق الكتابية. لكن
ما زالت الرسالة التي تكلم بها بولس أمام جمهور من الفلاسفة اليونانيين
محفورة على الصخر في هضبة «مارس» Mars Hill في أثينا. كانت
الرسالة التي قدّمها بولس عن الحياة والموت، رسالة حرفية ومجازية
في آن. من السهل تجاهل أمور كهذه في العالم الأكاديمي والتجاري، لكن
ما هذا إلا إشارة إلى خبث ذلك العالم أكثر ممّا يُشير إليه خبث عالم اليوم
الذي يعيش ويموت.

في الغرب، نتجاوب أمام الموت بطريقتين. إنَّ إظهار لياقتنا أمام الناس يختلف عن الألم الشخصي الذي نشعر به. لا يوجد حضارة أخرى على الأرض تفعل ما نفعله، إذ نجعل الموت يرتدي ثياباً أنيقة وفي الوقت نفسه نقلل من شأنه ونعتبره واقعاً «مضجراً» في مكان العمل. إلاَّ أنَّ لا مبالتنا المنافقة حيال الموت تتحوّل إلى غضب جامح، إذا رأينا الأموات أو الذين سيموتون ضحايا قوّة إمبريالية وعليها تقع الملامة.

إنَّ السؤال: «ماذا سنفعل بالموت؟» ليس من اهتمام المتديّنين فقط، بل قد استرعى الانتباه على شتّى الأصعدة. فخلال إحدى ندوات ألفرد نورث وايتهد Alfred North Whitehead في جامعة هارفرد Harvard، اعترضه أحد الطلاب وطرح عليه هذا السؤال: «ما علاقة كلّ ما تقوله بالموت؟» كان الطالب يسأله هذا، وكأنّه يسأل بالنيابة عن هايدغر Heidegger، أو نيتشه Nietzsche، أو سارتر Sartre، أو كامو Camus، أو كيركيغارد Kierkegaard، أو جاسبرز Jaspers. فالاهتمام بموضوع الموت لم يغلب على نقاشاتهم فحسب، بل وصل أحياناً إلى عناوين كتبهم. أعلن كيركيغارد وكامو وغيرهما عن قلقهم من الموت، لكنّ كتاب هايدغر حَمَلَ العنوان الذي بلا حياة: *The Possible Being—Whole of Being—There and Being—Toward—Death*. (سأمتنع عن التعليق على هايدغر بالنسبة إلى هذا الموضوع لأسباب واضحة).

أمّا فرويد Freud، فهو الذي وصف بشكل هادف، وحتى بشكل مضحك، انقسام شخصياتنا. وصف كيف أنّ الحرب غيّرت الطريقة التي ننظر فيها إلى الموت.

[لقد شوّشت الحرب] علاقتنا القديمة بالموت. لم تكن هذه العلاقة مخلصة. لو كان أحدهم يستمع إلينا، لكنّا طبعاً مستعدّين أن نعلن أنّ الموت هو النهاية الضرورية لكلّ ما هو حيّ، وأنّ كلّ واحد منّا مدين بموته للطبيعة، وعلينا أن

نستعد لدفع هذا الدّين. باختصار، إنّ الموت أمر طبيعي، ولا يمكن إنكاره أو تجنبه. لكن كُنّا، في الواقع، نتصرّف كما لو أنّ الموت كان مختلفاً. كُنّا ندفع الموت جانباً لكي نلغي وجوده من الحياة. حاولنا أن نحافظ على صمتٍ رهيب في موضوع الموت، وفوق كلّ ذلك، أوجدنا مثلاً مفاده أنّ الإنسان يفكّر في شيء كما لو أنّه يفكّر في الموت. طبعاً في موته هو. إنّ تفكير الإنسان في موته يتخطى الخيال، وفي كلّ مرّة نحاول أن نتخيّل موتنا، نرى أنفسنا كمتفرّجين أحياء على موتنا. لهذا السبب يمكن أن نتجرّأ ونقول هذا الكلام في مدرسة التحليل النفسي: في نهاية الأمر، لا أحد يؤمن بموته. أو، كلّ واحد منّا مقتنع بأنّه خالد. أمّا بالنسبة إلى موت الآخرين، فسيتجنّب الإنسان المثقّف بحذر، أن يتكلّم عن هذه الإمكانية إذا كان الإنسان الذي يتكلّم عنه يسمعه. الأطفال فقط يتجاهلون هذا المبدأ... نركّز بانتظام على أسباب الموت العرضية، والأحداث المؤسفة، والأمراض، والالتهابات، والتقدّم في العمر، وهكذا ننكر شوقنا لتخفيض الموت من كونه أمراً ضرورياً لكي نجعل منه أمراً عرضياً. نحن نتصرّف مع الميت بطريقة معيّنة، كما لو أنّنا نقدّر شخصاً حقّق أمراً صعباً. نتوقّف عن انتقاده، ونغفر له أية إساءة، ونعلن شعار «عن الموتى، لا نقول إلّا الخير» *de mortuis nil nisi bene*، ونبرّر ما يُقال عنه من مديح في العظة التّأبينية، أو ما يُكتب على ضريحه. نجعل من احترام الميت، الذي لا يحتاج إلى هذا الاحترام في ما بعد، ما يفوق الحقيقة، وأغلبنا يجعله بالتأكيد فوق احترام الأحياء.^١

كان فرويد محققاً في كشف النقاب عن مقاربة اللسان المتقلب، التي نستخدمها في أوقات كهذه في الحياة. وقد زاد التطور الأكاديمي والتقني هذا النوع من الاستخدام. إنَّ الحقائق البديهية المُعلنة بنبرة وقورة، تعطي فكرة خاطئة عن قلة احترام العقل لهذه المعتقدات. في مراسم الزفاف مثلاً، يعلن رجل الدين هذه الكلمات الجريئة: «إن كان أحد يعلم أيَّ سبب شرعي يمنع هذين الاثنين من الاقتران معاً...» ويتكلم بنبرة ملؤها الثقة ولا ينتظر إجابة عن سؤاله، كما لو أنه يوحى للسامعين أنَّ الاعتراض لن يكون مقبولاً. كنت دائماً أتساءل ماذا لو كان هناك عبارة شبيهة بهذه في المآتم. تخيل صدمة الناس عند سماعهم المؤيّن يقول: «إن كان أحد لا يوافق على هذا الوصف الذي أصف به الميت، أو إن كان أحد يشك بمصيره...» وتخيل لو أنَّ يدًا ارتفعت عالياً في الكنيسة.

«ما علاقة كلِّ هذا بالموت؟» ربما كان سؤالاً غير مناسب طُرح خلال محاضرة وايتهد Whitehead، لكن يحقُّ للسائل أن يطرح هذا السؤال إشارة منه إلى يسوع المسيح. أعلن يسوع أنَّه الطريق والحق والحياة، وبما أنَّ هناك علاقة بين الموت والحياة، فإجابة يسوع عن الموت، أي قيامته، هي مفتاح الحياة نفسها.

٥ الرجاء وسببه

يوجد بالحقيقة سؤالان لهما علاقة وطيدة بموضوع قيامة يسوع. السؤال الأول: «هل حقاً قام يسوع من الأموات؟» والسؤال الثاني الذي يوازيه أهمية: «وإن يكن؟»

بالنسبة إلى السؤال الأول، لا يوجد أي حدث تاريخي آخر تعرّض للنقد والتحليل، أكثر من هذا الذي ادّعه يسوع. فهذا التركيز وحده هو دليل على أهمية هذا الحدث. وقد لُفقت طرق كثيرة بارعة لتكذيب هذه

الحقيقة الجوهرية في الإيمان المسيحي: من نظرية الإغماء إلى نظرية وَهْم التلاميذ، ممّا يُضفي حسّاً من الفكاهة على الحالة. غالباً ما كنت أندهش للمدى الذي يذهب إليه العلماء لدحض القيامة، فيما يتكون شخصيات دينية كثيرة بلا دراسة (مثل كريشنا، وبوذا، وغيرهما). فالطالب العادي في الهند مثلاً، لا يعرف متى ولد كريشنا، وأحياناً لا يعرف إن كان قد وُلد أم لا. في الوقت نفسه، يعطي هذا الطالب نفسه نظريات مختلفة عن المسيح.

هذه ظاهرة غريبة تدعو إلى السخرية، لأنّه حتى إلى اليوم، وعلى الرغم من أنّ المحادثات الدينية ممنوعة ضمن العمل، ما زال اسم يسوع أكثر الأسماء ذكراً؛ ولكي أكون أكثر دقة، ربما يُذكر اسمه بازدياد وتجديف، ولكن مع هذا يُذكر اسمه أكثر من أي اسم آخر. من بين كلّ الادّعاءات التي ادّعاها، ما زال وعده بقيامته، وتحقيق هذا الوعد، من أكثر الأمور جدلاً، إلا أنّ قيامته كانت الهدف المطلق لرسالته.

إنّ موضوع القيامة، في حدّ ذاته، مثير للاهتمام. هل بالفعل كان هناك قيامة من الأموات؟ أقترح عليكم أن تُقرأ بعناية المناقشة التي جرت حول هذا الموضوع والتي قامت بدراسة البراهين بدقة. جرى الحوار بين المؤرّخ غاري هابرماس Gary Habermas وخصمه أنطوني فلو Anthony Flew. على أنّ الحجج والبراهين التي رتّبها وقدمها البروفيسور هابرماس جعلت فلو مرتبكاً في أغلب المناقشة. مشكلة القيامة الأساسية التي عرضها فلو كانت هي نفسها التي تكلم عنها رودلف بولتمان Rudolf Bultmann أحد أهم النقاد اللاهوتيين في هذا العصر، وهو المناصر الأول «لنزع الخرافة» من الكتاب المقدّس. رفض بولتمان القيامة، من باب افتراضه الشخصي. وردّاً على موقفه المنحاز حيال هذا الحدث التاريخي، قال ماكاري MacQuarrie:

علينا أن نوبّخ بولتمان على ما يبدو أنّه تخلّص اعتباطي من إمكانيّة فهم القيامة كحدث موضوعيّ تاريخيّ... فالمغالطة في هذا المنطق واضحة جدّاً. والطريقة الشرعية الوحيدة التي يمكن من خلالها التأكّد إن كانت حادثة ما قد وقعت أم لا، ليست في إدخال فرضيّة كاسحة لإظهار أنّه لا يمكن أن تكون قد حدثت، بل من خلال اعتبار البرهان التاريخي المتاح أمامنا، واتّخاذ القرار المناسب.^٢

يتابع مكاربي قائلاً إنّ «بولتمان لا يُتعب نفسه في امتحان أي برهان يمكن تقديمه لإظهار أنّ القيامة كانت حادثة موضوعيّة تاريخيّة. هو يفترض أنّ القيامة هي خرافة.»^٣

في الواقع، هناك تجاهل صارخ للوقائع. هذا هو بالضبط إجحاف العلماء الليبراليين في معالجتهم لموضوع القيامة. على أنّ العهد الجديد هو أفضل المخطوطات القديمة من ناحية عدد المخطوطات الأخرى، والفترة الزمنية التي فصلت بينه وبين الحدث، وتنوّع الوثائق المتاحة لدعمها أو معارضتها. لا يوجد أية مخطوطات قديمة تبرهن حدثاً آخر، كمخطوطات الكتاب المقدّس من حيث العدد والمصداقية. وكما قال العالم المشهور جيّزا فيرميز Giza Vermes: «ليس من المفترض أن يكون فوق طاقة الإنسان المثقّف أن يجلس بعقل خال من أي إجحاف، ويقرأ ما كتبه مرقس ومتّى ولوقا كما لو أنّه يقرأ ما كتبوه أول مرة.»^٤

حين يتأمّل أي قارئ صادق بالتأكيدات المعلنة والأدلة المقدّمة لا يسعه إلّا أن يستنتج التالي:

١. يسوع المسيح نفسه تكلم عن قيامته في مناسبات عديدة. فقد أخبر أعداءه وأتباعه أن يتوقّعوا القيامة. والذين حاولوا طمس تعاليمه، أخذوا تدابير مدروسة لدحض ادّعاءه، من ضمنها وضع حراس رومانيّين لحراسة القبر.

٢. على الرغم من أن أنصاره فهموا وعده بالقيامة وشهدوا إقامته للعازر، لم يؤمنوا أنه كان يعني بها قيامة حرفية إلى أن حدثت. لهذا السبب لا يمكن اتّهامهم بتأليف سيناريو القيامة لخداع الآخرين.

٣. ظهوراته بعد القيامة أحدثت فرقاً شاسعاً في عقل المشكّك توما، وفي إرادة بولس المقاومة له.

٤. لا يمكن الاستخفاف بتحوّل التلاميذ من مجموعة مرتعبة تشعر بالخيانة، إلى مجموعة لا تهاب الموت مستعدة أن تعلن الرسالة إلى روما وإلى العالم كلّ.

٥. لو كان في قدرة السلطات الرومانية تقويض تعاليم يسوع مرةً وإلى الأبد، لكانوا قدّموا جسده إلى العلن، لكنهم لم يقولوا على ذلك. ثمّة أمر هامّ هنا، غالباً ما يغيب عن البال. فلو كان التلاميذ مُلَفَّقِي مثلاً أعلى، لأعلنوا عن قيامة روحية يمكن إثباتها حتى بوجود جسد ميت. لكنهم ساروا في الطريق الصعب، حين أعلنوا عن قيامة حقيقية بالجسد، ولو لم تكن القيامة حقيقية لكانوا يخاطرون بأن تُكتشف الجثة. لا، لقد آمنوا بقيامة حرفية لأنهم شهود عليها. وهذا برهان قويّ في ضوء حقيقة كون روما، التي كانت معاندة بشكل قوي لرسالة الإنجيل، أصبحت لاحقاً مناصرة لرسالة الإنجيل. لم يشأ القادة الدينيون إلا أن يخنقوا المسيحية، ولم يصبح يعقوب، أخو الرب، مؤمناً به إلا بعد القيامة.

خلاصة القول، إن انتصار يسوع على القبر هو الذي أعطى الكنيسة الأولى قوّة دفع لكي تُخبر العالم أن الله تكلم، وأنه تكلم فعلاً بشكل درامي وبطريقة لا جدال فيها. لقد أوحى كلّ هذا في التاريخ وهو متاح لانتقاد المؤرخين.

وهذا يأتي بنا إلى سؤالنا الثاني: «وإن يكن؟» ليس من الصعب فهم السبب الكامن وراء هذا السؤال. قد لا تكون القيامة موضحة نفسها بنفسها. من الممكن مجادلة حدث القيامة والادعاء بأنها «مجرد حدث»، فلماذا لا نتعامل معها كحدث شاذ؟ لكن قيامة يسوع ليست حدثاً منعزلاً أو فارغاً، بل تأتي القيامة مع سلسلة من الأحداث والتعاليم الأخرى التي يجب أن نتعامل معها كمجموعة متكاملة. يمكن تجاهل القيامة حين جردت من سياقها، لكن حين نأخذها مع ولادة وحياة وموت شخص فريد، لا نظير له، حصري في ادعاءاته وتعليمه عن طبيعة الحياة ومصيرها، يصبح من الغباء إهمال القيامة بهذا السؤال «وإن يكن؟» لقد فهم روبرت براوننج Robert Browning الخيار الذي نواجهه بشكل جيد.

لو كان المسيح، كما يزعم أناس، مجرد إنسان
بين بني البشر،
إنما أقول والأفضل فقط...

ونعتمد عليه لأجل إحسانه الصادر من شخصه،
لكان، من الآن وإلى الدهر، أشقى جميع الناس.
لقد ظهر في الحياة محبةً،
وما وجد فيه إلا محبةً،
وامتلاً بها، حتى إنه ضم إليه كل من أحبه.

مئات النفوس تقوم بكلمة المسيح،
وهو الذي سيتحد بالجميع ويكون قريباً من الكل؛
ومن من الناس يستطيع أن يفعل هذا؟
إن هذه الأمور يقينية كيقينية أصابع يديك،
وإلا سيلقى الكون نهايته.

يقول المسيح إنه عاش ومات ليُحقق هذه الأمور.
فإذا، فليكن المسيح الله الالمحدود،
والأ فليكن الهلاك.

المسيح، إما أن يكون الله غير المحدود، أو ضالاً أيّ ضلال. لا وجود
لنظرية تقول إنه كان «مجرد رجل صالح». تأمل في حياته بصدق عميق
وستجد إجابة واضحة. هذا هو الرجاء الذي يهبه لكل فرد ولكل مجموعة
ولكل العالم. ومن دون هذا الرجاء بأن ثمة حياة بعد القبر، سيكون كل
سؤال حول المحبة والعدالة سؤالاً يسخر من العقل.

في إحدى المناسبات، أخبر بيلي غراهام Billy Graham عن اجتماع
عقده مع المستشار الألماني كونراد آدناور Konrad Adenauer، والذي
كان ذات مرة محافظ مدينة كولن Cologne، وكان هتلر Hitler قد سجنه
لمعارضته النظام النازي، ثم أصبح لاحقاً مستشار الجمهورية الألمانية
الغربية من العام ١٩٤٩ إلى العام ١٩٦٣. يستحق آدناور لقب «رجل
دولة» لأنه جمّع حطام بلاده، وساعد في إعادة بنائه في عالم ممزق.
في هذه المناسبة، تطلع في عيني المبشر وقال: «يا سيد غراهام، هل
تؤمن بقيامة يسوع المسيح من الأموات؟» فوجئ غراهام بسؤاله الهادف
وقال: «طبعاً أنا مؤمن بذلك.» فقال له المستشار الألماني رداً على إجابته
الواثقة: «يا سيد غراهام، من دون قيامة يسوع، لا أعرف إن كان لهذا
العالم أي رجاء آخر.»

تردد صدى هذا الشعور في أمتين في عالمنا هما في طور تحول
جذري. أحيلكم إلى مناسبة دُعيت فيها لألقي سلسلة من المحاضرات في
أكاديمية لينين العسكرية Lenin Military Academy، ولكي أشارك في حوار
حول طاولة مستديرة في مركز الاستراتيجيات الجيوسياسية في موسكو
Moscow. كان بين الحضور خلال هذا الحوار زوجتي، وزميل لي، وستة
جنرالات روس، جميعهم ملحدون إلا واحداً. كانت هذه المناسبة التي

امتدت لساعة ونصف الساعة من أهم المناسبات في حياتي الشخصية. حين دخلنا ذلك البناء الرهيب المكوّن من ثماني طبقات فوق الأرض وأربع طبقات تحت الأرض، أدركت أنني في مكان تاريخي. لأنّ كلّ الأمناء العامّين السابقين في الاتحاد السوفيّاتي USSR، تخرّجوا من هذا البناء المهيب. حين دخلنا قاعة الاستقبال، تعرّفنا بأبطال الحرب الروسيّة العظام، من أمثال كوتوسوف Kutusov وپطرس الأكبر Peter the Great، وكذلك تعرّفنا بعابرة العصر الحديث في المناورات الجيوسياسية. كلّ جانب من جوانب ذلك البناء كان بهيّا وفخماً، والقصد من ذلك أن يشعر الداخل إليه بأنّه صغير وتافه.

بدأ حوارنا في غرفة داخلية من هذا البناء. بدأ الحوار بقليل من الراحة، ثمّ تطوّر إلى مناقشات حادّة، وحين انتهت بأحاديث وخلاصات دافئة وحميمة، حدث أمر عجيب. اعترف جميع هؤلاء الجنرالات واحداً تلو الآخر بأنّ روسيا تمرّ في حالة تدعو للشفقة، وذلك ليس على الصعيد الاقتصادي فحسب، بل على الصعيد الأخلاقي أيضاً. وحين وقف الرجال لتشيعنا، أمسك كبير الجنرالات بيدي وقال: «دكتور زكارايوس، أعتقد أنك قدّمت لنا الحقيقة. لكن من الصعب جداً أن نتغيّر بعد سبعين عاماً من تصديق كذبة.» هؤلاء أيضاً لم يجدوا أي رجاء بعيداً عن الله.

تردّد صدى هذه المشاعر أيضاً بين واضعي اتفاقيات السلام بعد أن أنهيت سلسلة من المحاضرات في جوهانسبرغ Johannesburg، في جنوب أفريقيا.

حين أتأمّل في كلّ هذا، أي في اعتراف القادة وكلمات الجنرال الروسي أشعر بمهابة الأمر. «بعد سبعين عاماً من تصديق كذبة، من الصعب أن نتغيّر.» نحن واقفون أمام لحظة من التاريخ، حيث تعترف الأمم التي كانت سابقاً أمماً ماركسية بأنّ أنظمتها فشلت فشلاً ذريعاً. هذا الفشل يرينا من دون أدنى شكّ، النتائج الأليمة التي نحصدها حين

نُقصي الله من خياراتنا في هذه الحياة. ومع هذا، من الغريب جداً أننا نتوجّه نحن في الغرب نحو قاعدة تلك الإيديولوجية ونحن غير مستعدين أن نصدّق ما نشاهده بأمر أعيننا. ففي روسيا، وباسم المساواة، ذُبح الإنسان على مذبح الدولة. وهنا، وباسم الإنسانية، يُعرى الإنسان باستمرار، ويُذبح على مذبح الربح الاقتصادي وعلى مذبح المتعة. يا له من تباين مع القيمة التي يعطيها المسيح للإنسان، حين يعطي معنى لكلّ جانب من جوانب الحياة.

منذ سنوات طويلة، كتب العالم الألماني والتر كوفمان Walter Kaufmann والخريج المتميّز من جامعة هارفرد Harvard بينما كان يعلم الفلسفة في جامعة برينستون Princeton، كتاباً بعنوان «إيمان الهرطقة» *The faith of a Heretic*. كان هذا الكتاب هو الكتاب الأمريكي الموازي لكتاب الأسقف جون أ. ت. روبنسون John A. T. Robinson بعنوان «مخلص لله» *Honest to God*. حين وصل كوفمان إلى ذروة كتابه قال ما يلي:

قد تبدو فكرة وجود مئات الملايين من المجرات ضمن نطاق التلسكوب، وأنّ مجرتنا تحتوي على مئات الآلاف من الكواكب التي من الممكن أن يكون فيها حياة شبيهة بحياتنا وبشر مثلنا، غريبة على الذين تربّوا على الكتاب المقدّس، لكنّها ليست بالضرورة غريبة عن المؤمنين الآخرين في الشرق.

بالنسبة إلى الذين ليسوا على دراية بالكتب المقدّسة في الشرق، قد يُصبح التباين مفهوماً لهم حين يقارنون اللوحات التي رُسمت في عصر النهضة وتلك التي من الصين: ففي رسومات عصر النهضة، تسيطر الأشكال البشرية على اللوحة والمناظر الطبيعية تُستخدم في الخلفيات. أمّا في اللوحات الصينية، فالمناظر الطبيعية هي الرسمة الأساسية وعليك أن تبحث في اللوحة عن البشر. فالإنسان هو المهم

في عصر النهضة، أمّا في الصين، فيُرسَم الكون غير المهم الذي يعيش فيه الإنسان بشكل رائع.

يقترح العلم الحديث أنّ الأديان الشرقيّة كانت أقرب إلى الوقائع من العهد القديم أو الجديد. هذا لا يعني أنّه يجب علينا أن نقبل نصيحة بوذا التي تدعو إلى الانعزال والانفصال والابتعاد عن محبة العالم، ولا يجب أن نحكي نزوة لاوتزي Lao-tze وسخريته الحكيمة من المنطق والثقافة وجهد الإنسان. يوجد عدّة احتمالات: وأقول مع شكسبير، «كل العالم هو مسرح.» ويبدو أنّ الإنسان يلعب دورًا تافهًا في الكون، ودوري هو دور غير جدير بالذكر. السؤال الذي يواجهني ليس أي جزء هو مسلّ أكثر من غيره، بل ما الذي أرجو أن أفعله من خلال دوري في هذه المسرحية. وما أريد أن أفعله وما أريد أن أنصح الآخرين أن يفعلوه هو أن يستفيدوا من كلّ لحظة يحيونها: استثمر كلّ ما لديك وعش حياتك، وإن استطعت مُت مِيتة كريمة.^٦

بوّدي أن أختلف مع هذا العالم الرفيع، لكنّي أشك أنّه كان يفهم المسيحيّة أو الأديان الشرقيّة. إن كلامه عن الرسالة المسيحيّة كما لو أنّها مرادفة لعصر النهضة، هو في أحسن حالاته مُغرض، بل يدعو للشفقة، لأنّ مذهب الإنسانية بُني على عصر النهضة، وليس على المسيحيّة. لكنّ خلاصته الهزلية حين قال: «أن يستفيدوا من كلّ لحظة يحيونها»، يناقضها ما قاله وهو يمدح العبقريّة الشرقيّة: «يُرسَم الكون غير المهم الذي يعيش فيه الإنسان بشكل رائع.» هذا يعادل أفلامنا المملوءة دُمًا وكرهًا، والتي يُكتب في نهايتها: «لم يُؤدَّ أيُّ حيوان خلال تصوير الفيلم.» ولا يُقال شيء عن الأذى الذي لحق بالبشر خلال تصوير الفيلم، أو الأذى الذي لحق بالأبرياء الذين شاهدوه. لكن يمكن أن يُسامح كوفمان على خلاصته المتناقضة، فقد عرّف الفلسفة في أول سطر من كتابه بأنّها

«فوضى من الأفكار المبهمة»!

وقوله لنا بأن نموت ميتة كريمة، لأنّه لا يوجد رجاء بعد القبر هو قول هزلي بأفضل حالاته. كلّ فلسفة كوفمان حول هذا الموضوع هي محاولة لخنق هذا التوق الذي لا يمكن كبته، التوق إلى حياة بعد الموت. وهذا الأمر، حسب تخطيطه للأمور، لا يمكن شرحه ولا إيفاء حقّه. قابل هذا بواقع قيامة المسيح التي تبرّر هذا الشوق وتلبّي مطالبه في آن واحد. في الواقع، حين يُنكر إي إنسان إمكانية الحياة بعد الموت، أي حين يحاول الإنسان أن يحيا من دون الله، تبقى المشكلة الأكبر عند المشكّك موجودة، مشكلة الألم في الحياة. سأنتقل الآن إلى تعاليم يسوع حول طبيعة الألم لكي أجيب عن هذا السؤال.

القُصْل السَّادِس عَشَرَ



كنز المؤمن



لا يتجنّب كتبة الكتاب المقدّس مشكلة الألم. فهم يتعاملون مع أشدّ جراحات الحياة وأصعبها بشكل عميق: مع الألم، والمجاعة، والموت، والفجيرة، والجريمة، والاستغلال، واليأس... فمشكلة الألم هذه، كما قلت، هي مشكلة تحتاج كلّ الفلسفات إلى أن تتعامل معها.

دعت مجلة *Forbes*، في الآونة الأخيرة، عدّة علماء حول العالم ليساهموا في الإصدار الخاص بعيد تأسيسها الخامس والسبعين، معالجين من بين كلّ المواضيع هذا السؤال: «لماذا نحن تعساء جدّاً؟» هؤلاء العلماء، ومن بينهم الكاتب سول بللو Saul Bellow، والمؤرّخ پول جونسون Paul Johnson، وآخرون من ذوي الشهرة العالمية، عالّجوا الموضوع حسب خلفيّاتهم ووجهات نظرهم المختلفة. وعلى الرغم من اختلافهم، كتبوا مجموعة من المقالات التي لا تُنسى، واتفقوا جميعاً على نقطة واحدة: نحن حضارة مضطّربة لأنّنا خسرنا المركزية الأخلاقيّة والروحيّة.

لهذا السبب ربما، أصبح موضوع الألم والمعاناة أكثر غموضاً في أيامنا هذه (آخذين بعين الاعتبار الدور الذي لعبته التقنيات الطبيّة والأدوية في تخفيف الألم الجسدي) من أي وقت مضى في التاريخ. يتفاهم ألمنا بسبب رجائنا الساذج بأنّه يمكن للتطوّر في الحقل العلميّ أن يحلّ كلّ مشاكلنا.

أذكر أنّي منذ سنوات قليلة ذهبتُ إلى محاضرة أُحيّطت بدعاية كبيرة، يُلقّيها ستيفن هوكينغ Stephen Hawking من جامعة كامبردج Cambridge University. انتظرت بعد ظهر ذلك اليوم بفارغ الصبر لأسمعه

يتكلّم عن موضوع: «هل الإنسان حرّ أم مسير؟» وهو موضوع صارع معه القلم الإلحادي، وهو كذلك موضوع هامّ جدًّا لأنّ العلوم السلوكيّة تستطيع أن تستنتج أية نظرية شاذّة، إنّ اتُّخِذَت من العلوم البحتة نظرية بأنّ المادة فقط هي أصل وجودنا. احتاج هوكنغ كعالم أن يعالج مضمون الحتمية (التسيير).

هل الإنسان مسير بالوقت العشوائي المجنون، وبالمادة، والصدفة في تفاعلاتها، أم هل هناك من علوّ يستطيع الإنسان من خلاله أن يعلو فوق القدرية التي يبدو أنّه لا مفرّ منها بالمنظار البشري؟ لقد عالج هذا السؤال أفضل العقول، ويبدو أنّ قبضة الحتميّة تزداد شدّة للسعي إلى حياة من دون الله.

حين يتكلّم ستيفن هوكنغ يُصغي العلماء والفلاسفة. لكن، بما أنّه بسبب العدوى تأثّر بمرض لو جيرينغ Lou Gehrig، راح يتكلّم عبر آلة تضبط الصوت (بلكنة أمريكية، لأنّ هذه التقنية نشأت في الولايات المتحدة). وبينما كان يشرح حجّته المتقنة، قابل الصراع الفلسفي بالحتمية أو الإرادة الحرّة. وأخيرًا سلّم بالعلم كونه التهذيب الكامل، وبينما كان يُنهي محاضرتة قدّم خلاصته: «هل الإنسان مسير؟ أجل. لكن بما أنّنا لا نعرف ما هو الأمر المحتوم، فقد لا يكون الإنسان بالتالي مسيرًا.» حدث بعد ذلك صمت رهيب. لم يتحرّك أي إنسان ولم يهمس أحد بكلمة. لقد شعر الجمهور حقًا بخيبة أمل لأنّ أحدًا لم يُصبح أحكم ممّا كان عليه قبل أن يتكلّم هوكنغ. ثم أضاف هوكنغ عبارة مُقلقة. قال إنّّه يخشى أن يكون بقاؤنا على قيد الحياة لفترة طويلة ورجاء جنسنا البشري في خطر، منذ أن عالجت عمليّة الارتقاء والتطوّر جدليّة الحتميّة والعدائيّة. وأضاف قائلاً: «إن استطعنا أن نستمر في عدم تدمير بعضنا بعضًا خلال المئة سنة القادمة، فإنّ التكنولوجيا ستكون قد تطوّرت وستوزّع البشر على كواكب مختلفة، عندها لن يكون بإمكان أي مأساة واحدة أن تتحكّم بمصيرنا جميعنا في آن واحد.»

لقد عَلِقَ هوكِنغ بكُلِّ تأكيد في مخالف المعضلة. فمن جهة، لا يمكن إلا أن يكون هناك إله يشعر به بكُلِّ ثقة وثبات، بحيث لا تستطيع نظرية التطور والارتقاء أن تفلت منه. ما نتج عن ذلك كان مقلقًا أكثر، لأنّه من جهة أخرى، لو صحّت نظرية التطور والارتقاء، فلن يقدر أن يتجاهل العدائية والعنف اللذين أمسى الإنسان عليهما. وبحسب تعبير الشاعر تينيسون Tennyson، فإنَّ «أنياب الطبيعة ومخالبها كانت حمراء». وهكذا اقترح هوكِنغ أن رجاء الإنسانية الوحيد في هذا العنف الذي تطوّر هو في الآلات التي نستطيع أن نخترعها لدرء وحشية الإنسان. فالمُخلَص التكنولوجيا، سيأتي راكبًا على أجنحة العلم لكي يخلّصنا من أنياب الحتمية. باختصار، إنّ جواب الملحد عن موضوع الألم هو التكنولوجيا.

أرتجف حين أرى خواء الحلول البشرية، ولا أقدر إلا أن أتذكّر ما قاله سي إس لويس C. S. Lewis، إنّ التكنولوجيا والسحر لهما علاقة مشتركة مع حكمة القدماء. كان السؤال بالنسبة إلى الإنسان القديم، هو: «كيف أشكل النفس مع الواقع؟» وكانت الإجابة: «بالفضيلة والتهديب». أمّا بالنسبة إلى الإنسان المعاصر، فالسؤال هو: «كيف أستطيع أن أعيد تكوين الواقع ليتلاءم مع رغباتي؟» وتأتي الإجابة: «من خلال التقنيات أو التكنولوجيا.» ما زال هذا هو رجاؤنا الخالد. وسواء كانت الخرافات قديمة أم حديثة فإنّها ستموت لا محالة.

٣ علماء مفترق الطرق

ثمّة أمر عاطفي جدًّا، يُحدث تغييرًا يتعلّق بعملية التقدّم في السنّ. فكلّما رأينا النهاية الأليمة التي يمكن للروح البشرية أن تنحدر إليها حين تصمّم أن تبقى مستقلّة بذاتها، قلّت ثقتنا بالوسائل البشرية. لقد أعطى يسوع إجابة مختلفة ودراماتيكية (وإن كانت جذرية) للألم والمعاناة في هذا العالم الذي يركّز على الذات وعلى ملكوت أرضي. كانت إجابته حجر

عثرة في ذلك الوقت، وهي كذلك اليوم أيضًا. لكن، إن فهمنا إجابته بشكل صحيح وبجدية، نستطيع أن نرى جمالها وسط آلامها الواضحة والبغض الذي يحيط بها. أنا أشير بذلك إلى صليب المسيح. الصليب هو بمثابة سرّ غامض لأنّه غريب عن كلّ الأمور التي نُعلّي شأنها، أي الذات بدل المبادئ، والقوة بدل الوداعة، والتصحيح السريع للأمور بدل التروّي، والتستّر بدل الاعتراف، والهروب بدل المواجهة، والراحة بدل التضحية، والمشاعر بدل الالتزام، والشرعية بدل العدالة، والجسد بدل الروح، والغضب بدل الغفران، والإنسان بدل الله.

قال راينهولد نيبور Reinhold Niebuhr في كتابه «ملكوت الله في أميركا» *The Kingdom of God in America*: «نريد إلهاً من دون غضبه، يأخذ الإنسان بلا خطية إلى ملكوت بلا عدل، من خلال خدمة يسوع بلا صليب.» تمشيًا مع ما قيل هنا، أقتبس كلمات مالكولم ماغريدج Malcolm Muggeridge التي كتبها في أواخر سني حياته:

خلافًا لما يمكن توقّعه، أنظر إلى الوراء، إلى الاختبارات التي بدت في ذلك الوقت أنّها مؤلمة. أنظر إليها الآن برضى خاص. في الواقع، أستطيع أن أقول بكلّ صدق إنّ كلّ ما تعلّمته خلال أعوامي الخمسة والسبعين في هذا العالم، وكلّ ما حسّن في وجودي ونورّه، كان من خلال المحن وليس من خلال السعادة التي كنت أسعى إليها أو التي حصلت عليها. بكلمات أخرى، أقول هذا، لو كان بالإمكان القضاء على الألم في وجودنا الأرضي، بدواء ما أو بجراحة طبية، فلن تكون النتيجة أنّ الحياة ستصبح لذيدة، بل مبتذلة وتافهة لدرجة أنّنا لن نستطيع تحمّلها. هذا، طبعًا، ما يرمز إليه الصليب، والصليب، أكثر من أي أمر آخر، هو الذي حتمًا أرشدني إلى المسيح^١.

«الصليب، أكثر من أي أمر آخر.» لماذا شخص يقارب الثمانين من العمر، والذي كان مرّةً متهكّمًا، ينطق بكلمات كهذه في الوقت الذي تشارف فيه حياته على النهاية؟ أظنّ لأنّه في الصليب فقط، يتلاقى الألم والشرّ في صراع محقّق. في الصليب فقط، يندمج العدل مع المحبة، الأساسان التوأمين اللذان عليهما نقدر أن نبني منزلنا الأخلاقي والروحي، على صعيد الفرد وعلى صعيد الأمة. من المستحيل نظريًا وعمليًا، أن نبني مجتمعًا بعيدًا عن المحبة والعدل. وإن تحوّل التركيز إلى أحدهما فقط، فسيتبع ذلك تطرفٌ وشذوذٌ لا مفرّ منهما. كان الإنسان، عبر التاريخ، يصرخ من أجل الحرية والمساواة والعدالة، ومع هذا، فإنّ الإيديولوجيات التي نشأت، والتي من المفترض أن تعمل من أجل تطوّر الإنسان، خلّفت وراءها خبرات خسيصة نسمع صداها عبر أصوات البشر الذين يئنّون كحيوان واقع في فخ. بيدَ أنّ صرخةً أخرى ترتفع فوق صرخة الحرية والمساواة والعدالة بذلك الحسّ بالانتماء ندعوها المحبة. لكنّ المحبة غير المقيدة بأيّ حسّ بالصواب والخطأ ليست بمحبة، إنّما هي تركيز على الذات والاستقلالية. ففي صليب يسوع المسيح، تحقّقت مطالب العدل، وفيه تمّ التعبير عن كرم المحبة.

دعوني باختصار أقدم لكم الإجابات الثلاث العظيمة التي يقدّمها الصليب عن الألم.

أولاً، أرى في الصليب تعبيرًا عن قلبي، لأنّ تمرّد القلب ضدّ الله، ونزعة الإرادة هي التي نفست عن غضبها الشديد ضدّ الواحد الذي كان والذي يكون، وهو الإنجيل. الصليب يرمز إلى غضب الإنسان المعلن على ما هو خير وصالح، حتى على الله نفسه. ليس هناك من حدود للمكان الذي يمكن أن نصل إليه حين يتحكّم التمرد بلا رقيب، كما وثّق بذلك المؤرّخ كريستوفر براوننج Christopher Browning في كتابه عن المحرقة بعنوان «رجالٌ عاديّون» *Ordinary Men*. قال أحد النقاد ردًّا على هذا الكتاب: «إنّ الجانب الأكثر رعبًا في كتاب كريستوفر براوننج الأساسي

هو المعرفة التي ينقلها إلينا بأن الذين ارتكبوا جرائم هتلر لم يكونوا زمرة من المتوحشين، إنما كانوا رجالاً جيّدين وعاديين.»^٢

لكن لئلا نفكر بالخطأ من الناحية الكميّة، دعوني أسجّل تحذيراً. فخلال محاكمات القضاة النازيين في نورمبرغ Nuremberg والذين شاركوا في المحرقة، قال القاضي الوحيد الذي كان مستعداً أن يقرّ بمسؤوليّته ودوره في معسكرات الموت محاولاً تخفيف ذنبه: «لم أقصد أن تصل بي الأمور بعيداً جداً إلى هذا الحدّ.» وردّاً على محاولته تبرئة أفعاله، أجابه أحد أعضاء المحكمة بحدّة: «في المرّة الأولى التي حكمت فيها بالموت على شخص بريء وصل بك الأمر بعيداً جداً.» لم يكن حجم الخطيّة هو الذي أرسل يسوع إلى الصليب، بل واقع الخطيّة هو الذي أوصله إلى هناك.

إنّ الحالة البشرية التي نكون عليها عند الولادة تضع كلّ واحد منا على منحدر زلق، ولا يستطيع أحد أن يوقف انزلاقنا نحو الاستقلالية المطلقة. على الصليب، أرى التمرّد المطلق؛ عار الإرادة البشرية وألمها حين ترفض بشكل وحشي، حتى الخالق؛ إنّ مدينة البشر تعمل ضدّ مدينة الله. وسخرية هذه الوحشية هي في كون القادة الدينيين هم الذين أطلقوها. فالقوة غادرة حين لا تكون تحت سيطرة الخير والصالح.

ثانياً، أرى في صليب يسوع المسيح معجزة الغفران كنقطة انطلاق لإعادة بناء حياة الإنسان. هذه حقيقة بسيطة، لكنّها فريدة من نوعها في الإيمان المسيحيّ. اسمعوا ما قاله أستاذ في مدرسة ابتدائية:

وقف أمام طاولتي وشفّته ترتجفان،

لقد انتهى الدرس.

«هلا تعطيني ورقة امتحان جديدة، أيها الأستاذ العزيز؟»

فقد أفسدت ورقة الامتحان هذه.»

أخذت ورقته، المتسخة بأكملها، والملطخة
وأعطيته ورقة جديدة نظيفة.

وصرخت في قلبه المتعب،
«أجب إجابات أفضل الآن، يا بني.»

وقفتُ أمام العرش وقلبي يرتجف،
لقد انتهى اليوم.

«هلا تُعطيني يومًا جديدًا، يا سيدي؟
فقد أفسدت يومي هذا.»

أخذ يومي، المتسخ والملطخ بالكامل
وأعطاني يومًا جديدًا نظيفًا.

وصرخ في قلبي المتعب، المتعب،
«عش يومك بطريقة أفضل، يا بني.»^٣

إن أردت أن تفهم الغفران، تأمل في منطق عدم الغفران، والبوسنة
Bosnia هي أكبر مثال على ذلك. إن المجازر الجماعية في البوسنة وراوندا
Rwanda هي تذكارٌ دمويٌّ للانتقام البشري وللحياة من دون الصليب. لكن
الصليب لا يقلل من شأن الشر، بل يظهر الشر في أبشع مظاهره، حتى حين
يعرض بداية جديدة في المعنى الأكثر عمقًا للكلمة. لكن نعمة الغفران،
ولأن الله نفسه هو الذي دفع الثمن، هي ميزة خاصة بالمسيحية، وتقف
بشكل رائع في وجه عالمنا الذي لا يغفر، والممتلئ بغضًا. إن غفران الله
يقدم لنا بداية جديدة.

أخيرًا، يعطي الصليب رسالة وهي أن الله ليس بعيدًا عن المعاناة
والألم. لقد فعل شيئًا عمليًا بالنسبة إلى هذا الموضوع. لم يتعامل مع الشر
فحسب، بل حول الشر الموجود في الصليب، لكي يقابله بالخير، ولكي

يعطي حلاً للشر. يُشير جايمس ستيوارت الاستكتلندي James Stewart Of Scotland إلى هذا الموضوع بإيجاز، مركّزاً على الآية الكتابية التي تصف انتصار يسوع والتي قالها بولس الرسول مقتبساً من سفر المزامير ٦٨: ١٨، «سبى سبياً».

«سبى سبياً» يالها من عبارة مجيدة. لقد استخدم انتصارات أعدائه نفسها لكي يغلبهم. حوّل إنجازاتهم المظلمة بالقوّة لكي تخدم غاياته، وليس غاياتهم. سمّوه على خشبة، غير عالمين أنّ ما فعلوه جعل العالم يركع أمامه. أعطوه صليباً، غير عالمين أنّه سيحوّله إلى عرش. دفعوه خارج الأبواب لكي يموت، غير عالمين أنّهم في تلك اللحظة كانوا يفتحون أبواب الكون لكي يدخل الملك. أرادوا أن يقتلعوا رسالته، غير عالمين أنّهم كانوا يجذّرون الاسم الذي أرادوا أن يقضوا عليه، في قلوب البشر بطريقة خالدة. ظنّوا أنّهم أوقفوا الله أمام الحائط، مسمّراً، لا حول له ولا قوة، ومنهزماً؛ ولم يعلموا أنّ الله نفسه هو الذي أحاط بهم. لم يغلب الله على الرغم من سرّ الشرّ المظلم، بل غلب من خلاله.

منذ فترة قصيرة، كنت أتكلّم في سلسلة من الاجتماعات في بلجيكا Belgium. ذات ليلة، أخذني مترجمي، ولفرد Wilfred، في سيارته إلى أحد الاجتماعات في مدينة جينك Genk، الواقعة على الحدود مع ألمانيا، والقريبة من المدينة المشهورة اليوم باسم ماستريخت Maastricht، حيث وُقعت المعاهدة التاريخية للاتّحاد الأوروبي. لم أكن أعرف ولفرد بشكل جيّد، لذا كانت أحاديثنا الأولى عامّة وتدور حول تعرّف أحدنا بالآخر. كان هناك أمر مريب حول تصرّفاته، لكن ذلك حبّبه إليّ، إذ كان رجلاً لطيفاً قد اختبر آلام الحياة واتعبته أعباؤها الثقيلة. كان الوقت متأخراً، وظلام الليل من حولنا يوحي السكينة ممّا جعل ذلك الحديث حديثاً لا يُنسى. لقد أتينا من عالمين مختلفين، هو أتى من بلد صغير حجمه كحجم

مدينة صغيرة في الهند. وأنا أتيت من بلد كبير جدًا. هو أتى من بلد ما زال يتذكر فيه أصوات أقدام النازيين وهم يمشون على الأرصفة، وأنا أتيت من بلد حيث الحرب ما زالت تتردد أصدائها في النفس. كان كل هذا يفصلنا عن بعضنا، لكنّ النقاش الذي دار بيننا سيقرب قلوبنا وعقلينا بطريقة عجيبة.

بدأ يُخبرني كيف سلّم حياته لشخص يسوع المسيح، وكيف أنّ إيمانه هذا مرّ بامتحان جذريّ. أوحى إليّ توقّفه المتكرّر خلال سرده للأحداث، ولهجته المتغيّرة، عمق المشاعر التي يشعر بها وهو يخبر قصّته. أخبرني أنّه حضر مؤتمرًا منذ عدّة سنوات في مكان ما في سويسرا يشبه الجنة، وبدأ يصف لي أحداث ذلك اليوم المصيري: «كان موضوع الترانيم في ذلك اليوم يدور حول حقيقة السماء، وتحدّث المتكلّمون بإسهاب عن هذا الموضوع. كنت أستدفيّ في عظمة هذا الرجاء وأستمتع بوعد الأبدية. وبشكل غير متوقّع تمامًا، ناداني أحدهم باسمي خلال الاجتماع وطلب منّي أن أذهب فورًا إلى المكتب لكي أجيّب على مكالمة طارئة. ذهبت إلى المكتب، ورفعت سمّاعة الهاتف، وسمعت صوت زوجتي الكئيّب «فايث» Faith، وأعلمتني وهي تننّ أنّ طفلنا البالغ من العمر تسعة أشهر فارق الحياة منذ لحظات، ومن دون سابق إنذار، وهو نائم في سريرهِ.»

وقد أعلمني أنّ هذا الخبر جعله ينحدر إلى أدنى المستويات في حياته. لم يكن بالإمكان وصف المصيبة. انفجر الغضب والحزن كانفجار بركان ثائر وبدأ ينزف حزنًا وكآبة. دوّت صرخة من أعماق قلبه أرادت أن تحاكم الله لازدراءه بالحياة البشرية؛ وهكذا تدفّقت مشاعره وعبرت عن أمر واحد أساسيّ ألا وهو الحيرة. حزم حقائبه واشترى بطاقة وعاد بالقطار، وجلس وحيدًا في مقعده قرب النافذة وبدأ كما لو أنّ شيئًا لن يقدر على التخفيف من ألمه.

كان على المقعد المقابل له رجلٌ جالسًا يقرأ في كتابه المقدس، وكان قربه أيضًا رجلان شابان لم يحاولا إخفاء ازدراءهما بالكتب المقدسة. أخيرًا، ردَّ الرجل الذي يحمل الكتاب المقدس على سخريتهم وكان الحوار بينهم على شكل مبارزة فلسفية. ثمَّ انحنى أحدهما إلى الأمام وكشف عن غضبه قائلاً: «إن كان إلهك محبًا كما تدَّعي، فأخبرني لماذا يسمح للبريء أن يتألَّم؟ لماذا يسمح بالحروب؟ لماذا يسمح بموت الأطفال؟ أي نوع من المحبة هي هذه؟»

شعر ولفرد بطعنة السؤال، خاصة الجزء الأخير منه، كما لم يشعر بها من قبل، وكاد ينفجر قائلاً: «نعم، أيها الإنسان الذي يغار على دينه! أجبهما وأجبنني وقل لنا لماذا يسمح الله بموت الأطفال. أي نوع من المحبة هذه؟» لكنَّ تغييرًا ذهنيًا حدث في عقل ولفرد. انتظر إجابة الرجل، ثم نظر إلى الرجلين الشابين وقال لهما: «هل تسمحان لي أن أنضمَّ إلى حديثكما؟ سأخبركما كم أنَّ الله يحبكما، فقد قدَّم ابنه الوحيد ليموت من أجلكما.»

قاطعه الرجلان فجأة قائلين إنَّه من السهل على ولفرد أن يصرِّح بعبارة مثالية كهذه وهو بعيد تمامًا عن عالم الموت الحقيقي والكآبة.

انتظر ولفرد اللحظة المناسبة لأنَّه كان في حاجة إلى كلِّ ذرة من الشجاعة والقناعة لكي يقول ما عنده بسرعة ولكن بشكل واضح. قال لهما: «لا، يا أصدقائي، أنا لست بعيدًا عن عالم الألم والموت الحقيقيين. في الواقع، إنَّ سبب وجودي على هذا القطار هو لأنِّي ذاهب إلى البيت لأدفن ابني ذا التسعة أشهر. لقد مات منذ بضع ساعات، وموت ابني أعطى للصليب معنىً جديدًا لحياتي. أنا أدرك الآن من هو الله الذي يحبني، هو إله قدَّم ابنه بكامل إرادته لكي يموت عني.»

لا يُظهر الصليب إلهاً صامتًا وبعيدًا عن المشهد البشري، بل إلهاً موجودًا في وسط صراعاتنا وأزماتنا. نحن لسنا أمام نظرية بوزية تدعو

إلى الانعزال عن العالم من خلال نبذ الذات في الرهبنة، أو عبر القيام بأعمال خيرية لمواجهة الشرّ الحاضر الدائم. ونحن لسنا أمام نظرية هندوسية تعترف بمجموعة من الآلهة التي علت فوق عالم الأرض واقتترنت بعالم الأساطير. ونحن لسنا كذلك أمام المفاهيم التي تسعى جاهدة لتبني مملكة أرضية بأي وسيلة ممكنة، حتى بالسيف. نحن أمام تجسّد الواحد الأحد الأزلي، لكي يتواصل مع عالم يتوق إلى شركة مباركة معه وإلى محبة عليا تطرح كل شيء غيرها جانبا، مع عالم ممتلئ بعلاقات محطمة. قارنوا الصورتين التاليتين، ولا حظوا التميّز المسيحي لهذا الواقع:

يضطجعون قرب شراب الآلهة، والصواعق تنطلق بقوة
دونهم في الوهاد السحيقة، والغيوم تلف بيوتهم الذهبية،
المُحاطة بعالم قاتم ما خلا بصيص نور؛
يبتسمون سرّاً، وهم يتأملون في أراضٍ جرداء،
خراب ومجاعة، أوبئة وزلازل، الأعماق تزار، والرمال تغلي،
صدى عراك، ومدن تحترق، وسفن تغرق، وأيادٍ تصلّي.

هذا وصِفٌ للخرافات القديمة والحديثة، حيث الآلهة بعيدة عن مصائب الإنسان، حتى حين ترتفع الأيدي متضرعة نحوها. يا له من اختلاف كبير مع ما يصفه يسوع في المقطع التالي.

التجسّد

الذي إذ كان في صورة الله لم يحسب خلصة أن يكون معادلاً لله، لكنه أخلّى نفسه أخذاً صورة عبد صائراً في شبه الناس. وإن وُجدَ في الهيئة كإنسان وضع نفسه وأطاع حتى الموت موت الصليب. لذلك رفعه الله أيضاً وأعطاه اسماً فوق كل اسم، لكي تجثو باسم يسوع كلُّ ركبة ممّن في السماء ومن

على الأرض ومن تحت الأرض، ويعترف كل لسان أنَّ يسوع المسيح هو ربُّ لمجد الله الآب (فيلبّي ٢: ٦-١١).

نراعا المسيح ممدودتان نحو إرادة البشرية العنيدة. ومع هذا، يقول الكتاب المقدّس إنّ الصليب جهالة للبعض وعثرة للبعض الآخر، مع أنّ رسالته هي الطريقة الوحيدة لفهم صراعات الحياة الأعظم. سيجد الجشع والسلطان والانغماس في الشهوات أنّ التضحية والتواضع والفضيلة ما هي إلاّ أمور تشمئز لها لأنّها تقف ضدّ عظمة الذات. لقد وجدنا نحن في الغرب طريقة لتقديم جوائز نوبل لأشخاص أمثال الأم تريزا Mother Teresa ومارتن لوثر كينغ الابن Martin Luther King Jr، وأقصينا أنفسنا عن الأسباب التي جعلت منهم أشخاصاً عظماء. هذا أقرب إلى رمي قطعة نقدية في قبعة متسوّل، تخلصاً منه، لكي نتابع محاضراتنا وكلامنا عن الفقراء.

لا يوجد أي شيء في التاريخ مثل الصليب، يتعامل مع قلب الإنسان بطريقة فعّالة وواضحة، على الرغم من برتران راسل Bertrand Russell، وسوينبورن Swinburne، ومن على شاكلتهما، وكلّ المثقّفين ونخبة الإعلاميين في عصرنا هذا، الذين يبدو أنّهم يستمتعون في احتقار كلّ ما هو مقدّس. الصليب هو الذي يدعونا إلى أن نموت عن الذات، لكي تحيا فينا حياة المسيح بالكامل. من دون الصليب لا يوجد أي مجد للإنسان. الفرق بين المدينة الفاضلة التي صنعها الإنسان والسماء التي صنعها الله هو الصليب. لهذا السبب، لا يمكن أبداً للمدينة الفاضلة أن تكون موجودة.

إنّ أحد أعمق الكتب التي تتكلّم عن رسالة الإنجيل، هو الكتاب «سياحة المسيحي» The Pilgrim's Progress لكتابه جون بنيان John Bunyan، الذي كان سمكرياً عادياً. نقرأ في هذا الكتاب، وبأسلوب مجازي، عن سائح يحاول أن يسير إلى المدينة السماوية، وهو يحمل ثقلاً كبيراً

على ظهره. أُتيحت له فرص كثيرة وهو يسير في اتجاه المدينة لكي يلتهي ويمرح. إنَّ إحدى أعظم الخدع التي تعرّض لها هذا السائح، كانت عندما دُعي إلى بيت الأخلاق، حيث شرح له السيد الناموسي ببلاغة، طريقاً سهلاً للتخلّص من رحلته الشاقة. كاد السائح أن يميل إلى كلامه العذب ويضع حملة الثقيل في بيت الأخلاق. لكنه لم يقتنع تماماً، وغادر المكان. بعد ذلك التقى المعلّم الحكيم فنَبَّهه إلى ما هو أساسي، وأخبره بأنّه لا يوجد أي طريق للخلاص إلّا من خلال الجلجثة، أي من خلال الصليب. هناك فقط استطاع السائح أن يستريح من حملة الثقيل.

على هذه الحقيقة البسيطة، والتي تُقاوم بشكل عنيف، أن تذكرنا بأنّ كلّ حضارة تُرسي أخلاقها على السياسة، فإنّها بالتالي تُظهر إفلاسها الفلسفي وجهلها المطبق للتاريخ. والعبارة القائلة: «هذا الأمر صحيح على الصعيد السياسي» هي عبارة دائرية بأفضل حالاتها، ومتناقضة بأسوأ حالاتها. أليس من المخيف أننا كمجتمع لا نثق بحلّة السياسة، ومع هذا نتطلّع إلى تلك المؤسسة لكي نرسي فيها أخلاقنا؟ يقول المثل الهندي، إنّ هذا الأمر يشبه تحضير سمكة مشوية، والطلب إلى الثعلب أن يحرسها لنا. ستلوى القيم الأخلاقية دائماً لكي تناسب الشخص الذي تُمتحن إرادته. لهذا السبب، يقف الصليب عالياً، حيث تُسلّم الإرادة له وتنتصر الحقيقة بالمحبة والعدل.

أنا مقتنع تماماً بأنّ الفراغ لا يأتي من ثقل الألم، بل من ثقل المتعة. لهذا السبب نجد أنفسنا فارغين من المعنى، ومخازننا ما زالت ملاءنة. الصليب يعلو فوق كلّ هذه الأمور معيذاً تحديد الحياة نفسها. يقف الصليب كعنصر مركزي للتفسير والإجابة المسيحية حول موضوع الألم. الصليب يصفع كلّ ما نظنّ أنّه سيعطينا حياة. آن الأوان لنا لكي نعيد التأمّل بصدق، في هذا الحدث التاريخي الذي يعطي الحياة والموت قوّة لم نشهد لها مثيلاً.

وبينما أصل إلى الختام، دعوني أوجز بهذه الكلمات. حين يحيا الإنسان بعيداً عن الله، تُصبح الفوضى هي المعيار. وحين يحيا الإنسان مع الله، كما هو مُعلن في تجسّد يسوع المسيح، فإنّ العقل والقلب الجائعين يجدان شعبهما في يسوع. لأنّنا نجد التماسك والعزاء في المسيح، إذ يُعلن لنا بالحق والاختبار طبيعة الإنسان، وطبيعة الواقع، وطبيعة التاريخ، وطبيعة مصيرنا، وطبيعة الألم. من الواضح أنّ هناك كلاماً كثيراً يُقال حول هذا الموضوع، وأنّ هناك كتباً كثيرة كُتبت حوله. لكنّي أريد أن أضع تحدّياً أمامكم بأن تزنوا بعقل راجح، البرهان الموجود أمامكم.

أعتقد أنّه من المناسب أن أختم بهذا الاقتباس المثير للفكر من ج. ك. تشسترتون G. K. Chesterton:

لقد قرّرت حضارتنا وبكلّ عدل أنّ تحديد مذنوبية البشر أو براءتهم هو أمر بالغ الأهمية لكي يؤتمن عليه أناس مدرّبون. ولو أرادت حضارتنا أن تستنير حول هذا الموضوع الخطير، فلا يجب أن تسأل أناساً يعرفون القانون أكثر مني، بل ليسألوا الذين يقدرّون أن يشعروا بما شعرت به وأنا جالس مع هيئة المحلّفين. حين تريد حضارتنا أن تضع دليلاً للمكتبة، أو أن تكتشف النظام الشمسي، أو أي أمر آخر تافه، فإنّها تستخدم المختصّين. ولكن حين تريد حضارتنا أن تُنجز أمراً جدياً، فإنّها تجمع اثني عشر شخصاً عادياً. هذا ما فعله بالضبط، إن لم تخنّي ذاكرتي، مؤسّس المسيحيّة^٦.

كن أنت القاضي. لقد وصلت هيئة المحلّفين إلى قرارها في صفحات الكتاب المقدّس.

الملحق أ



أسئلة وأجوبة عن الإلحاد والإيمان بالله



هذه الأسئلة والأجوبة، مأخوذة من محاضرات Veritas في جامعة هارفرد Harvard، والتي على أساسها تمّت كتابة بعض أجزاء من هذا الكتاب.

السائل الأول: سؤالي هو التالي: أليس من غير الواقعي والأناني، أن يدين الله مجموعة من الملحدين الذين لا يؤمنون به في الوقت الذي لم يقدم لهم حجة مقنعة ليؤمنوا بوجوده؟

رافي زكارايوس: أحتاج من خمس إلى عشر دقائق لكي أجيب عن سؤالك، فتفضّل بالجلوس.

أتذكّر مرّة حين كنت أجيب عن سؤال عقائدي. كان السؤال الأول: الله كامل، إشرح. مازحتُ زوجتي مرّة حين قلت لها إنّ «السؤال الوحيد الأصعب من هذا السؤال، والذي أستطيع أن أفكر فيه هو: حدّد الله وقدم مثليّن على ذلك.» فكما تلاحظون، يمكن لبعض الأسئلة أن تكون شائكة.

سؤالك، يا سيدي، هو سؤال جيّد، لكن دعني أولاً ألفت انتباهك إلى بعض الافتراضات الموجودة في سؤالك والتي عليك أولاً أن تدافع عنها قبل أن يصبح السؤال شرعيّاً، وهي ذات أهمية حيوية لك لكي تأخذها بعين الاعتبار.

لقد ذكرت قانوناً أخلاقياً حين طرحت هذا السؤال. هذا القانون الأخلاقي يقول بكلّ بساطة: سيكون من غير الأخلاقي أن يفعل الله هذا

الأمر من دون أن يعطي براهين كافية لكي يدين إنساناً ما. أليست هذه الفرضية موجودة في سؤالك؟
السائل الأول: أعتقد أنه يبدو كذلك.

ر: لا يبدو فحسب، بل يجب أن تكون هذه الفرضية موجودة في سؤالك وإلا سيُلغى سؤالك نفسه بنفسه. في الواقع، يُشير الموضوع الذي أثرته إلى سؤال أكبر حول عدالة الله أو شرعية كل ما يقوم به الله. لهذا السبب أريد أن أجيب عن سؤالك بشكله الموسّع، وإن أجبت عليه بطريقة وافية وشفافية، فإنّ ذلك كفيل بأن يعالج الموضوع الخاص الذي طرحته. وبما أنّ هذه هي العقبة الأكبر التي يطرحها المشكّكون الصادقون كعائق أمام إيمانهم بالله، فإنّي أعتبر أنّ هذا السؤال يستحق منّي عناية خاصة.

دعني أقصّ عليك حواراً جرى بيني وبين طالب في جامعة نوتنغهام Nottingham في إنكلترا. بعد أن أنهيت محاضرتي مباشرة، انتصب هذا الطالب واقفاً في مقعده وانفجر بي غاضباً: «يوجد شرٌّ كثير في هذا العالم، لهذا السبب لا يمكن أن يكون الله موجوداً.» طلبتُ منه أن يبقى واقفاً وأن يجيب عن بعض الأسئلة. سألته: «إن كان ثمة شيء يدعى شرّاً، أفلمست تفترض بالتالي، وجود الخير؟» توقّف قليلاً، وتأمّل، وقال: «أعتقد ذلك.» أضفت قائلاً: «وإن كان الخير موجوداً، فعليك أن تعترف بوجود قانون أخلاقي، نستطيع على أساسه أن نميّز بين الشرّ والخير.»

ذكرته بمناظرة بين الفيلسوف فريدريك كوپلستون Fredrick Copleston والملحد برتران راسل Bertrand Russell. قال كوپلستون عند نقطة معيّنة من المناظرة: «سيد راسل، أنت تؤمن بالجيّد والسيّء، أليس كذلك؟» أجاب راسل: «نعم، أوّمن بهما.» فأجابه كوپلستون بشيء من التحدي: «كيف تميّز بينهما؟» هزّ راسل كتفيه كما تعود أن يفعل حين يصل إلى طرق فلسفية مسدودة وقال: «بالطريقة نفسها التي أُميّز بها الأصفر عن الأزرق.» أجابه كوپلستون بلطافة قائلاً: «لكن يا سيد راسل،

أنت تميّز بين الأصفر والأزرق بالنظر إليهما، أليس كذلك؟ كيف تميّز بين الجيد والسيّء؟» بعد ذلك أجاب راسل بكل ما أوتي من عبقرية، الإجابة الأكثر ابتذالاً في حياته: «على أساس الشعور، وهل هناك أي أساس آخر غيره؟» عليّ أن أعترف بأنّ السيد كوپلستون كان ألطف رجل شهم بين غيره من الرجال. كان يجب أن تكون الإجابة «المُفحمة منطقياً» والمناسبة لتلك اللحظة: «سيد راسل، في بعض الحضارات يحب الناس جيرانهم، ولكن في حضارات أخرى يأكلونهم، والحضارتان تعتمدان على الشعور. فأَي شعور تفضّل؟»

عدت إلى الطالب الذي كان يسألني من جامعة نوتنغهام وقلت له: «حين تقول إنّ الشرّ موجود، ألسنت بالتالي تعترف بأنّ الخير موجود أيضاً؟ حين تقبل بأنّ الخير موجود، عليك أن تقبل بوجود قانون أخلاقي على أساسه يمكن التمييز بين الخير والشرّ. لكن حين تعترف بوجود قانون أخلاقي، عليك أيضاً أن تفترض وجود مَنْ أوجد هذا القانون. هذا هو بالتالي ما تحاول أن تدحضه أو تثبته. لأنّه إن لم يكن هناك مَنْ أعطى هذا القانون، فالخير لن يكون موجوداً. وإن لم يكن الخير موجوداً، فالشر أيضاً لن يكون موجوداً. فما هو سؤالك يا ترى؟»

حدث صمت جليّ ثم انقطع الصمت حين قال بنوع من الخجل: «ماذا أسألك إذا؟» لم يبق سوى الخجل.

أنا لا أشك لحظة أنّ الفلاسفة حاولوا أن يصلوا إلى قانون أخلاقي من دون الافتراض أنّ الله موجود، لكنّ جهدهم أدّى إمّا إلى افتراضات متناقضة، وإمّا إلى خلاصات. هذا ما حدث بالفعل مع دايفيد هيوم David Hume. سأتكلم بإسهاب أكثر عن هذا الموضوع لاحقاً. لقد أطلت كلامي حين استخدمت هذا الإيضاح من المناظرة التي جرت بين كوپلستون وراسل، لأنّ سؤالك، سيدي، كان صدق لهجوم راسل الفلسفي حول وجود الله. حين سأله أحدهم: «ماذا ستفعل، سيد راسل، إن اكتشفت بعد موتك

أن الله موجود؟ ماذا ستقول له؟» أجاب راسل: «سأقول له إنه لم يعطني براهين كافية على أنه موجود.» حين أعطى راسل هذه الإجابة، أخذ بالتالي موقفاً معادياً تماماً للتعليم الكتابي. يعلم الكتاب المقدس أن مشكلة عدم الإيمان الموجودة لدى البشر، ليست بسبب عدم وجود البراهين والإثباتات، بل بسبب طمسها وكتمانها. قال البروفيسور ريتشارد ويفر Richard Weaver: «إذا كانت الإرادة على خطأ، فلن يخرج شيء صالح؛ وإذا كانت النزعة خاطئة، يزيد الفكر من اقتراف الشر.» وقد صدق جورج ماك دونالد George MacDonald حين قال: «شرح الحقيقة للذي لا يحبها يشبه تقديم مواد إضافية لمزيد من إساءة الفهم.»

دعني أوجز ما قلته:

١. تبريراً للسؤال نقول، ينبغي أن يبقى الله في الصورة. فمن دون الله، يدمر السؤال نفسه بنفسه.
٢. لقد خلقنا الله على صورته ومثاله. وجزء من هذه الصورة، هو امتياز تقرير المصير الذاتي.
٣. أعظم فضيلة هي المحبة.
٤. لقد خلقنا الله لأنه يحبنا، لكن محبتنا له في المقابل، تبقى خياراً لنا. فحين لا يكون الخيار موجوداً، يصبح الأمر إكراهاً، والإكراه ليس محبة. ولا تسبق المحبة الحياة إلا في الرسالة المسيحية فقط. أما في باقي المعتقدات العالمية كلها، فالحياة تسبق المحبة. لهذا السبب، فإن للمحبة نقطة مرجعية في الإطار المسيحي، وهي الله نفسه.
٥. يتواصل الله مع الجنس البشري بطرق مختلفة:

أ. المنطق (فلسفياً)،

- ب. الاختبار (وجوديًا)،
- ج. التاريخ (تجريبيًا)،
- د. العواطف (علاقاتيًا)،
- هـ. الكتاب المقدس (اقتراحياً)،
- و. التجسد (شخصياً).

خذ هذه النقاط الست المطروحة للتفكير النقدي الجدي، فتجد أن المشكلة ليست في غياب البراهين، بل في كتمانها. اسمحو لي أن أضيف بأنّ سايمون غرينليف Simon Greenleaf، وهو بروفيسور في القانون، قال عن وثائق العهد الجديد في هذه الجامعة بالذات: «قد تختارون أن تقولوا إنّنا لا نوّمن بها كلّها، لكن لا يمكنكم أن تقولوا إنّّه لا يوجد براهين كافية.»

المنسّق: دعني أطرح عليك بعض الأسئلة التي وصلتني لأنّي أعتقد أنّ لها علاقة بما تقوله:

أولاً، صحيح أنّ غياب المعنى في الألم والموت والحياة هو أمر رهيب. لكنّ هذا لا يعني أنّ الإلحاد غير صحيح.

ثانياً، هل يحتاج الإنسان إلى إيمان لكي يكون ملحدًا كما يحتاج إليه للإيمان بوجود الله؟ إن كانت الإجابة نعم، فما نوع هذا الإيمان؟

ر: يا للعجب. هذان سؤالان مختلفان. دعني أجيب عن السؤال الأول. من الصحيح تمامًا أنّه لو كان غياب المعنى هو الحاكم المطلق، خاصة في ما يتعلّق بالألم والمعاناة، وأنّه إن لم يكن ثمة إجابة عن هذا الموضوع في الإلحاد، فهذا لا يعني بالضرورة أنّ الإلحاد غير صحيح. في الواقع، إن كنتم تتذكّرون، لقد ذكرت أنّه ليس لمجرّد أنّ النظام الديني يدّعي أنّه يعطي رجاءً وأملًا وقت الشدة والألم والموت، فهذا لا يعني أنّه صار له تلقائيًا موقعٌ على حلبة الحقيقة بكلّ ما تحمل الحقيقة من معانٍ.

فامتحان الحقيقة يذهب إلى أبعد من ذلك. أين إذا ينهار الإلحاد حين يعترف أن لا إجابة لديه ولا رجاء للألم والمعاناة البشرية؟

سؤالك، كما طرحته، يفترض أن السؤال ذات معنى، والإجابة التي تسعى إليها ستُمْتَحَن لنعرف إن كانت ذات معنى أم لا. يُصبح المعنى، إذاً، محورياً في هذا النقاش عينه. ما زلت أتذكر جيداً حواراً أجريته مرة في حرم جامعة الفليبين Philippines في مانيل Manila. صرخ طالب من بين الجمهور قائلاً، إنَّ كلَّ شيء في الحياة لا معنى له. أجبته قائلاً: «أنت لا تؤمن بذلك.»

أردف بسرعة قائلاً: «بلى أنا أوَّمن بذلك»، فأجبته تلقائياً: «لا، أنت لا تؤمن بذلك.»

فاستشاط غضباً وقال: «أنا بكل تأكيد أوَّمن بذلك. من أنت لكي تقول لي إنني لست مؤمناً بذلك؟»

فطلبت منه قائلاً: «من فضلك أعد التصريح الذي تفضَّلت به لكي أسمعه من جديد.»

فأجاب بكل ثقة: «كلَّ شيء في الحياة لا معنى له.» فقلت له: «أرجوك، لا تجلس، فالإجابة عن تصريحك هذا تحتاج إلى بضع لحظات فقط. أنا أفترض أنك تزعم أن ما صرَّحت به للتو هو تصريح ذات معنى. إن كان لتصريح ما معنى، فليس كلَّ شيء في الحياة بلا معنى. من جهة أخرى، إن كان كلَّ شيء في الحياة بلا معنى، فما قلته للتو لا معنى له أيضاً. إذاً، في الواقع، أنت لم تقل شيئاً.» دُهِش الشاب للحظة، وحين كنت أغادر القاعة رأيته يمشي متمتماً: «إن كان كلَّ شيء في الحياة بلا معنى، فما...»

أنا أذكر هذا القياس لكي أشير إلى خطأ مشابه ترتكبه. أنت تجادل منطقياً من أجل صراع وجودي. أعني بذلك أنك سألت السؤال بطريقة

منطقية، لكنّ شكواك هي شكوى وجودية. والسبب وراء بحثك عن إجابة ذات معنى لسؤالك هو أنك تؤمن بأنّ للحياة معنى. لكن، إن لم يكن للألم والمعاناة والموت تفسير منطقي على الإطلاق، حتى لو كانت كلها تُختبر على صعيد عالمي، فلن يكون للحياة أي معنى. وبالتالي، لماذا ستبحث عن إجابة ذات معنى لسؤالك؟ هذا تناقض صارخ بين منطقك واختبارك، وحين تقابل أحدهما بالآخر، يُصبحان متناقضين.

اسمحوا لي أن أتوسّع قليلاً. لماذا تقدر أن تتبنّى وجهة نظر عالمية لا تفسير لها للاختبارات البشرية الأساسية ولا تجد أنّ ما تفعله غير منطقي، في حين أنك تسخر في الوقت نفسه من وجهة النظر التي تؤمن بوجود الله لأنّها، كما تقول، هي غير مترابطة مع معضلة الألم؟

وعلى افتراض أنّ هذا لم يكن كافياً، فدعوني أتوسّع أكثر. إن لم تكن مشكلة الألم والمعاناة مشكلة أخلاقية للعقل الإلحادي، فهل يجب اعتبار الشخص الذي يسبب الألم والمعاناة للآخرين شخصاً غير أخلاقي؟ إن كانت الإجابة بنعم، حاول أن تشرح ذلك بطريقة مرضية وحضارية. أمّا إذا كانت إجابتك بلا، فما نتيجة ذلك على نظامنا القضائي؟ في الواقع، من المعقول أن تجادل بأنّه لو كان الموت هو نهاية كلّ شيء وأنّ الحياة لا وجود لها بعد أن يموت الإنسان، فمنطق عدم الغفران، ومنطق الثأر من أيّ إساءة يصبحان خيارين جذابين لكثير من الناس. اسمحوا لي أن أفترض أنّ هذا هو بالذات منطق «التطهير العرقي» الذي يحصل في البوسنة اليوم كونهم يدّعون أنهم ينتقمون للمذابح التي تعرّضوا لها لعقود طويلة. هذا هو أيضاً منطق الإرهابي الذي يُفجّر طائرة في السماء، مسبباً ألماً لعائلات بريئة لأنّ «حكومتهم» (أي حكومة عائلات الذين قُتلوا) «كانت تدعم أعداءنا الذين أذوا عائلاتنا».

في الواقع، إنّ مجرد الافتراض أنّه «بسبب عدم وجود إجابة لدينا عن الألم والمعاناة فإنّ هذا لا يعني أنّ معتقدنا الإيماني غير صحيح» هو

افتراض مبسّط جداً. إن رابط الألم والمعاناة والموت يصل رابط الأخلاق من جهة والمعنى من جهة أخرى. إنّه غير موجود بشكل انعزالي.

قدّم الفيلسوف الإنكليزي، ج. ك. تشسترتون G. K. Chesterton فكرة قوية. لقد كان يناقش أنّ الفرح في الإيمان المسيحيّ هو محور الحياة، والحزن هو أمر عرضي لأننا نجد إجابات عن أسئلة الحياة الأساسية، لكنّ السطحي منها يبقى بلا إجابة. بالنسبة إلى الملحد، الحزن هو أمر محوري، والفرح أمر سطحي لأنّه يوجد إجابات للأسئلة السطحية فقط، وتبقى الأسئلة الأساسية من دون إجابة. إنّ سؤالك ينقل المعضلة الوجودية إلى معضلة منطقية غير متماسكة.

السائل الثاني: حسناً، أستطيع أن أقول لك بكلّ بساطة إنّني سمعت كلّ هذا من قبل... وأنا لست تعساً.

ر: لم أقل أبداً إنك كذلك.

السائل الثاني: لا، لكنك تحاول أن تجعل منّي إنساناً تعساً وأنت لا تنجح بذلك.

ر: لا، أتمنى لو أنّي حاولت ذلك.

السائل الثاني: كما أريد أن أوضح نقطة وهي أنك تتكلّم عن نسخة من شخص ملحد مصنوع من قشّ كنت قد قابلت مثله من قبل. كثيرون من الفلاسفة يقولون إنّ الإلحاد لا يؤكّد بالضرورة عقائدياً أنّ الله غير موجود. أنا ملحد لأنّي لا أجد براهين كافية على وجود الله.

ر: لكن لماذا لست ممّن يقولون بأنّ الكلّ هو الله؟

السائل الثاني: لأنّه كذلك، لا يوجد برهان على أنّ الكلّ هو الله.

ر: آه، إذاً الكلّ...

السائل الثاني: ...ليس عندهم براهين كافية.

ر.ز: حسنًا. ما هو سؤالك إذا؟

السائل الثاني: لماذا تستمرّ بتقديم هذه النسخة من الإلحاد كعقيدة، على الرغم من أن مايكل مارتين Michael Martin وجورج سميث George Smith وغيرهما من الفلاسفة الذين يتبعون مذهب الإنسانية يصحّحون دائماً فيما تقوله عن فلسفة الإلحاد؟

ر.ز: حسنًا، شكرًا. معلوماتك هي في الوقت نفسه مضلّة وانهزامية، فسؤالك يعبر عن سوء فهم. لقد اقتبست عمداً تحديدي من مرجع أساسي، وهو الموسوعة الفلسفية المشهورة التي حرّرها پول إدواردز Paul Edwards. طبعًا، يوجد من هم مثل مارتين، وفي هذا المجال مثل هاكسلي Huxley، الذين يحبون أن يختبئوا وراء نسخة ألطف من الإلحاد (تمامًا كما فعل راسل في مناظرته) لأنهم يعرفون أنهم سيقعون في فشل فلسفي حين يحاولون الدفاع عن السلبية المطلقة، بأنّ الله غير موجود. إنّ موقفهم اللطيف هذا بأنّه لا يوجد أدلّة كافية للإيمان بوجود الله يقع في ثلاثة أخطاء منطقية فاضحة.

أولاً، بالجهد يُعتبر الانتقال إلى الإلحاد انتقالاً أكاديمياً معقولاً، في حين أنّه يوجد عشرات الآلاف من الخيارات الأخرى.

ثانياً، لكي يقول الإنسان إنّّه لا يوجد أدلّة كافية للإيمان بوجود الله، وبالتالي أنا ملحد، فإنّ هذا القول يتضمّن دفاعاً منطقياً مقبولاً عن الإلحاد هم لا يمتلكونه. وفوق هذا كلّهُ، لماذا يتمسّكون به إن كان ليس ممكناً الدفاع عنه منطقياً، في حين أنّ حجّتهم لإنكار الإيمان بوجود الله هي أيضاً غير قابلة للدفاع عنها منطقياً؟

ثالثاً، هذا قبول كامل بأنّ الإلحاد لا يمكن الدفاع عنه، مع أنّهم حاولوا ذلك، من هنا ظهرت نسخة أطرف هي اللاأدرية. دعونا نتأمل بالكلمات عينها.

الكلمة *atheism* (أي الإلحاد) هي كلمة مشتقة من اللغة اليونانية وهي عبارة عن كلمتين متصلتين. حرف الألفا *alpha* يشير إلى النفي، وكلمة *theos* تعني «الله». إنَّ موقف الملحد، سواء أعجبك هذا أم لم يعجبك، يفترض نفي وجود الله. فإذا لاحظنا بسرعة التناقض الصارخ في تأكيد نفي وجود الله، لأنَّه يفترض قطعاً في الوقت نفسه أن يكون عند المُنكر لوجود الله معرفة مطلقة، حدث تحوّل فلسفي مناسب نحو اللاأدرية *Agnosticism*. لكن للفلسفة اللاأدرية موقف مخرج أكثر من الموقف الإلحادي. فالحرف الألفا *alpha* يشير إلى النفي، والكلمة *ginosko* مشتقة من اليونانية وتعني «يعرف». اللاأدري هو شخص لا يعرف. يبدو الأمر متجانساً وفي الوقت نفسه معقداً، ولكن الكلمة اللاتينية المعادلة لها هي *ignoramus*. لهذا السبب لا يشعر اللاأدري بالمدح في هذا المجال أيضاً، لكنّه يلتحق بالمفهوم، مخترعاً حالة ما غير موجودة في الكلمة بينما يهرب إلى الإلحاد من أجل كلّ الغايات الوظيفية. إذاً، أقول لكم، الهجوم ليس ضد المدافع عن الإيمان المسيحي، فهذا يُعتبر تشويشاً للمشكلة. الإبرة مغروسة في قلب الموقف الإلحادي غير القادر أن يحيا مع نفسه. دعوني أضيف بأنَّ على اللاأدري الصادق أن يكون منفتحاً على الدليل.

السائل الثالث: يبدو أنك تقول في حديثك إنَّه يجب علينا أن نلتفت إلى الله والدين لأنَّه يرينا طريقة للتعامل مع الألم. هل هذا يعني أن معيار اختيار معتقد ما، يرتكز على المعتقد الذي سيجعلنا سعداء أو على المعتقد الذي يسدّ احتياجاتنا؟ وإن كان الأمر كذلك، لماذا نختار المسيحية من بين الأديان الكثيرة الأخرى التي تساعدنا على التعامل مع الألم؟

ر: قطعاً لا. في الواقع، لقد قلت بشكل واضح في محاضرتي إنَّه ليس بالضرورة الوصول إلى هذه النتيجة. ما أقوله هو أنَّه إذا كانت المسيحية صحيحة، فستساعدك لكي تتعامل مع الألم والمعاناة. لكني لم أقل إنَّ المسيحية صحيحة لأنَّها فقط تعالج ألمك ومعاناتك. سيكون هذا الاستنتاج كقفزة الوجودية في الفراغ.

السؤال الحقيقي، طبعاً، هو ما إذا كانت المسيحية وادّعاءات المسيح الحصرية هي حقيقية بالمقارنة مع الأديان الأخرى. يمكن تبين ذلك بشكل واضح ومقنع كما فعلتُ في محاضرات وكتابات أخرى. لا يمكننا الخوض في هذا الموضوع الآن وإظهار كل المقارنات. ستكون محاضرتي التالية دفاعاً عن المسيحية. إن أظهرت أن المسيحية حقيقة فالإجابة عن موضوع الألم ستلي تلقائياً. لكن بمجرد وجود معتقد يرفع عنا الألم، هذا لا يجعل من هذا المعتقد نظاماً صحيحاً.

السائل الرابع: أنت تظهر أن رفض نيتشه Nietzsche لله كان من خلال اختبار الوجودي الذاتي، أي ألمه، لكن إجابتك على موقفه هذا تعتمد على المنطق. ألا يعني هذا أن موقفه هو كموقفك تماماً، لكنك تذهب في اتجاه وهو يذهب في اتجاه آخر؟

ر.ن: التحدي الذي قدّمته ضد موقف نيتشه يرتكز على أسسه الوجودية الذاتية وعلى النقد المنطقي وعلى التاريخ. لكن بما أن نقطة انطلاقه هي قفزة وجودية، ونقطة انطلاقي هي تاريخية وفلسفية، فموقف الواحد ليس جيداً بقدر موقف الآخر. لو كانت نقطة انطلاقنا هي نفسها، لكان موقفني وموقفه إما جيدين بنسبة متساوية وإما سيئين بنسبة متساوية أيضاً.

انتقاد نيتشه للمسيحية هو مجرد خطاب عاطفي. حجّته الكبرى مرتكزة على حجة تدمر نفسها بنفسها أخلاقياً. والتّحدي الذي وضعته هو لإظهار هذا الدمار الذاتي. إن أشرت إلى هذا الأمر في الموقف الذي عرضته أنا، فسيكون انتقاديك شرعياً.

السائل الخامس: أنت تحاجّ ضد نيتشه لأنه نتج شرّ عن موقفه كما حدث مع هتلر. لكن ماذا تقول عن الشرور التي ارتكبتها المسيحية، كاضطهاد غير المؤمنين بها خلال الحملات الصليبية؟

ر: هذا سؤال جيّد، لكن يوجد اختلاف مهمّ. اعتقدتُ أنّي أجبتُ مسبقاً عن هذا الأمر في محاضرتي. من جهة، شرور الإلحاد هي نتيجة طبيعية لتعليم الإلحاد. هذا أكثر الوقائع ألماً وحرَجاً على الملحد أن يعترف به. أولاً، دعوني أقول بشكل واضح ما لم أقله. أنا لم أقل إنّ الإلحاد يساوي القتل. ولا أقول إنّ كلّ الملحدين «أشرار». إنّ الوصول إلى هذه الخلاصات، والتي أنكرها، هو سوء فهم أو سوء تفسير للمعضلة المنطقية. أنا أقول إنّ العنف هو طريق يمكن الوصول إليه بشكل منطقي من الإلحاد، وأفترض أنّ داروين Darwin نفسه قال هذا بشكل قاطع في «عالم من الانتقاء الطبيعي» *A World of Natural Selection*. وحتى تينيسون Tennyson في أشعاره ما قبل الداروينيّة، وصف الطبيعة بأنّها: «ملطّخة بالدم في أنيابها ومخالبها». حيث انتشرت الأيديولوجية الإلحادية، انتشر معها الدم بلا هوادة: الصين، وروسيا، وألمانيا النازية هي أمثلة صارخة على هذا الأمر. من جهة أخرى، نرى بشكل واضح أنّه حيث استخدمت المسيحيّة السيف وسبّبت ألماً للناس، أو حيث اعتلت الفرس السياسي بانتصار، سرّدت عن الطريق التي رسمها المسيح لأتباعه. للتسييس الدينيّ في التاريخ حقد جهنّمي أكثر من النعمة السماوية. لم يكن دوستويفسكي Dostoevsky المفتش الكبير أوّل قائد ديني يُخرج يسوع خارج الهيكل. قال يسوع: «مملكتي ليست من هذا العالم. لو كانت مملكتي من هذا العالم لكان خدامي يجاهدون.» لم يمدح يسوع أبداً أمر استغلال الناس أو الفلسفة للعنف. إنّ استخدام أو إساءة استخدام المسيحيّة بما يُخالف رسالة الإنجيل الحقيقية، لا يُعلن الإنجيل كما هو بالحقيقة، إنّما يُعلن حالة قلب الإنسان. لهذا السبب إنّ الإلحاد مفلس للغاية كوجهة نظر للحياة، لأنّه يفشل فشلاً ذريعاً في معالجة حالة الإنسان كما هي عليه.

بسبب ضيق الوقت خلال المحاضرة، تكلمتُ عن فرادة المسيح لكي أعود إلى الإلحاد. عندما دافعتُ عن شخص يسوع المسيح وتعليمه، كنتُ أعتبر مسبقاً أنّ الإيمان بالله هو أمر مفروغ منه، لأنّ يسوع علّم بشكل واضح عن وجود الله، وعلم أنّه في شخصه، كان الله المتجسّد. لقد كان الكاشف عن الله نفسه.

مع هذا، ولكي يكون الأمر صحيحًا من الناحية الفلسفية، ينبغي إثبات الإيمان بالله، قبل أن تتمّ المدافعة شرعيًا عن الإيمان المسيحي. في ضوء هذا، سأرسم باختصار حجة وجود الله.

أي شخص قرأ كتابًا عن فلسفة الأديان أو درس علم الدفاعيات يعلم أنه يمكن لهذا الموضوع أن يصبح مملًا. عبر عملية تقديم الحجج، تبدو الكلمات والمفاهيم والأسماء وكأنّها تشكّل ثقلًا على المفكر. كيف يمكن لأمر أساسي كعلة الكون الأولى أن يكون غامضًا وبعيد المنال؟ قال ج. ك. تشسترتون G. K. Chesterton مرّة إنّ تفسير الملحدّين قاده إلى الله بينما كان يتأمّل في حججهم المبتذلة وغير المقنعة أبدًا. وبالطريقة نفسها، إن لم يكن الإنسان منتبهاً، فإنّ الحجج المملّة عن وجود الله يُمكن أن يكون لها نتائج عكسية، كما يمكن أن تلهي القارئ عن هدف الحجة الأساسي.

أود أن أتطرق إلى أمور هامشية في هذا الموضوع لكي أنزع فتيل الانتقاد الذي يتّهمنا بالقفز خطوة كبيرة من الإلحاد إلى المسيح. ولكي أجدب المفكر الذي يهتم بالتفاصيل والمفكر الذي يرغب الحصول على خلاصة النقاش، سأقدّم مقاربتين اثنتين. أودّ أن أقترح على القارئ أن يواصل البحث في هذه الأمور بشكل مفصّل إن رغب في ذلك عبر دراسة المصادر الأساسية المتعلقة بهذا الموضوع.

على الرغم من أنّ الحجج في علم الدفاعيات الكلاسيكي، كالفائية (من التصميم) والأخلاقية (من الأخلاق)، هي حجج تُستخدم بشكل مستقل عن بعضها، إلّا أنّها في الواقع فروع من حجة أوسع تُعرف بالحجة الكونية (مجادلة من السببية). الحجة الفائية، مثلاً، توضح التصميم لتصل إلى مصمّم. الحجة الأخلاقية تنتقل من السبب إلى التأثير. وهكذا، تكون الحجة الكونية الشكل الأصلي للبراهين الكلاسيكية لأنّها تسعى أن تثبت مبدأ السببية كمبدأ ضروري. سأعرض عليكم

المخطّط بشكل موجز قبل أن أنتقل إلى بنية مبسّطة للوصول إلى برهان وجود الله.

الفيلسوف نورمان جيزلر Norman Geisler، هو في تقديري الرائد والمفسّر البارع للحجّة الكونيّة لأنّه دافع عنها أمام أقوى النقاد. 'يقدّم الدكتور جيزلر دفاعًا عن الإيمان بوجود الله من خلال خطوات عشر، تستبق كلّ واحدة منها أسئلة النقاد. إليكم المخطّط الذي يقدّمه:

١. بعض الأمور لا يمكن إنكار وجودها.
 ٢. إنّ عدم وجودي ممكن.
 ٣. أي شيء عنده الإمكانية أن يكون غير موجود هو حاليًا موجود بسبب أمر آخر أوجده.
 ٤. لا يمكن أن يكون هناك تراجع لا نهائي لأسباب الوجود الحالية.
 ٥. بناءً على ذلك، يوجد مُسبّب أوّلي لا مُسبّب له لوجودي الحالي.
 ٦. على هذا المُسبّب الذي لا مُسبّب له أن يكون غير محدود، وغير متغيّر، وكلّي القدرة، وكلّي المعرفة، وكاملاً بشكل مطلق.
 ٧. هذا الكائن الكامل بشكل مطلق يُمكن بشكل مناسب أن يُدعى «الله».
 ٨. بناءً على ذلك، الله موجود.
 ٩. هذا الإله الموجود مطابق لله الموصوف في الكتب المقدّسة المسيحيّة.
 ١٠. بناءً على ذلك، فإنّ الله الموصوف في الكتاب المقدّس موجود.
- أنا أوصي بدراسة كتابات الدكتور جيزلر. في دفاعه عن هذه البنود، خاصة البند السادس. فمن الأهمية بمكان أن تتابعوا حججه المحبّوكة بشكل مُحكم.

هناك شكل مبسّط أكثر للدفاع عن وجود الله يقدمه البروفيسور دالاس ويلارد Dallas Willard من فرع الفلسفة School Of Philosophy (التي كان مديرًا لها في فترة من الفترات) في جامعة Southern California. يرسم ثلاث مراحل ليبرهن وجود الله. هذه المراحل، كما يعتقد، تقدّم إطارًا يقوده إلى استنتاجاته حول وجود الله.^٢

المرحلة الأولى هي حجّته من العالم المادي. «مهما كان تقسيم الواقع المادي حسيًا، ستكون النتيجة عبارة عن حالة تدين بوجودها إلى شيء آخر غير ذاتها.» يقدم ويلارد وصفًا مفصّلًا مفاده أنّ أي شيء موجود، فلكي يكون موجودًا، على كلّ ما هو ضروري لوجوده أن يكون مكتملًا قبله. في هذه السلسلة من المسبّبات، لا بدّ من وجود حالة واحدة على الأقل من الكينونة التي هي موجودة من ذاتها ولا تدين بوجودها لأي شيء آخر. هي ذاتية الوجود، أي لا علّة لها.

يجيب البروفيسور ويلارد على الذين يجادلون بأنّ ما هو ذاتي الوجود هو في حدّ ذاته واقع مادي آخر قائلاً:

سيعترض البعض ويقول، إنّهُ على الرغم من أنّ سلسلة المسبّبات لأي واقع ماديّ هي سلسلة محدودة، فإنّ المادة الأولى في هذه السلسلة يمكن أن تكون قد وُجدت من دون مسبّب، أي باختصار، ممكن أن تكون قد وجدت من «العدم». ثمّة نقاش كبير دائر اليوم، يعتبر أنّ «بيغ بانغ» Big Bang (الانفجار الهائل) شبيه بهذا، علماً أنّ هذا سيجعله مختلفاً عن أي «بانغ» آخر لنا معرفة به. غموض «بيغ بانغ» جذّاب بشكل أساسي، كما أعتقد، ذلك لأنّ «بانغ» أخذت الدور التقليدي لله، مما يعطيها هالة نورانية ملغية كما تبدو الأسئلة العادية التي يمكن أن نطرحها حول أي مادة موجودة. لا يُنظر إلى هذه «بانغ» في أغلب الأحيان كما لو أنّها حدثٌ

فيزيائي (مادي) كما لو أنّ من غير الممكن أن تكون كذلك. لكن ماذا ستكون غير ذلك؟ أهلاً بكم إلى «الأسرار العلميّة». وعلينا على الأقل أن نشير إلى أنّ الكائن القائم بذاته منذ الأزل ليس أمراً أكثر احتمالاً من مادة قائمة بذاتها وناتجة من دون مسبّب. كما أشار سي إس لويس C. S. Lewis: «إنّ البيضة التي وُجدت من دون طائر، ليست أكثر طبيعياً من طائر موجود منذ الأزل.» (C. S. Lewis, *God in the Dock*,) (p. 211)³

لقد قدّم دايفيد هيوم David Hume وغيره حججاً ضدّ مبدأ السببية كمبدأ فلسفي. يعالج ويلارد Willard كلّ هذه الانتقادات ويقدم إجابات رائعة عليها. إنّ الفكرة التي تقول إنّ الكون «انبتق» من لا شيء، ستنتهك في الواقع النظام القانوني الذي يتحكّم بأصول الأشياء على أنواعها. إنّ احتمال أن يخرج شيء مادي من لا شيء هو صفر، إذ لا يوجد حالة مادية واحدة معروف أنها نشأت من لا شيء.

لدينا إذاً، كونٌ «بمعضلة وجودية»... واقع لا مسبّب له موجود لا مثيل له نعرفه في الواقع المادي. على هذا المسبّب أن يكون أكثر من شيء فيزيائي. على هذا المسبّب أن يكون أكثر من شيء فيزيائي أو «طبيعي»، شيء مختلف تماماً في طبيعته، إليه يعود سبب وجود هذا الكون. هذا التحليل يُعطي بشكل واضح على الأقل إمكانية وجود الله، الذي أوجد كيّاناً لا مسبّب له. التفسير الفيزيائي أو الطبيعي الصارم لا يمكن إثباته بالقوانين نفسها التي تتحكّم بالكون الفيزيائي أو المادي. باختصار، إنّ المبدأ الذي يقول إنّ الطبيعة أوجدت الطبيعة، مفترضاً بذلك أنّ الطبيعة هي المسبّب الأول، هو مبدأ لا يمكن الدفاع عنه. لا بدّ أن يكون هناك من كينونة بعيدة عن الواقع الفيزيائي لنستطيع تفسير وجود هذا الكون.

المرحلة الثانية هي حجة ويلارد في شكل الحجة الغائية، لكنه يؤكد أنها ليست حجة مستندة إلى التصميم، إنما هي حجة للوصول إلى التصميم. هذا تمييز جوهري. فالارتقاء والتطور كنظرية، لا يمكن أن تكون منطقيًا نظرية ذات أصول ثابتة، لأن تطبيق هذه النظرية يفترض مسبقًا تهئية الأقوال التي من شأنها أن تجعل تحقيقها ممكنًا. بكلمات أخرى، ليس كل ما هو منظم قد تطور. فالكائن المنظم الذي يتجادل حوله أصحاب الارتقاء والتطور، لم يأت من كائن غير منظم. والأبعاد هي أبعاد بأحجام رهيبة. هي أبعاد زمنية ومتزامنة في آن واحد.

بعد أن أثبتنا أن ليس كل ما هو نظامي قد ارتقى وتطور، يستطيع المؤمن بوجود الله إذ ذاك أن يظهر أن الاختبار البشري، وقبل أن يُنقل أي نظام إلى كيانه الفيزيائي، كان النظام موجود في عقولنا. التصميم في العقل يسبق التصميم في النوع. مرة أخرى، نجد مساحة للإيمان بوجود الله، لأنه لا يوجد شيء في اختبارنا منتظم وموجود بعيدًا عن التحام الكيانات التي تُفضي إلى التصميم في الظروف المكملّة لهذه القدرة، أي الوجود أولاً في العقل.

يُنهي دالاس ويلارد المرحلة الثانية بهذا التحديّ الموجّه إلى الملحد:

قلنا في المرحلة الأولى، نسبةً إلى معطياتنا، إن احتمال أن يكون أمر ما (في الكون المادي على الأقل) قد نشأ من العدم هو صفر، ودعونا الملحد إلى أن يجد حالة واحدة قد نشأت بالفعل من العدم لكي نرفع النسبة إلى رقم أعلى من صفر. والآن نلجّ عليه أن يجد حالة واحدة نظامية—أو كينونية، مهما كانت، لكنها ستكون نظامية، نشأت من كائن لا نظام له.^٤

في المرحلة الثالثة، يعرض ويلارد الحجة بوجود الله من الاختبارات البشرية، التاريخية والاجتماعية والفردية، ضمن قرينة فوق طبيعية

مبيّنة (المرحلة الأولى)، وضمن عقلانية كونية (المرحلة الثانية).
«يجب تفسير هذه الحياة البشرية ضمن إطار الحقائق الوجودية، مع ما
يصاحبها من الإمكانيات المفصّلة في المرحلة الأولى والثانية.»

إن كان اللاشيء غير قادر على خلق شيء، فهذا يعني، بالفعل،
ويتطلّب، أن يكون هناك واقع غير فيزيائي هو المسبّب الأول للأمور.
إضافة إلى ذلك، إذا كانت الحجّة المعتمدة على التصميم تسند الخلاصة
التي تقول إنّ النظام لم ينتج عن عدم نظام، فإنّ الحجّة التي تستند على
مسبّب ذكي يمكن أيضًا إسنادها. وإن كان التاريخ والاختبار البشري
يُظهران وقائع يمكن فقط تفسيرها في عالم من الواقع الفائق. عندئذ
يستطيع الإنسان باستماتة أن يُثبت وجود مسبّب ذكي أولي ندعوه الله.
ينهي ويلارد بقوة خلاصته من خلال الاقتباس من المشكك ديفيد هيوم
:David Hume

إنّ الشعور الأكثر طبيعيةً، والذي سيشعر به أي عقل راجح
في هذه المناسبة، هو شعور بالشوق والتوقع بأنّ السماء
ستفرح في تبديد هذا الجهل المطبق، أو على الأقل في
التخفيف منه، عبر إرسال وحي آخر خاص للجنس البشري،
واكتشاف طبيعة وصفات وعمل الغاية الإلهية لإيماننا.^٥

أنا أتفق من كلّ قلبي مع البروفيسور ويلارد حين قال: «ثمّة إمكانيّة
بأن تكون هذه الصلاة قد استجّبت فعلاً.»

الملحوق بـ



مرشدون للمشكّكين



رينيه ديكارت (١٥٩٦-١٦٥٠)

لقد دُعي رينيه ديكارت René Descartes «أب الفلسفة الحديثة». تعلّم في الجامعة اليسوعية في فرنسا، وزعم أنّه تلقّى إرشادًا إلهيًا بينما كان يخدم في الجيش في ألمانيا، لكي يطور نظامًا موحدًا عن الواقع مستندًا إلى مبادئ حسابية. وقد جادل ديكارت بأنّه لا يوجد إلى الآن أي شيء مخفيّ عنا لا يمكننا الوصول إليه أو اكتشافه بواسطة المنطق. ولأنّه كان متخصصًا في الرياضيات، أراد أن يثبت الحقائق من دون اللجوء إلى الافتراض مسبقًا بأنها أكيدة أو بديهية. كانت هذه الفكرة تُعتبر ابتعادًا جذريًا عن النظرية العلمية التقليدية والتي كانت مبنية على الاحتمالات. كتب ديكارت عدّة كتب، منها كتاب «تأمّلات في الفلسفة *Meditations on First Philosophy*».

كانت عبارة ديكارت المشهورة «أنا أفكر، إذا، أنا موجود» نقطة البداية في بحثه الفلسفي. قاده شكّه للشكّ في وجوده بالذات، وبعد أن شكّ، استنتج أنّه يفكر، ولأنّه يفكر، فهو بالتالي موجود. على أنّه طبّق الصيغة ذاتها في تحديد وجود الله. اقترح ديكارت بشكل أساسي برهانين يُثبتان وجود الله.

أولاً، دافع عن فكرة الله انطلاقًا من عقله: بما أنّ عقل الإنسان غير كامل، لا بدّ أن يكون مفهوم العقل الكامل قد خُلِق في عقل غير كامل. بالتالي، يقول ديكارت، لا بدّ أن تكون فكرة العقل الكامل قد زُرعت في العقل غير الكامل من قبل العقل الكامل نفسه، والذي يجب أن يكون الله.

كان برهانه الثاني في التقليد الأنسلمي (Traditional Anselm). فقد جادل أساسًا، أنه يجب أن يكون للمثلث في تعريفه ثلاثة أضلع بالضرورة، هكذا يجب أن يكون ثمة كائن، الله، بالضرورة موجودًا، وإلا فلن يكون الله شيئًا ضروريًا. لهذا السبب الله موجود.

نستطيع بكل سهولة ملاحظة ضعف هذه البراهين. أولاً، إن الانتقال من الفكرة إلى الواقع ليس انتقالاً صحيحاً أو مقبولاً. إن مجرد إمكانية التفكير في أن أمراً ما ممكن، لا يُثبت بالضرورة وجوده في الواقع. ثم ألا يمكن أن ينتج عن واقع عدم كمال العقل البشري تفكير ناقص حتى في موضوع وجود الكمال؟

ثانياً، الأمر العقلاني الذي لا مفرّ منه ليس دائماً هو الحقيقي. نحن نوافق على أنه يجب أن يكون للمثلث ثلاثة أضلع، لكن هذا لا يُثبت أن المثلث موجود. هذا فقط يُثبت أنه في حال كان المثلث موجوداً فسيكون له ثلاثة أضلع.

أخيراً، إن كان ديكارت يحاول أن يُثبت أن ما هو منطقي فقط يمكن القبول به بتأكيد مطلق، فيكون قد حَكَمَ على نفسه، لأنه في الوقت نفسه يعترف ببعض المبادئ التي هي نفسها غير مُثبتة منطقياً بالضرورة.^١ دعونا الآن نتعرّف قليلاً على ديكارت، مَنْ هو، وَمَنْ عاصره ونقاط ضعف فلسفته.

عاش ديكارت في زمن كانت فيه فلسفة الشك تنتشر بسرعة من خلال كتابات رابليه (Rabelais ١٤٩٢-١٥٣٣)، ومونتانيه (Montaigne ١٥٣٣-١٥٩٢)، وفرانسيس بايكون (Francis Bacon ١٥٦١-١٦٢٦). ينحدر من عائلة من المحامين ورجال الأعمال، وكانت الحاجة والرياضيات مواهب طبيعية في عبقريته. عُرف من خلال عدّة أعمال له، لكن في مرحلة ما أراد أن تُنسب شهرته بالتمام إلى عمله المُبدع تحت عنوان *Project for a Universal Science Designed to Elevate Human*

Nature to Its Highest Perfection. لكنّه تخلّى عن هذا الحلم لأنّه شعر بأنّه ليس من الحكمة انتهاك مجال الديانة السماوية.

كان هدف ديكارت الرئيسي تحصيل المعرفة بطريقة أكيدة وموثوقة ليتجاوز مشككي عصره. كافح للوصول إلى ثوابت رياضية، بمعنى أنّه اقتلع الماورائية وبالتالي الله، الذي أخرجه تدريجيًا ليُصبح فكرة فطرية بدل أن يكون كيانًا يمكن الدفاع عنه منطقيًا. من جديد، من المهم ذكر أنّ ديكارت لم يكن ليتخلّص من فكرة حقيقة وجود الله، لكنه نقل الله بطريقة منهجية إلى «طريقة معرفة» مختلفة.

قال في *Meditations on First Philosophy (IV)*:

وحين أعتبر، أي حين أشكّ، أنّني غير كامل وأنّني كائن أحتاج إلى من يعولني، فإنّ فكرة وجود كائن كامل ولا يحتاج لمن يعوله، أي الله، تأتي إلى عقلي بتميّز ووضوح تام، ولمجرّد وجود هذه الفكرة في عقلي، أو لمجرّد حصولي على هذه الفكرة، أستنتج بكلّ ثقة أنّ الله موجود، وأنّ وجودي يعتمد بالكامل عليه في كلّ لحظة من لحظات حياتي، لدرجة أنّي لا أعتقد أنّ العقل البشري قادر على معرفة أي شيء ببراهين أكثر وبثقة أكبر.

وعلى الرغم من أنّ ديكارت قال هذا الكلام، فإنّه وضع معرفة الله على طريق الشك. وبما أنّه اختزل الله إلى فكرة فطرية، مقترنة مع شكّه في الأحاسيس، فإنّ ديكارت لن يتفق مع الرسول بولس الذي قال: «لأنّ أموره غير المنظورة (أي أمور الله) ترى منذ خلق العالم مُدرّكةً بالمصنوعات، قدرته السرمدية ولاهوته» (رومية ١: ٢٠). لقد كان عنده إجابة فريدة على الإدراك الحسي. وبما أنّه كان واثقًا فقط بما هو موجود في عقله، قام بقفزة كبيرة قائلاً: «بما أنّه لا يمكن لله أن يخدع حواسي»، فإنّ وجود عالم أبدي للأجساد هو عالم حقيقي.

وبشكل تدريجي، أصبح إله ديكارت يُشبه أكثر فأكثر إله الربوبيين. وكانت رغبته تكمن في دراسته للكون، أكثر من دراسته لخالق هذا الكون. وقد انتقلت معه الفلسفة المسيحية إلى التأكيدات الرياضية، وأصبح وجود الله في صورة لا تستطيع فلسفته أن تجد لها حلاً. واستخدم تلميذه سبينوزا Spinoza تفكيره كأساس له، وقد دُعي بحقّ ماورائي الإلحاد المعاصر. يشير الفيلسوفان روندا شيرفان Ronda Chervin ويوجين كيغان Eugene Kevane إلى هذا بشكل واضح، وكلمات ديكارت نفسه تؤكد هذا الإحساس:

أنا كاثوليكي، وأرغب في أن أبقى كذلك، وعندي إيمان بتعليم الكنيسة. لكنني وبكل بساطة أضع كل هذا بين قوسين: في مملكة المشاعر الدينية والعواطف. في حين أنّ علمي الكوني موجود في مملكة المنطق والمعرفة.^٢

هذا يشكّل مقدّمة لمبدأ ديكارت الرئيسي، أي فصل الدين والإيمان واللاهوت، عن الفلسفة والعلوم التجريبية. ستخسر الفلسفة فجأة علاقتها الداخلية مع الدين الموحى به، وهي في طريقها لكي تنفصل كموضوع علماني، وهي خطوة سيكملها سبينوزا.

تحذير ديكارت واضح. فخلاصات الفرد الأولية عن الله ليست هي المهمة فقط، لكن أيضاً العملية التي من خلالها يعرف الإنسان الله ويفهمه. فإن كان يوجد عيب في الطريقة، وإن أنزل الله إلى درجة اللاعقلانية، «بين قوسين» خارج المنطق، فقد أضحى خطوة واحدة بعيداً عن التأليه الذاتي وعن اللامنطق.

ديفيد هيوم (١٧١١-١٧٧٦)

تسجّل ديفيد هيوم David Hume في جامعة إدنبرة Edinburgh University حين كان في الثانية عشر من عمره، لكنه ترك الجامعة قبل

أن يحصل على شهادة منها لأنه كان له كما يقول: «نفور كبير من كل شيء إلا من السعي وراء الفلسفة والثقافة العامة.»^٣ بدأ في عمر الثالثة والعشرين كتابة أول كتاب له بعنوان «رسالة في الطبيعة البشرية» *A Treatise of Human Nature*، والذي أثبت فيه الحجة التجريبية بأن الحقائق لا يمكن إثباتها بمنطق بديهي (*a priori reason*) بل تُكتشف أو يُستدل إليها من خلال الاختبار. وهكذا، وجود الله، أصل الكون، والمواضيع الأخرى التي تتخطى اختبارنا البشري الزائل لا يمكن التحقق منها ولا معنى لها. درّس هيوم طلاباً وتبوأ منصب أمين مكتبة، لكنه كرّس حياته بشكل أساسي للكتابة. من بين أعماله، *Enquiry Concerning Human Understanding* (١٧٤٨)، *History of Great Britain* (١٧٥٤) - *Dialogues Concerning Natural Religion* (١٧٦٢) المكوّن من ستة أجزاء، و (١٧٧٩). أمضى سنوات طويلة في فرنسا متّصلاً برجال التنوير. وفي مرحلة ما، عمل كسكرتير للسفير البريطاني في باريس. يرتبط اسم هيوم مع الفلسفة التجريبية (*empiricism*) والتشكيك.

يمكننا أن نمتحن تفكير هيوم في ثلاثة مجالات مختلفة. أولاً، من خلال المعرفة واليقين؛ ماذا يمكن أن تعرف، وكيف يمكنك أن تعرف؟ يقول في «مبحث في الفاهمة البشرية» *Enquiry Concerning Human Understanding*:

يا للخراب الذي سنحدثه حين ندخل إلى المكتبة، مقتنعين بحقيقة فلسفتنا. إن سحبنا من أحد الرفوف مثلاً كتاباً لا هوتياً أو ماورائياً، علينا أن نطرح على أنفسنا هذا السؤال: هل يحتوي هذا الكتاب على منطق أو كمية أو رقم؟ الإجابة هي، لا؛ هل يحتوي هذا الكتاب إذاً على منطق اختباري يركز على الأسئلة والوقائع؟ لا؛ فلنتخلص منه إذاً ونرمه في النار. لأنه لا يحتوي على شيء سوى السفسطة والأوهام.^٤

بهذه الكلمات يقدّم هيوم نقطة بدايته ونقطة انهياره. لقد آمن هيوم أننا نحصل على كلّ معرفتنا من أحاسيسنا ومن خلال التأمل في الأفكار التي تأتي من الأحاسيس إلى العقل. بالنسبة إلى هيوم لا يوجد شيء في العقل لم يكن أولاً موجوداً في الأحاسيس. ولكي نمتحن مصداقية الفكرة، على الإنسان أن يسأل ما هي الأحاسيس التي من خلالها أتت الفكرة. لا يوجد نور نكاء ليخترق هذا الانطباع «الذي يعطيه الإحساس» والذي سيقود إلى فهم أساسي للأمور الموجودة. لقد أنزل الإنسان إلى مرتبة مادة فيزيائية للدراسة، تماماً كما تُدرس المواد الفيزيائية الأخرى. ويضيف قائلاً، بما أن الإنسان مكوّن من مادة وجوهر، فالروح في واقع الحال قد انتفت.

يُضيف إلى ذلك ثلاثة أفكار هامّة جداً. أولاً، كلّ الأفكار الموجودة في العقل ليست أكثر من مجموعة من الأفكار الخاصة، وكلّ الأحاسيس «مفكّكة ومنفصلة»، وكلّ ما نختبره هو سلسلة من الأحاسيس غير المتّصلة والمنفصلة. ليس عندنا في الواقع معرفة مباشرة عن أنفسنا. كلّ ما نعرفه عن أنفسنا هو كومة من الانطباعات والأحاسيس المنفصلة.

الفكرة الثانية التي هاجمت بطريقة مباشرة أحد البراهين الكلاسيكية لوجود الله هي فلسفة هيوم السببية. يُعبر الفيلسوف نورمان جيزلر Norman Geisler عن موقف هيوم بطريقة قوية:

تظهر الفكرة (يقول هيوم) القائلة بالعلاقة السببية في الذهن فقط بعد أن يتمّ ملاحظة اقتران دائم في الاختبار. أي فقط حين نلاحظ أنّ الموت يحدث بعد وضع رأس أحدهم في الماء لمدة خمس دقائق نفترض علاقة سببية بينهما. ما إن يلاحظ حدوث أمر ما بعد حدوث أمر آخر بشكل متكرّر، نبداً بتشكيل فكرة بأنّ الحدث الثاني يحدث بسبب الحدث الأول. باختصار، إنّ فكرة السببية ترتكز على العادة... يوجد دائماً

إمكانية المغالطة المنطقية، أي أنّ الأمور تحدث بعد أحداث أخرى جرت قبلها (حتى لو كانت متكررة) لكنها لا تحدث بسببها. مثلاً، الشمس تشرق بانتظام بعد صياح الديك، لكنها لا تشرق بكل تأكيد بسبب صياحه.

هذا العجز لتحديد سبب وجود العالم، وبالتالي عدم اليقين في التنبؤ بالمستقبل، يقود إلى الشك. إذاً، مبدأ السببية، بالنسبة إلى هيوم، ليس سوى ترابط انطباعات متتالية. نتوقع من خلال العادات والتقاليد أنّ التعاقب سيحدث. في عالم الواقع، لا يوجد ارتباط ضروري. باختصار، لا شيء يخوّل حتى العلم، أن يصوغ قوانين عالمية وضرورية.

الفكرة الثالثة عند هيوم والتي أود أن أوجزها هي عن الأخلاق. علّم بأنّ الأخلاق لا تركز على المنطق أو على واقع الأمور، إنّما تركز على المشاعر. الحكم الأخلاقي يولد في الداخل، ويعتمد إمّا على إيجادك لمشاعر الموافقة وإمّا على عدم الموافقة على ما ستقدم عليه. هذا الحكم الأخلاقي هو نتيجة الأحاسيس والمشاعر لا المنطق. يمكن مقارنة الرذيلة والفضيلة بالأصوات والألوان أو بالحرارة والبرد. (نستطيع الآن أن نفهم من أين أتى برتران راسل Bertrand Russell بأفكاره حين قال إنّهُ يميّز بين الخير والشر بالطريقة نفسها التي يميّز فيها بين الألوان).

نستطيع بكل سهولة أن نرى كيف أنّ تحليل هيوم الفلسفي يمكن أن يمهد الطريق أمام نشوء دولة دكتاتورية حيث المجتمع مبرمج لكي يشعر كما تشعر القوى الحاكمة. (بالمناسبة، من الجدير ملاحظته أنّ هيوم أحضر جان جاك روسو Jean-Jacques Rousseau معه إلى إنكلترا لكي يقيم فترة طويلة. ونحن اليوم نعيش في ظلّ نظرية روسو الثقافية، «قيم تتحكم بها الدولة»).

تلخيصاً لتفكير هيوم، يوجد عداوة واضحة عنده ضدّ الدين الموحى به، وضدّ العجائب، وضدّ الله. لقد جهّز نموذجاً للعقل الإلحادي ووضع

أسسًا لبعض الدكتاتوريات الكبيرة التي حكمت البشرية. التالي هو نقد موجز لأفكار هيوم:

١. التنافر الموجود عند هيوم هو التالي: لكي يكون هناك من معنى، على كل ما يُقال أن يكون إمّا له علاقة بالأفكار، أي حسابيًا أو كميًا، وإلاّ أن يكون له منطق اختباري يرتكز على أسئلة عن الحقائق، وبدورها لا ترتكز على الحقائق الحسابية ولا على الوقائع المختبرة. وبالتالي، تحديده للعبارة ذات المعنى، بعباراته الخاصة، لا معنى لها.

٢. تأكيد هيوم أنّ كل الأحداث هي أحداث مفكّكة بالكامل ومنفصلة وغير متّصلة هو تأكيد لا يمكن برهانه. عبارته هذه تتضمن وجود وحدة واتّصال، وإلاّ لما كان قادرًا أن يقول هذه العبارة. بكلمات أخرى، هو يفترض وحدة ذاتية وفي الوقت نفسه يُنكر وجود الوحدة.

٣. خلاصة هيوم المشكّكة بأن يتوقّف كل حكم على الواقع هي خلاصة تحكم على نفسها بالفشل لأنّ هذه الدعوة لتوقيف كل حكم هي بحدّ ذاتها حكم على الواقع.

٤. حجة هيوم ضدّ المعجزات هي حجة غير مقبولة، كما هي الحال بالنسبة إلى انتقاداته الأخرى ضد الله والتي تطرّقا إليها سابقًا. حجّته هي كالتالي: بما أنّ المعجزة هي انتهاك لقانون الطبيعة أو شذوذ عنه، فالأعجوبة بتحديددها ترتكز على درجة دنيا من الاحتمال. يقول هيوم، إنّ الرجل الحكيم سيركّز إيمانه دائماً على أعلى درجة من الاحتمال، وبالتالي، الرجل الحكيم لن يؤمن بالعجائب أو المعجزات.

حجة هيوم هي حجة مكلفة نوعاً ما. مثلاً، إنّ إمكانية نشوء هذا الكون، حتى بالنسبة إلى أقوى الملحد، هي نسبة لا تقترب من الصفر.

بالتالي، على الرجل الحكيم أن ينكر وجود الكون. حجّته تدور بدائرة مفرغة: يفترض أولاً أنّ العجائب لا يمكن أن تحدث أبداً، ويستنتج بعد ذلك أنها لم تحدث على الإطلاق. الرجل الحكيم الحقيقي، رداً على هيوم، هو رجل يستنتج استناداً إلى البراهين.

إذا أخذنا بعين الاعتبار موقف هيوم، لا يجب أن نُفاجأ حين يصل إلى هذه الخلاصة: «أنا مرتعب ومتحير من هذه الوحدة البائسة التي وضعتني فيها فلسفتي.»^٦ لقد تكلم بطريقة أفضل ممّا يعتقد. في الواقع، إنّ الضرر الذي أحدثته فلسفته بإزاحة الفكر كطريقة لإثبات الحق الإلهي، شوّه جانباً أساسياً من صورة الله في الإنسان، هادماً بالتالي أساس الثقافة والحضارة.

إمانويل كانت (١٧٢٤-١٨٠٤)

وُلد إمانويل كانت Immanuel Kant في العام ١٧٢٤ في مدينة كونيغزبرغ Königsberg، في شرق بروسيا Prussia، والتي هي الآن جزء من روسيا وقد تحوّل اسمها إلى كالينينغراد Kaliningrad. كان والده صانع أسرجة، لكن كانت نفسه كان يعمل أكثر في أفكار الحياة المجردة، وأصبح من أعظم الفلاسفة عبر الزمن، ويقف جنباً إلى جنب في مرتبة «الثلاثة العظماء»: سقراط وأفلاطون وأرسطو.

بعد أن تخرّج من الجامعة الموجودة في مدينة ولادته، أصبح معلّماً خاصاً لعائلات من بروسيا، وأخيراً أصبح أستاذاً جامعياً لمادة المنطق والماورائيات في جامعة كونيغزبرغ في العام ١٧٧٠. عاش كانت حياة هادئة ونظامية، وكان قليل السفر. بقي عازباً كل حياته وضرب فيه المثل حول التزامه الدقيق بالمواعيد. كان رجلاً محترماً جداً، واهتماماته لمست حياة الناس في عصره، وحياة الناس في القرون الآتية. كتب أحد طلابه أنّه «لم يكن هناك أي شيء لا يهتمّه، إن كان هذا الشيء يستحق المعرفة.»

وصل الكثير من نكاته إلى غُرَفِ صفوف الفلسفة حتى في أيامنا هذه. كانت هو الذي قال إنَّ دافيد هيوم هو «أول الذين أيقظوني من غفوتي العقائدية». هو أيضًا الذي قال إنَّ أمرين يستوقفانه بمهابة، «الفلك المألن بالنجوم فوقه، والقانون الأخلاقي الموجود في الداخل». نحن في حاجة إلى مُجلَّدات كبيرة من الدراسة لكي نفهم تمامًا هاتين العبارتين البسيطتين.

في هذه المرحلة من التطوُّر الفلسفي، كان يجري صراع بين الولاء الاستعماري للتفكير المنطقي والتزاوج البريطاني للاختبار الحسي. يتجلَّى هذا الصراع حتى اليوم ويمكن أن نراه بشكل واضح بالطرق المختلفة التي تُعامل فيها أوروبا وبريطانيا والولايات المتحدة موضوع الدفاعات، الدفاع عن الإيمان المسيحي. إنَّ السبب الكامن وراء هذا الإختلاف هو القيمة المتباينة التي تضعها كلُّ دولة من هذه الدول في طريقة الوصول إلى الحقيقة.

حاول كانت إقامة مواءمة بين الفلسفة التجريبية في الذهن الإنكليزي والعقلانية في الذهن الإستعماري. فقد ادَّعى أتباع الفلسفة التجريبية أنَّ اختبار مشاعرنا هو مصدر كلِّ إيمان ومعتقد. عرف كانت هذا لكنَّه لم يجار خلاصة المشكِّكين بأنَّ هذه المعتقدات تقع خارج الاختبار، وبالتالي لا يمكن تبريرها. وفي الوقت نفسه، رفض ادَّعاءات المنطقيين بأنَّ الحقائق الواقعية المتعلقة بما هو موجود أو غير موجود يمكن إثباتها حصريًا باستخدام المنطق فقط. سعى لكي يكتشف ما إذا كان بالإمكان الحصول على معرفة ماورائية، أي معرفة بأمور مثل وجود الله وخلود الروح، وما إذا كان للكائنات البشرية إرادة حرّة. استنتاجاته مسجَّلة في كتابه «نقد العقل المجرَّد» *Critique of Pure Reason*.

يمكن اعتبار كانت، من أوجه عدّة، الرائد الوحيد لثقة الإنسان الحديث بقوة المنطق، لمصارعة الأمور المادية وعجزها عن التعامل مع أي شيء

يتخطى المادة. فكلّ ما هو واضح بأنّه حقيقي يمكن تبريره منطقياً، وكلّ ما هو مطلق لا يمكن الدفاع عنه بالمنطق.

من الواضح أنّ أفكار كانت المعقّدة والمفصّلة لا يمكن مناقشتها في هذا السياق. لكن مع هذا، فإنّ تشعّبات فلسفته تصل إلى أماكن بعيدة بسبب نظريّته حول المعرفة. يلخّص الأستاذ الجامعي كولن براون Colin Brown هذه النظرية في صميمها:

يمكن تلخيص نظرة كانت حول المعرفة بالقول إنّ مادتها الخام تتألّف من العالم الخارجي المدرك بالأحاسيس (العنصر التركيبي)، لكن العقل البشري يحلّه حتماً (العنصر البديهي). عند إدراك العقل للمادة الخام، يقوم بتوظيف أشكال حدسية تتعلّق بالزمان والمكان. يستفيد العقل أيضاً من أبواب الإدراك الصافية للفهم، كباب الكمية والنوعية. النتيجة هي أنّ العقل لا يدرك الأمور كما هي. لأنّه «بينما يمكننا القول عن كثير من الأشياء أنّها بديهية، فيما يتعلّق بشكل مظاهرها، لا يمكن أن نتأكد من شيء فيما يتعلّق بذات هذا الشيء التي يمكن لهذه المظاهر أن تكمن فيها». إنّهُ كما لو أننا ننظر إلى كلّ شيء من نظارات ذات زجاج وردي. نرى الأشياء، لكننا نراها دائماً ملوّنة. هكذا بالتحديد، يجادل كانت؛ فالعقل ينظر إلى الأشياء من خلال أشكال حدسية وأبواب من الفهم. وبطريقة لا مفرّ منها، يكيّف العقل كلّ شيء يلتقي به.

هذه العقيدة لها نتائج بعيدة المدى. كان القصد منها أن تكون حماية ضد شك هيوم، لكن الثمن الذي دُفع لهذا الدفاع كان شكاً مضاعفاً. غالباً ما يُلاحظ أنّ هيوم أعطى كانت مشكلة المعرفة، وأنّ كانت قدّمها كأنّها هي الحل.^٧

لا أدريّة كانت حول الواقع المطلق تهدم نفسها بنفسها. من المستحيل افتراض أي شيء حول الواقع المطلق ما لم يكن الإنسان يعرف شيئاً ما عن الواقع المطلق. القول، كما فعل كانت، أنّ الإنسان لا يستطيع أن يعبر خط المظاهر هو عبور لذلك الخط لكي يقول ما قال. بكلمات أخرى، من المستحيل معرفة الفرق بين ما هو ظاهر وما هو حقيقي ما لم يعرف الإنسان أولاً ما يكفي عنهما معاً لكي يميّز بينهما.

هذه المحاولة بعينها في الفلسفة الشرقية، قادت إلى الصمت التام. قد يتذكّر بعض القراء أنّ في التواصل الأخير الصامت بين بوذا Buddha وتلميذه أناندا Ananda، استمرّ بوذا بتجريد وردة من أوراقها فيما كان أناندا يراقبه. أخيراً نظر بوذا إلى أناندا وابتسم، فابتسم أناندا أيضاً. هذا كلّ ما جرى بينهما. وحين سئل أناندا عما يعنيه كلّ هذا، أجاب: «الآن أنا أعرف.» لو أجبر على الإخبار بما يعلم لقال: «الآن أنا أعرف أنني أعرف.» الواقع المطلق في نظام كانت لا يُمكن إدراكه، لكن عرض كانت لعدم الإدراك هذا هو بالتالي يدمر ذاته بذاته.

لقد تطرّقت في مكان آخر إلى ضعف نظرية كانت الأخلاقية. وقد أصبح كانت من الناحية الفلسفية، المحيط الذي مخرّ عبابه كثيرون من الفلاسفة المختلفين، ومن هذا المحيط تفرّعت بحار وأنهر صغيرة الأفكار المختلفة.

سورن كيركيغارد (١٨١٣-١٨٥٥)

إن كانت حياة برتران راسل Bertrand Russell توصف بجدارة بأنّها متناقضة، فإنّ حياة سورن كيركيغارد Søren Kierkegaard كانت تجسيدا للنزاع. كانت حياته كلّها، من طفولته إلى مماته، تتخبّط عاطفياً. تربّى في بيت حيث كانت الكآبة تعمّه، فدخلت الكآبة في تفكيره بشكل طبيعي. عاش والده حياة يعذبها الذنب لسبب أو لآخر. لم يكن والده أميناً مع

زوجته الأولى التي توفيت عندما كانت تلد طفلها. كان متأكدًا أن الله «ينتقم» منه لأنه لم يفقدها فحسب، بل لأنه خسر أيضًا خمسة أولاد من أصل سبعة. ذات يوم، رفع قبضته نحو السماء وسبَّ الله، وهذه الذكرى لن تُفارق مخيلته أو مخيلة ابنه سورن. وقد لاحق هذا الذنب كيركيغارد كل حياته.

وُلد سورن الذي كان الأصغر بين هؤلاء الأطفال السبعة، عام ١٨١٣، ومات بعمر الثانية والأربعين. والفلاسفة هم نتاج زمنهم بكل ما للكلمة من معنى، وكما أنه يمكن أن نفهم إمانويل كانت بطريقة أفضل إن فهمنا أولاً دايقيد هيوم، هكذا أيضًا يمكن فهم فلسفة كيركيغارد بطريقة أفضل كردة فعل عنيفة على هيغل Hegel.

وفقًا لنظرية هيغل، يُصنّف الفرد عبر تكشف الأفكار بطريقة جدلية. المفاهيم والأمور التجريدية هي أهم مما هو واقعي وخاص. الفكر والآراء هي بمرتبة عليا، ويوجد بشكل واضح خسارة في الشخصية والفردية خلال هذه العملية. من المذهل رؤية عدم التوافق بين الأشخاص الذين يعلّقون على أعمال هيغل، فالبعض قال إنه ملحد، والبعض قال إنه مؤمن بوجود الله، والبعض الآخر قال إنه يؤمن بأنّ الكل هو الله (كل ما هو موجود في الكون هو أجزاء من الله، بحكم أنّ الكامل، أعظم من مجموع تلك الأجزاء). إن كان الفكر، في هذه القرينة، هو الواقع المطلق، فإنّ المظاهر الخاصة عنه هي ثانوية. يخسر هيغل قيمة الفرد.

كردّ فعل على هذا، «أعاد» كيركيغارد القيمة الفردية للإنسان. وللتعبير عن ذلك بطريقة أفضل، كانت فلسفته في جعل الدين أمرًا فرديًا. أصرّ على أنّ إرادة الفرد البشري وقدرته على الاختيار هما ذات أهمية قصوى. لا يتمّ الاختيار عبر مناقشة لمعايير معينة، بل هي «قفزة إيمان» تؤكد تجسد الله بينما تعترف بأنّها سخافة فكرية. على هذا التأكيد أن يتمّ من دون الإشارة إلى الآخرين كتأكيد على

فراة الإنسان. الالتزام الديني ضمن هذه المعايير هو إيمان فردي صاف وحصري.

أحد المفاتيح التي تساعدنا على فهم كيركيغارد هو القدرة على التقاط ما بدأ به، أي بمراحل الحياة الثلاث: المرحلة الجمالية، والأخلاقية والدينية. كل مرحلة من هذه المراحل تحتاج إلى قفزة إيمان. لكن، حين ينتقل الفرد من مرحلة إلى أخرى، فهو لا يهجر المرحلة السابقة إنما ينزلها إلى درجة ثانوية بالنسبة إلى المرحلة التي حلت مكانها. في المرحلة الجمالية، يسعى إلى الهروب من الملل عبر السعي الرومنسي وراء نطاق واسع من الملذات، لكن النتيجة المرجوة لا تتحقق، واليأس هو نهاية هذه المرحلة. يقفز من هذه المرحلة إلى المرحلة الأخلاقية، حيث يتجاوب الإنسان مع الأخلاق الموضوعية عبر نداء لتتبع الواجب. هذا أيضًا سيفشل في تثبيت الوجود الفردي، فتحدث القفزة الثالثة اعترافًا بفناء الإنسان وطبيعته الخاطئة إلى المرحلة الدينية. هذه القفزة الأخيرة ليس «مرة وإلى الأبد» لكنها تتكرر.

يركز كيركيغارد في كتابه «خوف وقشعريرة» *Fear and Trembling* على القصة التي وردت في سفر التكوين ٢٢ وهي قصة إبراهيم حين ذهب ليقدم ابنه ذبيحة. فهو يعتبر ما حدث هنا الإيضاح الأسمى للدين الذي يتخطى الأخلاق. كان إبراهيم يعرف القانون الأخلاقي العالمي بأن لا يقتل، ومع هذا كان إبراهيم يشعر بأن إيمانه بالله يدفعه إلى «قتل» ابنه. وهكذا، يرتفع الفرد فوق ما هو كوني.

عبارة من يوميات كيركيغارد توجز هذه الطريقة الذاتية للحقيقة بامتيان: «المسألة هي أن أجد حقيقة تكون صادقة من جهتي، وأن أجد الفكرة التي لأجلها يمكن أن أحيأ وأموت.»^٨ إن ما يحتويه الكتاب المقدس من حقائق عظيمة وشاملة ليس بذات أهمية، بالنسبة إلى كيركيغارد. قال إنه لو ترك لنا كتاب الأنجيل عبارة واحدة هي «نؤمن أنه في سنة كذا

ظهر الله بيننا في هيئة عبد متواضع، وأنه عاش وعلم في مجتمعنا وأنه مات أخيراً»، وكانت هذه عبارة كافية. ما هو تاريخي ومنطقي يبقى أموراً لا أهمية لها. كان تأثير كيركيغارد على اللاهوتيين والفلاسفة تأثيراً عظيماً، بمن فيهم بارت Barth وهايدغر Heidegger وجاسبرز Jaspers وآخرين غيرهم.

أمّا نقاط ضعف فلسفة كيركيغارد فواضحة جداً. أولاً وقبل كل شيء، فشل في تقديم امتحان للحقيقة بالنسبة إلى المعتقدات الدينية المتناقضة. لو كان الله موجوداً حقاً، فشخصيته وصفاته موجودان، بغض النظر عن اختياري بأن أؤمن به. إن طبيعة ومحتوى الكلمة الله، بعيداً عن الحقيقة، مفتوحان أمام أي خيار إن لم يكن المنطق والتاريخ معيارين لقراري.

ثانياً، على كيركيغارد أن يعترف بأنه إما كان يعبر عن حقيقة ما أم لا. إن كان بالفعل يفعل ذلك، فعليه أن يؤمن امتحاناً للحقيقة بعيداً عن «قفزة الإيمان».

ثالثاً، لا يعطي كيركيغارد أساساً منطقياً ليواجه به الملحد. لأنه قبل أن يؤمن الإنسان بالله، عليه أن يثبت أن الله موجود.

فريدريك نيتشه (١٨٤٤-١٩٠٠)

حين وُلد فريدريك و. نيتشه Friedrich W. Nietzsche في ١٥ تشرين الثاني عام ١٨٤٤، كانت أجراس الكنيسة تُقرع، فاعتُبر هذا الأمر فآلاً جيداً. صادف هذا التاريخ أيضاً ميلاد الملك البروسي، فريدريك فيلهلم Friedrich Wilhelm، لذلك كانت أجراس الكنيسة تُقرع، ولهذا السبب أطلق على نيتشه اسم فريدريك في يوم المعمديته.

كان والد نيتشه قساً من الطائفة اللوثرية، وكان جدّه أيضاً يعملان في الخدمة المسيحية. توفي والدّه حين كان في الخامسة من عمره، ممّا

اضطره أن ينتقل إلى مدينة ناومبرغ Naumburg، حيث تربى في منزل مع والدته وأخته وجدته، وعمّتين عزباوين.

تعلّم في مدرسة مشهورة اسمها سكولفورتا Schulpforta، وهي مدرسة تأسست خلال فترة الإصلاح في دير سابق تابع للرهبنة البندكتية. اعتُبر نيتشه تلميذاً مثالياً وتابع دراساته في جامعة بون Bonn وجامعة لايبزيغ Leipzig. عُيّن وهو في الخامسة والعشرين من عمره أستاذاً جامعياً في جامعة بايزل Basel، في سويسرا، وفي العام ١٨٧٢ حصل على الجنسية السويسرية.

كان الفيلسوف آرثر شوپنهاور Arthur Schopenhauer (وكان يُدعى الفيلسوف المهووس بالإرادة) من بين الفلاسفة الذين كان لهم تأثير عميق على نيتشه، وكذلك الموسيقار ريتشارد فاغنر Richard Wagner. انتهت صداقته مع هذا الأخير بانفصال مرير بسبب غطرسة فاغنر الكبيرة والعداء الذي يكنّه ضد السامية.

عانى نيتشه بسبب صحته الجسدية الضعيفة، ونتيجة لذلك استقال من منصبه في التعليم بعد عشر سنوات. وخلال السنين العشر التي تلت، انكبّ على الكتابة بشكل كثيف على الرغم من وهن حالته. أصيب بالجنون في السنوات الاثنتي عشرة الأخيرة من عمره وكانت أخته إليزابث Elizabeth تعتني به. لكنّ علماء اللاهوت لم ينظروا إليها نظرة لطيفة لأنها تولّت أمر كل مخطوطاته، ويبدو أنّها أخفت منها وعدّلت فيها ونشرتها كما يحلو لها، وغالباً ما شوّهت ما تعنيه وما تؤكّده هذه المخطوطات. وقد وضعت عنوان كتاب سيرة حياتها بشكل مثير للانتباه: «شقيقة زردشت» Zarathustra's sister. هي نفسها كانت تعتبر أنّ هتلر هو تجسيد للإله أو للرجل الخارق الذي كان نيتشه قد مدحه.

بدأ إنتاج نيتشه الأدبي بالكتاب «مولد التراجيديا» The Birth of Tragedy (١٨٧٢)، وهو محاولة لتفسير الفن والدراما في ضوء فلسفة

شوينهاور والفيلسوف فاغنر. وتلاه الكتاب بعنوان «العلم المرح» *The Gay Science* (١٨٨٢)، والكتاب «هكذا تكلم زردشت» *Thus Spake Zarathustra* (١٨٨٢-١٨٨٥)، والكتاب «ما وراء الخير والشر» *Beyond Good and Evil* (١٨٨٦)، والكتاب «فلسفة القيم» *Genealogy of Morals* (١٨٨٧)، والكتاب «أفول الأصنام» *The Twilight of the Idols* (١٨٨٩)، وبعد وفاته، نُشر كتابان له بعنوان «عدو المسيح» و«هذا هو الإنسان» *Antichrist and Ecce Homo*.

لو كان هناك كلمة واحدة لوصف حياة نيتشه لكانت الكلمة «سخرية». كان أسلوبه في الكتابة غنياً بالسخرية موضعاً برفضه للأخلاق على فم الأخلاقي زردشت. لكن هذه السخرية انقلبت عليه في حياته. تكلم عن جنون كوني، وأصيب بالجنون بشكل مأساوي. تكلم عن تفوق الرجل الخارق الذي سيطر بقوة إرادته، لكنه قال عن حياته: «لقد كنت ساحة معركة أكثر مما كنت إنساناً». ازدري بالأخلاقيات المسيحية، لكن فساد الأخلاقي أدى إلى إصابته بمرض السفلس (الزهري) الذي بدوره أوصله إلى الجنون. كتب بلهجة الواثق من نفسه، لكنه وصف نفسه بأنه «فيلسوف المخاطر «ربما»». قصائده الشعرية كانت تعبر عن عقل فني، لكن حياته كانت فاجرة وفوضوية. اعتقد أنه يمكن إنزال مرتبة أي شيء في الحياة إلى الإرادة للتأكيد الذاتي، لكنه في أيامه الأخيرة كان في الواقع سجيناً لإرادة أخته. كان مُعجباً بيسوع بطريقة تدعو إلى الغرابة، لكنه فعل كل ما في وسعه ليدمر رسالة الإنجيل. رأى في تعليقه على الأنجيل شخصية نبيلة واحدة، بيلاطس البنطي، لأنه طرح سؤاله الذي ينم عن ازدراء: «ما هو الحق؟»

أحد أكبر المُعجبين بنيتشه هو أدولف هتلر، الذي زار أورشيفه في فيمار Weimar مرّات عدّة. هنأت إليزابث (أخت نيتشه) موسوليني Mussolini بمناسبة عيد ميلاده الخمسين كونه «أنبل تلميذ لزردشت». بهذا المعنى، أصبحت فلسفة نيتشه في خدمة أكثر الاختبارات دموية عبر التاريخ.

ثمّة ناحية حزينة جدًّا في حياة نيتشه، ومن الصعب جدًّا عدم الشعور بندم عميق على حياته المثيرة للشفقة وعلى عبقريته المهدورة. كما نحزن حين ننظر إلى حياة الذين كانوا حوله. في السنة التي توفي فيها، رأت أخته زوجها ينتحر. كانت والدته امرأة مسيحية ملتزمة اهتمت بنيتشه لمدة سبع سنوات من أصل إحدى عشرة سنة من سنوات إصابته بالجنون، إلى أن توفيت في العام ١٨٩٧. عبّرت في رسالة كتبتها إلى صديقتها عن دهشتها لكمية الآيات الكتابية التي عرفها نيتشه والتي كان يقتبسها في سني حياته الأخيرة. قالت: «نفسى ممتلئة بالامتنان لإلهنا العزيز لأنّي أستطيع الآن أن أهتم بابني هذا الذي خرج من قلبي.» لا بدّ أنّها كانت تشعر بالانسحاق حين كانت ترى ذلك الرجل الذي يرثى له والذي كان يبقى صامتًا لمدة شهر متواصل أو أكثر من شهر. لم يكن يعرف من هو في أغلب تلك السنين، ولم يكن يعرف أين كان موجودًا أو في أي قرن يعيش.

لكن، لو أردنا أن نقيم تعريف نيتشه للرجل الخارق، يكون نيتشه بالذات هو الذي ينطبق عليه هذا الوصف. لقد عرّف نيتشه الرجل الخارق كشخص يدرك المأزق البشري، وعلى الرغم من ذلك يخلق قيمه الخاصة، وهو قادر على الرغم من ذلك أن ينتصر في وجه الكروب والحرمان. لقد تحقّق أغلب ما توقّع أن يشهده الإنسان في القرن العشرين، القرن الأكثر دموية. ختم أحد أصدقائه الذي تكلم في دفنه بهذه الكلمات: «سلام على رماك. ليتقدس اسمك في كلّ الأجيال القادمة.» وممّا يدعو إلى السخرية أنّ نيتشه كتب في *Ecce Homo* الكتاب الذي لم يكن قد نُشر عند وفاته: «عندي خوف رهيب أن أدعى ذات يوم 'قدّيسًا'.» لقد تنبأ بهذا الأمر أيضًا.

كان يُدعى ضمن دائرته الداخلية باللقب برتي «Bertie». كان برتران راسل Bertrand Russell أحد أكثر الشخصيات حيوية في الفلسفة. من الصعب أن يبقى الإنسان حياديًا تجاه راسل. عاش راسل عمرًا طويلًا إذ توفي عن عمر يناهز الثمانية والتسعين، وقد شهد في حياته تقلبات سياسية وإجتماعية وفلسفية ودينية. وتمشيًا مع انجذابه نحو كل ما هو جدلي، خطا في هذه الحلقات الأربع وهو يضرب بقبضة يده.

كان راسل كاتبًا كثير الإنتاج، وكانت الكتابة بالنسبة إليه أمرًا سهلاً جدًا. كتب تقريبًا سبعين كتابًا بمواضيع مختلفة. كتب عن الصين والأخلاق والتصوف والمنطق والبولشيفية والزواج والثقافة ونزع السلاح النووي والشيوعية والرأسمالية والدين ومواضيع أخرى متعددة. تضمنت بعض مقالاته في المجالات آراءه حول استخدام أحمر الشفاه، واختيار نوع السيجار وضرب الرجال لنسائهن. كان لراسل أفكار واسعة وعقل راجح خلال المجادلات. كان عديم الرحمة في انتقاده للآراء التي كان يمقتها، وكانت هجوماته لاذعة. يقول المؤرخ پول جونسون Paul Johnson، إنه لا يوجد مثقف في التاريخ قدم نصائح للبشرية في فترة زمنية طويلة كهذه مثل راسل. كانت علاقته بالأفكار أفضل بكثير من علاقاته بالناس، فهو الذي قال: «أنا أحب الرياضيات لأنها ليست بشرية».

أفضل كلمة يمكن استخدامها لإيجاز حياة راسل هي كلمة التناقض. كان يدافع عن السلام العالمي بشكل علني، لكن في حياته الخاصة كان يحقد على كل الأشخاص الذين لا يعجبونه ويكرههم. كان في خطابه يتجهّم على التسلّح، وكان يدعو إلى السلام، لكنه وفي مناسبات كثيرة عبّر عن أمنيته بأن تتسلّح أمريكا بسرعة ضدّ الإتحاد السوفياتي الذي كان يزدهر ويقوى عسكريًا. كتب أشدّ المقالات ذمًا ضدّ الماركسية، لكنّه عاد وكتب بحقد كبير ضد الولايات المتحدة وضد الرأسمالية. في إحدى

المرات، قال عن جون كيندي John Kennedy وعن هارولد ماكميلان Harold Macmillan إنهما أشر من هتلر. كتب أبحاثاً عن حقوق المرأة، لكنه على الصعيد الشخصي كان يحتقر قدراتهم العقلية. أتب أخاه لأنه ترك زوجته، ومع هذا كانت زيجاته الأربع تتسم بالخيانة الزوجية. كان يغضب جداً عندما يكذب أحدهم عليه، لكن خداعه كان واضحاً في مناسبات عديدة.

لم يكن هناك تناقضات وازدواجية في حياته فحسب، لكنه غير أيضاً آراءه الفلسفية في عدة مناسبات. لاحظ الفيلسوف تشارلي بروت Charlie Broad، وهو أستاذ جامعي علم مادة الفلسفة الأخلاقية في جامعة كامبريدج Cambridge من العام ١٩٣٣ إلى العام ١٩٥٣، أن راسل كان يخترع فلسفة جديدة كل بضع سنوات.

ومع ذلك، كان برتران راسل عبقرياً، ومن المؤسف جداً أن عقلاً كبيراً كعقله يغرق في جدالات تافهة كانت تظهر تحيزه أكثر من نكائه. مثلاً، قال وهو ينتقد المسيحية، إن المسيحية، على حد علمه، أنتجت أمرين جيدين فقط: أولاً، الروزنامة الميلادية، وثانياً، أن كاهنا مصرياً كان أول من كتب عن كسوف القمر. يقول: «عدا ذلك، لا أرى أي شيء صالح نتج عن المسيحية.» كانت هذه نموذجاً عن فوراته وهيجانه ضد الدين. كان راسل مقتدرًا في المجادلة، وكان بارعاً في إظهار تناقض ما في الموضوع المطروح للجدل، لكي يثبت نظرية أراد أصلاً الدفاع عنها.

إحدى المفارقات التي اشتهر بها راسل موجودة في مجموعة من النظريات. الموضوع معقد جداً لا يمكن مناقشته هنا، لكن تمت صياغة هذه المفارقة بعد الاعتراف بالحاجة إلى نظرية حول ما هو لانهائي أو غير محدود. هكذا طرح المشكلة: بعض المجموعات (أو الطبقات) هي أعضاء لذاتها والبعض الآخر ليس كذلك. مثلاً، مجموعة الكلاب ليست أعضاء لذاتها لأنها مجموعة وليست كلباً. بينما المجموعة التي ليست كلاباً هي

أعضاء لذاتها لأنها مجموعة وليست كلبًا، ولأنّها تتعامل مع غير الكلاب. وهكذا عبّر راسل بالتالي عن مفارقتها: هل مجموعة كلّ المجموعات والتي ليست أعضاء لذاتها هي عضو لذاتها؟ فإن كانت كذلك، فهي ليست كذلك. وإن لم تكن كذلك، فهي كذلك. سيذهل الطالب ذات العقلية غير الفلسفية للتأثير العميق الذي أحدثه هذا على تطوّر نظرية المجموعة.

استخدم راسل هذه المقاربة في كثير من مجادلاته ضدّ الله. كانت الطريقة التي تعامل بها مع العبارات التي لا معنى لها عبر طرح أسئلة مشابهة وفرض خيارات مواربة. إليكم إحدى حججه الأساسية ضد الله والقانون الأخلاقي:

يقول راسل إنّ لو كان هناك من قانون أخلاقي، كما يدّعي الذين يؤمنون بوجود الله، «فسيصدر هذا بأمر من الله (قرار أو مرسوم من الله) وإلاّ لن يكون هذا القانون موجوداً.» إن كان هذا القانون موجوداً بقرار أو مرسوم من الله فهذا المرسوم سيكون اعتباطياً، والصالح ما هو إلاّ طريقة أخرى لنقول: «لأنّ الله قال هكذا.» على هذا الأساس، يستطيع الله أن يعلن أي شيء أرادته وبالتالي يمكن لهذا الأمر المعلن أن يكون إمّا صالحاً وإمّا غير صالح. من جهة أخرى، إن كان الله خاضعاً لبعض الصلاح الخارج عن ذاته، فلن يكون بالتالي إلهاً مطلقاً. والخيار الذي يضعه راسل أمام المؤمن بوجود الله هو إمّا أن يكون الله متعسفًا، وإمّا لا يكون مطلقاً.

المعضلة التي وضعها أمامنا راسل ليست خاطئة فحسب، بل هي موضوعية بشكل خاطئ أيضًا. فالسؤال الذي طرحه يجب أن يطرحه على نفسه وليس على الله: هل راسل اعتباطي في خياراته الأخلاقية أم أنّه خاضع لآخر؟ إن كان اعتباطياً، فلماذا ينتقد أمريكا خلال حرب فيتنام ولماذا يعتبر جون كيندي وهارولد ماكميلان شريرين؟ من أين أخذ معايير الأخلاقية ليقس عليها؟ من جهة أخرى، إن لم يكن اعتباطياً،

فلا بدّ من وجود قانون أخلاقي أعلى منه. وهذا ما لا يريده. إذا، يضع راسل على نفسه الحجة نفسها التي وضعها على الله.

على العكس، إن كان الله كما يصفه الكتاب المقدس، لا متناهيًا، كلي القدرة، قدوسًا ومحبًا، أليس ممكنًا أن يكون القانون الأخلاقي تابعًا من طبيعة الله الثابتة؟ وهكذا، فإنّ الله ليس اعتباطيًا، والقانون الأخلاقي ليس فوق الله، بل هو جوهري في شخصه. على القانون الأخلاقي أن يتمركز في مكان ما. وحين يطبّق القانون الأخلاقي على كائن بشري، ستظهر معضلة غير اعتيادية إن أنكر هذا الكائن المحدود وجود الله. ومع ذلك، حين نضع هذا القانون في كائن غير محدود، لا مسبب له، أي الله نفسه، يُصبح هذا القانون جوهريًا.

تُشير الصعوبة التي يعبر عنها راسل هنا إلى مشكلة أكبر، في فهمه للشخصية والمعرفة. فقد وصل راسل إلى خلاصة مفادها أننا لسنا مُلمّين بشكل مباشر بالذات البشرية، لكننا يمكن أن نلّم بوقائع عقلية كالإرادة والإيمان، والرجاء. وقد وصل به هذا إلى الإيمان بأنّ الله هو كلمة لا معنى لها لأن ليس لها نقطة مرجعية. من الواضح أنّه يرفض شخصية الله حسب فرضيّاته، ويحكم على شخص المسيح في التاريخ بطريقة أقسى. هذه الفرضيات والثنائيات قادت راسل إلى أن يحيا حياة متناقضة باستمرار، وإلى إنزال مرتبة الناس إلى مجرد أرقام وكميّات.

جان پول سارتر (١٩٠٥-١٩٨٠)

جان پول سارتر Jean-Paul Sartre هو فيلسوف فرنسي وكاتب روايات. كان قد تأثر بمفكرين واسعِي الثقافة أمثال إدموند هوسرل Edmund Husserl ومارتن هايدغر Martin Heidegger. وقد أصبح سارتر الناصر الأول لفلسفة الإلحاد الوجودية. عند نهاية الحرب العالمية الثانية، كان قائدًا لمتقّفين فرنسيين يساريين، وشارك في تأسيس المجلة الراديكالية

Les Temps Modernes. ابتعد بعد سنوات عن الفلسفة الوجودية واقترب من أسلوبه الخاص في الماركسية الإجتماعية. بقي يقول إن الماركسية والفلسفة الوجودية تكمّلان إحداهما الأخرى في نقدهما للمجتمع، وفي سعيهما المعلن للتعبير في المجال السياسي الحرّ والحرية المتأصلة في الطبيعة البشرية.

كان قلم سارتر لاذعاً جداً، كما أنّه كان مشهوراً بتأنيبه الصارم للذين لا يحبّهم. وقد اعتبره الذين يعرفونه أنانياً بامتياز. توفي والده حين كان عمره خمسة عشر شهراً، وكان يتكلّم بطريقة غير لطيفة عن إرث والده. فكان يقول مثلاً: «لو عاش والدي لسحقني... هذا الرجل الميت لم يعن لي الكثير». كان لسارتر بُنية جسدية ضخمة (طوله خمسة أقدام وإنشان ونصف)، وقد ألقى ظلاً ضخماً على طلاب الجامعة المتمرّدين في الستينيات.

عُرف سارتر بحياته الماجنة ونظرياته السياسية الثورية. وكما كان هايدغر بالنسبة إلى الإيديولوجية النازية، هكذا كان سارتر بالنسبة إلى القضية الماركسية. وقد صرّح شخصياً بأن عقيدته هي «السفر وتعدّد الزوجات والشفافية»، وهي عقيدة يُمكن لها أن تُصبح أنموذجاً للصحف الحديثة. قال ديكرارت مرّة إنّه لا يوجد أي شيء غامض أو غريب أو عجيب لم يتكلّم عنه فيلسوف أو آخر. وهذا الوصف يُناسب سارتر تماماً، إذ غالباً ما كان يصرّح بعبارات غريبة.

وبعض الأحداث التي حصلت له توجز حياته بطريقة أفضل من أحد الكتب التي نشرها، إذ كان يواعد خليلتين، بل أربعاً، في آن واحد، وطلب إلى الناشر أن يطبع خفية نسخة لكل واحدة منهنّ، بحيث يظهر اسم كل خليلية مطبوعاً في صفحة الإهداء، كما لو أنّ الكتاب مُهدى بشكل خاص لها.

قد يكون تأثير Jean-Paul Sartre في المُثقّفين واحداً من أفزع العناصر تدميراً، إذ جعلت جرائمهم القاتلة تُغرّق كمبوديا Cambodia بدماء شعبها، حاصدة عشرات الآلاف من الأرواح.

ولكي يفهم المرء Jean-Paul Sartre، لا بدَّ له من فهم الفلسفة الوجودية. تُعالج هذه الفلسفة أكثر الأمور شخصيّة في الاختبار البشريّ، مُدركة شمولية البنية والأوضاع التي يحيا فيها ذلك الوجود الشخصيّ. تهتمّ الفلسفة الوجودية بادئ ذي بدء بشرح كيفية إدراك الوعي الفردي للوجود. ومن هذا الإدراك، تفيض الحرية والخيار الشخصيّ والأصالة الشخصيّة والعلاقات...

من أشهر أعمال سارتر الفلسفية كتاب «الوجود والعدم» *Being and Nothingness* الذي نُشر عام ١٩٤٣. أمّا السؤال الأساسي الذي يُعالجه هذ الكتاب فهو: «كيف يكون المرء كائنًا بشريًا؟»، وفيه استنتج أنه لا يوجد تفسير لجوهر وجود الأشياء، فهي موجودة بالصدفة، وهذا كلُّ ما يمكن أن تكون عليه. الحياة سخيّة، إذ لا يمكن تفسير علّة وجودها. ولكن بما أنّ الإنسان في حالته المطروحة هذه، عليه أن يبتكر ويختار قيمه الخاصّة. بمعنى آخر، لم يصل الإنسان أبدًا إلى ما يجب أن يكونه، بل هو دائمًا نتاج ما يفعله ويختاره، وهذا يشكّل عاملاً في تكوين شخصيّته، ويجعل من خياره الثاني أمرًا مُمكنًا. كما أنّ الموت يظهر دائمًا في وجه كلّ هذا الاختيار والضرورة. الإنسان، باختصار، مقيّد، مصيره محتوم لكنّه حرّ، هو حرّ لكنه مُستعبد.

وابتغاءً لتقديم تشبيه أفضل، فإنّ فلسفة سارتر الوجودية هي النسخة العلمانية لفلسفات العصر الجديد التي تسعى إلى الفرار من تأليه التكنولوجيا للوعي الحديث، وإيجاد الإنسان المانترا mantra الخاصّة به لتثبيت أصالة وحقيقة وجوده الذاتيّ، عبر رفع المرء نفسه بنفسه بواسطة أشربة حذائه الوجودية الخاصّة.

في وجه سخف أصل وجود الحياة والخوف من انتهائها، يختار الإنسان ويغذّي تاريخه الشخصيّ بعناصر لا يمكن فصلها في ما بعد عن

المُنْتَج، وهذا يجهّزه بدوره للخيار الثاني. من هنا، قد يُفهم لماذا اختار أن يُطلق على أحد كتبه عنوان «الغثيان».

إنّ نقد فلسفة سارتر الإلحادية هي في الواقع نقد للإلحاد نفسه. يستند سارتر في أحد أهم براهينه لإثبات عدم وجود الله على عدم نجاح الإنسان في إيجاد الله بنفسه. فكلّ ما يمكن تثبيته في هذا التصريح هو أنه لم يقدر أن «يجد» الله، ولا يمكنه بأي منطق أن يُثبت بذلك أنّ الله غير موجود، لأنّه إن وضعنا إنساناً في الصحراء، ربما يموت من دون طعام، لكن هذا الأمر لا يُثبت أن الطعام غير موجود.

أمّا بالنسبة إلى نظرية سارتر الأخلاقية، فإنّها تنادي برفض القوانين الأخلاقية، وهي فلسفة لا يمكن للإنسان أن يحيا بموجبها. في الواقع، هي كذلك لدرجة أنّه يوجد دليل على أنّ سارتر نفسه وافق ضمناً على وجود الله، بل وافق جهراً على ذلك في أيامه الأخيرة.

ENDNOTES

CHAPTER 1

THE CRY TO KNOW GOD

INTRODUCTION

1. Paul Scherer, *The Word God sent* (New York: Harper & Row, 1965), 11.

CHAPTER 1

ANGUISH IN AFFLUENCE

1. Andrew Fletcher, quoted in Harold A. Bosley, *Sermons on the Psalms* (New York: Harper & Brothers, 1956), 40.
2. L. E. Aute, Sheila Aute, "Who Will Answer?" © 1967 Editiones Musicales BMG Ariola S. A. All rights in the U.S.A. administered by BMG Songs, Inc. (ASCAP). All rights reserved. Used by permission.
3. Robert Fripp, Michael Giles, Greg Lake, Ian McDonald, Peter Sinfield, "Twenty First Century Schizoid Man" © 1969 E. G. Music, Ltd. (PRS). All rights in the U.S.A. administered by Careers-BMG Music Publishing, Inc. (BMI). All rights reserved. Used by permission.
4. Robert Fripp, Peter Sinfield, Ian McDonald, Greg Lake, Michael Giles, "Epitaph" © 1969, 1971 E. G. Music, Ltd. (PRS). All rights in the U.S.A. administered by Careers-BMG Music Publishing, Inc. (BMI). All rights reserved. Used by permission.
5. Immanuel Kant, *Critique of Pure Reason*, trans. Norman Kemp Smith (New York: St. Martin, 1965), 875.
6. J. P. Moreland and Kai Nielsen, *Does God Exist?* (Nashville: Thomas Nelson, 1990).
7. Auguste Comte, quoted in the introduction to A. J. Hoover, *Don't You Believe It* (Chicago: Moody, 1982).

8. Arthur Schopenhauer, quoted in Hoover, *Don't You Believe It*.

CHAPTER 2

STRAYING THOUGH AN INFINITE NOTHING

1. Etienne Borne, *Atheism* (New York: Hawthorn, 1961), 61.
2. Paul Edwards, ed., *Encyclopedia of Philosophy*, vol. 1 (New York: Macmillan, 1967), 175.
3. Madalyn Murray O'Hair, *What on Earth Is an Atheist?* (New York: Arno, 1972), 39-43.
4. See Peter Angeles, ed. *Critiques of God* (Buffalo: Prometheus, 1976) and Gordon Stein, ed. *An Anthology of Atheism and Rationalism* (Buffalo: Prometheus, 1984).
5. Frederick Nietzsche, "The Madman", a section of *Gay Science* in Walter Kaufmann, ed. *The Portable Nietzsche*, (New York: Viking, 1954), 125.
6. Quoted in *The Veritas Forum* (a public discussion of faith at the Ohio State University), fall 1993 special issue, 1.
7. Ibid.
8. Stephen Jay Gould, quoted by David Friend and the editors of *Life* magazine, *The Meaning of Life* (Boston: Little, Brown, 1991), 33. A fuller context of this quotation is found in chapter 6.

CHAPTER 3

THE MADMAN ARRIVES

1. Viktor Frankl, *The Doctor and the soul: Introduction to Logotherapy* (New York: Knopf, 1982), xxi.
2. Joyce Barnathan and Steven Strasser, "Exorcising a Soviet Ghost," *Newsweek*, 27 June 1988.

-
3. Thomas Common, translator, *The Philosophy of Nietzsche* (New York: Random House, n. d.), 28-29.
 4. Ibid., 33-34.
 5. Aldous Huxley, *Ends and Means* (London: Chatto & Windus, 1946), 273.
 6. Ibid., 270.
 7. David Friend and the editors of *Life* magazine, *The Meaning of Life*, 33.
 8. Walter Kaufman, *The Portable Nietzsche*, 103.

CHAPTER 4

THE HOMELESS MIND

1. See Alisdair MacIntyre's *After Virtue* (Guildford and King's Lynn, England: Biddles, 1990).
2. Iris Murdoch, *The Sovereignty of Good* (London: Ark Publishers, 1989), 80.
3. Fripp et al., "Epitaph".
4. From a debate between Dennis Prager and Jonathan Glover at Oxford University, 3 march 1993, Included in *Ultimate Issues*, vol. 9, no. 1. Glover's counterpunch was an equivocation on the illustration and philosophically contradictory.
5. Steve Turner, "Creed," *Up to Date* (London: Hodder & Stoughton). Used by permission.
6. Turner, "Chance." Used by permission.

CHAPTER 5

WHERE IS ANTITHEISM WHEN IT HURTS?

1. Alfred, Lord Tennyson, "In Memoriam," VI, 2 in *Tennyson's Poetry*, ed. Robert W. Hale, Jr. (New York, London: Norton, 1971), 123.
2. Wilfred McClay, "Religion in Politics; Politics in Religion," *Commentary*, October 1988. Used by permission.
3. C. S. Lewis, *The Problem of Pain* (New York: Macmillan, 1996), 138.
4. King George VI, quoted by Leonard Griffith, *Reactions to God* (Toronto: Anglican Book Center, 1979), 87.
5. Archibald McLeish, "When We Are Gods," *Saturday Review*, 14 October 1967.

CHAPTER 6

IN SEARCH OF LOWER MEANING

1. Stephen Jay Gould, quoted in David Friend and editors of *Life* magazine, *The Meaning of Life*, 33.
2. Philip Johnson has written a book, *Darwin on Trial* (Downers Grove, Ill.: InterVarsity, 1991) that startled the evolutionary world by exposing the fragile base on which it is built.
3. Alister McGrath, *Intellectuals Don't Need God* (Grand Rapids, Mich.: Zondervan, 1993), 15.
4. Ibid.
5. Quoted in Kenneth A. Myers, *All God's Children and Blue Suede Shoes* (Wheaton, Ill.: Crossway, 1989), 63.
6. Friend et al., *The Meaning of Life*, 194.
7. Ibid., 194

8. Ibid

9. L. E. Aute, Sheila Aute, "Who Will Answer?"

CHAPTER 7

THE SCIENCE OF KNOWING AND THE ART OF LIVING

1. Dietrich Bonhoeffer, "Who Am I?" *Letters and Papers from Prison*, Revised, Enlarged Edn. (New York: SCM Press Ltd., 1953, 1967, 1971), 221. Reprinted with permission of Simon and Schuster.
2. Stephen Hawking, *A Brief History of Time* (New York: Bantam, 1988), 175.
3. Norman Geisler, *Is Man The Measure?* (Grand Rapids, Mich.: Baker, 1983), 48.
4. Michael Polanyi, *Meaning* (Chicago: University of Chicago Press, 1975), 162.
5. D. H. Lawrence, source unknown.
6. Thomas Wolfe, "God's Lonely Man," in *The Hills Beyond* (New York: Plume/ New American Library, 1982), 146, 148.
7. William Shakespeare, *As You Like It*, II. vii.

CHAPTER 8

THE ROMANCE OF ENCHANTMENT

1. Kenneth R. Miller, "Life's Grand Design," *Technology Review*, February/ March 1994. Reprinted with permission.
2. The argument *to* design as distinct from the argument *from* design is a very important argument to understand. I have dealt with it more extensively in Appendix A.
3. Miller, "Life's Grand Design," 32.

4. John Polkinghorne, *One World* (London: SPCK, 1987), 57-58.
5. Christopher Morley, "No Coaching," quoted from Iucock and Brentano, eds., *The Questing Spirit* (New York: Coward-McCann, 1947), 418.
6. G. K. Chesterton, *Orthodoxy* (New York: Doubleday, 1959), 55.
7. Francis Thompson, *Complete Poetical Works of Francis Thompson* (New York: Boni & Liveright 1913), 356-7.

CHAPTER 9

TRUTH - AN ENDANGERED SPECIES

1. Malcolm Muggeridge, *The Green Stick: A Chronicle of Wasted Years* (Glasgow: William Collins & Sons, 1972), 16-17.
2. Ibid., 19-20.
3. I have dealt with the subject of truth-testing in greater detail in Appendix 2, "The Establishment of a World View" in my book *A Shattered Visage: The Real Face of Atheism* (Grand Rapids, Mich., 1990), 189ff.
4. Marie Chapiro, *Of Whom the World Was Not Worthy*, (Minneapolis: Bethany House, 1978), 122-3.

CHAPTER 10

LOVE'S LABOR WON

1. Christopher Morley, quoted in a column by Ruth Walker in *Christian Science Monitor*, 20 November 1991.
2. G. K. Chesterton, *As I Was Saying*, ed. Robert Knille (Grand Rapids, Mich.: Erdmas, 1985), 267.

-
3. Sandy and Harry Chapin, "Cat's in the Cradle." © 1974 Story Songs, Ltd. All rights reserved. Used by permission.
 4. Albert Lister Peace, "O Love That Will Not Let Me Go," 1885.

CHAPTER 11

CROSSING THE BAR

1. Malcolm Muggeridge, *Jesus Rediscovered* (Garden City, N. Y.: Doubleday, 1969), 77.
2. Dietrich Bonhoeffer, "Who Am I?" *Letters and Papers from Prison*.

CHAPTER 12

GETTING TO THE TRUTH

1. Richard Rotry, *Essays on Heidegger and Others*, Philosophical Papers, vol. 2 (Cambridge, England: 1991), 86, quoted by Gertrude Himmelfarb, *On Looking into the Abyss* (New York: Knopf, 1994), 14.

CHAPTER 13

HUMANITY'S DILEMMA

1. Blaise Pascal, *The Mind on Fire*, ed. James M. Houston (Portland, Oreg.: Multnomah, 1989), 115.
2. Ted Tuner, quoted in David Friend and editors of *Life* magazine, *The Meaning of Life*, 73.
3. An autobiographical excerpt quoted by Ian Hunter in *Malcolm Muggeridge: A Life*, (Toronto: Totem, 1981), 40.
4. Hobart Mowrer, "Sin, the Lesser of Two Evils," *American Psychologist*, 15 (1960): 301-304.
5. Anna Russell, "Psychiatric Folksong." Used by permission.

6. Peter Kreeft, *The Snakebite Letters* (San Francisco: Ignatius, 1991), 23.
7. John Z. DeLorean with Ted Schwarz, *DeLorean* (Grand Rapids, Mich.: Zondervan, 1985), 275.

CHAPTER 14

THE PHILOSOPHER'S QUEST

1. C. S. Lewis, *Beyond Personality* (London: Geoffrey Bles, 1944), 14-16.
2. Archbishop William Temple, quoted by David Watson in *I Believe in Evangelism* (Grand Rapids, Mich.: Eerdmans, 1976), 1957.

CHAPTER 15

THE HISTORIAN'S CENTERPIECE

1. Sigmund Freud essay, "Timely Thoughts on War and Death", quoted by Walter Kauffmann, *The Faith of a Heretic* (Garden City, N. Y.: Doubleday-Anchor, 1963), 356-7.
2. Jon MacQuarrie, *An Existential Theology: A Comparison of Heidegger and Bultmann* (New York: Harper & Row, 1965), 185-6.
3. Ibid., 1986.
4. Giza Vermes, *Jesus the Jew* (London: 1973), 19.
5. Robert Browning, *The Faith of a Heretic*, 376.

CHAPTER 16

THE BELIEVER'S TREASURE

1. Malcolm Muggeridge, *A Twentieth Century Testimony* (Nashville: Thomas Nelson, 1978), 72.

-
2. Christopher Browning, *Ordinary Men* (New York: HarperCollins, 1991), jacket copy.
 3. Anonymous, "A New Leaf," James G. Lawson, compiler, *The Best Loved Religious Poems* (Grand Rapids: Fleming H. Revell, 1961). Used by permission.
 4. James Stewart, *The Strong Name* (Grand Rapids: Baker, 1972), 55.
 5. Alfred, Lord Tennyson, "The Lotus-Eaters," *Tennyson's Poetry*, ed. Robert W. Hill Jr. (New York: Norton, 1971), 51.
 6. Chesterton, *As I Was Saying*, 237.

APPENDIX A

QUESTIONS AND ANSWERS

1. Norman Geisler's books *Christian Apologetics* (Grand Rapids: Baker, 1976) and *Philosophy of Religion* (Grand Rapids, Mich.: Baker, 1988), present his arguments in detail.
2. This summary of Dallas Willard's theistic defense is excerpted from J. P. Moreland and Kai Nielsen, *Does God exist?* (Nashville: Thomas Nelson, 1990), 197ff.
3. Ibid., 206.
4. Ibid., 210.
5. Ibid.

APPENDIX B

MENTORS TO THE SKEPTIC

1. For further reading on this subject, I would recommend Norman Geisler's *Christian Apologetics*.

2. Ronda Chervin and Eugene Kevane, *Love of Wisdom* (San Francisco: Ignatius, 1988), 212.
3. David Hume, "My Own Life" from E. C. Mossner, *The Life of David Hume* (Oxford: Oxford University Press, 1980).
4. David Hume, *Enquiry Concerning Human Understanding* (London: 1748; New York: C. W. Hendel, 1955).
5. Geisler, *Christian Apologetics*, 14-15.
6. David Hume, *Treatise of Human Nature*, ed. E. C. Mossner (Harmondsworth, England: Penguin, 1969), VII, 8.
7. Colin Brown, *Philosophy and the Christian Faith* (Downers Grove, Ill.: InterVarsity, 1968), 95-96.
8. Søren Kierkegaard, *Diary of Søren Kierkegaard*, ed. Peter Rohde (New York: Citadel, 1971), 44.
9. Geisler, *Is Man the Measure?* 48.